حرب التحرير العربيّة

نتائج وتوقعات

أديب اللجمي

تبين أخيراً لكل من كان يراوده الشك، ان معركتنا مع اسرائيل هي أولاً معركة قومية، هي معركة الأمة العربية كاملة، قبل أن تكون معركة نظام معين من الأنظمة العربية أو معركة ايدلوجيا بالذات. وصح ما نادى به الرئيس حافظ الأسد من وجوب التركيز بصورة خاصة على شعار « قومية المعركة »، لأن وضع حرب التحرير العربية في اطارها القومي هو الذي يؤمن لها بأن واحد اجماعاً شعبياً في داخل كل قطر عربي، يكتمل باجماع قومي يشمل الأقطار العربية كلها. وهذا بالضبط هو ما حدث في السادس من تشرين الأول، وهو بالضبط عكس ما حدث في الخامس من حزيران ١٩٦٧.

ومما يلفت الانتباه اننا نحن العرب، لم نفتأ منذ ١٩٤٨ ننادي بأن معركتنا مع اسرائيل هي معركة قومية، تستهدف اسرائيل فيها قهر الامة العربية واعاقتها عن التطور ومواكبة الحضارة الحديثة. بيد أن نداءنا ظلت قصراً على ابتهالات وخطب ومواعظ بينما بقيت الفرقة بين العرب، مثلما بقي الصراع الهامشي بين الاسرة العربية الواحدة مستعراً الى حد أنه استمر طوال ربع قرن من الوجود الاسرائيلي فوق الارض العربية، كأنما هو الموضوع الاول، بل الموضوع الوحيد. لذا لم يكن مستغرباً أبداً أن يكرر قادة اسرائيل ومؤسستهم العسكرية، كلما طاب لهم التكرار، أن سر قوتهم لا يكمن في تفوقهم العسكري بقدر ما يكمن في تمزق الصف العربي. ولم يشفع لهذا التمزق بعض ومضات من اللقاء « المرحلي » أملته ظروف وملابسات متشابكة، كما حدث في فترة العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، وكما حدث بصورة جزئية وبكثير من الرياء اثناء العدوان الاسرائيلي في حزيران ١٩٦٧.

وظلت « قومية المعركة » شعاراً يهتف به وحلماً جميلاً يراود اذهان ذوي النوايا الطيبة، حتى تحولت الى واقع مشخص في معارك تشرين ١٩٧٣. ولاول مرة في القرن العشرين على الاقل يبرهن العرب على انهم امة واحدة.

قيل الكثير عن نتائج حرب تشرين الأخيرة . قيل إنها أتاحت ولادة الانسان العربي الجديد ، وقيل إنها بددت أسطورة التفوق الاسرائيلي وأسطورة « السوبرمان » الاسرائيلي ؛ وقيل أيضاً إنها برهنت عن كفاءة الجندي العربي سواء في القتال أو في ممارسة التقنيات العسكرية الحديثة ؛ وقيل أكثر من هذا وذاك . بيد أن أهم ما تمخضت عنه حرب التحرير العربية الأخيرة ، هو في رأيي ، استعادتنا ثقتنا بأنفسنا ، فقد ضمرت ثقتنا بأنفسنا في أعقاب هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، وأخذت هذه الثقة تضعف مع الزمن ، وبصورة خاصة في إطار سياسة « اللاسلم واللاحرب » ، وزاد من ضعفها وضمورها عاملان هامان : الدعاية الاسرائيلية التي كانت تستهدف تحطيم أعصاب الشعب العربي ، والدعاية العربية المؤذية التي كانت في كثير من الاحيان تمارس بوجهين ، كلاهما سيء ومؤذ ، وجه التهويل والمبالغة على طريقة دون كيشوت ، ووجه اللعب بالألفاظ والتهريج بالأفكار بحيث كانت كتابات بعض المعلقين السياسيين العرب نموذجاً في البهلوانية ، كل مقالة فيها تنقض المقالة السابقة ، وكل فكرة تقدمها اليوم هي نفي لفكرة سبق أن قدمت بالأمس ، وهكذا .

وبالرغم من أن حرب تشرين كانت وما تزال « قومية » ، حولت مشاعر الشعب العربي من وضع الانفراط والتفكك الى وضع الانشداد والتماسك ، فقد ظلت بعض الأجهزة الاعلامية العربية ترقص على حبال « الشطارة » لتزوغ عقول الناس وتستمر في الخطة الشيطانية التي أخذتها على عاتقها ، خطة إضعاف ثقتنا بأنفسنا .

وبقدر ما تجلت « قومية المعركة » سلوكاً في حرب تشرين ، تجلت في الوقت ذاته « قومية » ردود الفعل لدى شعوب العالم الغربي . فانهارت قواعد « الجماعة الأوروبية » و « المجموعة الاقتصادية الاوروبية » ، و « حلف الاطلسي » ازاء القرار العربي بحظر ارسال النفط العربي الى اي بلد في العالم يؤيد العدوان الاسرائيلي ، ولا يدعم المطالب العربية المشروعة في وجوب انسحاب اسرائيل من الارض العربية واعترافها بحقوق شعب فلسطين .

هنا أيضاً كانت ردود الفعل «قومية» ، وكان على كل حكومة في أوروبا الغربية أن تهرع الى التبرؤ من الموقف الذي اتخذته الولايات المتحدة أو هولندا ، وأن تدوس على مبادىء « التضامن الاوروبي» ، أو « التضامن الغربي » في سبيل صيانة « المصلحة القومية » لكل بلد على حدة .

ان هذا الغرب الذي كان يتندر على العرب حين كانوا ينادون «بالقومية العربية»

شعاراً لتماسكهم ونضالهم بل ولنشاطهم الرامي الى تحقيق نهضتهم ومشاركتهم في الكيان الحضاري المعاصر لا بوصفهم نكرات بل بوصفهم عرباً يحملون مفاهيم ومعاني وقيماً تستطيع أن تغني اليوم ، مثلما فعلت بالأمس ، التراث الحضاري الانساني أقول، ان الغرب الذي كان يتندر علينا لتمسكنا بقوميتنا ، لم يجد أي سبب يدعوه للتخلي عن « قوميته » حين ظهر في الأفق مايهدد هـذه القومية لا في وجودها بل في نموها الاقتصادي ورخائها وترفها على حساب البترول العربي . وحين كنا ندعو في نطاق قومي الى تفتح شعبنا وتحرره ونهوضه كانت دعوتنا تؤخذ على أنها دعوة شوفينية ، أو دعوة تستند الى شعارات بارت منذ القرن التاسع عشر ولم يعد لها رصيد في مجتمعات القرن العشرين. لم تكن اسرائيل وحدها هي التي تشككنا في قوميتنا ، بل كان الغرب ذاته هو الذي يفعل ذلك متبعاً كل أساليب التشكيك والتضليل ، ومختلف ألوان الحذلقة الفكرية والفلسفية . وكان واضحاً ما يرمي اليه من سوء قصد : أن ننسى أو ننسي أنفسنا أننا عرب. ولكن شعباً انسلخ عن جذوره القومية لا يمكنه الصمود أمام غزوات الابادة التي يمارسها الاستعمار عليه . فأول شرط لنجاح الاستعمار هو الوصول الى حذف شخصية المستعمَر ، هو إفقاد المستعمَر هويته . ذلك مافعله الاستعمار الغربي والبريطاني ، وما يفعله اليوم الاستعمار البرتغالي واستعمار البيض في روديسيا وجنوب افريقيا : انهم يريدون اجتثاث أية رابطة فكرية أو ثقافية أو لغوية أو دينيـة لدى الشعوب بماضيها وتراثها .

ان مأساة العرب مع الصهيونية قـد برهنت على أن الحقّ ليس مجرد دساتير أو مبادىء ينادى بها ويهتف لها ، ومن أجلها تقـدم القرابين ، بل الحق جهاد يومي ومقارعة دائبة وارادة لاينالها الوهن من أجل بلوغ مانسميه « حقاً » . وقد أثبتت منظمة الأمم المتحدة ، مثلما أثبتت من قبلها عصبة الأمم أن الحق الذي قامت للدفاع عنه هاتان المنظمتان وفروعها مازال لعبة كالطابة يمكن أن يلعب بهـا الأقوياء وفق أهوائهم ومصالحهم بل وأنانياتهم دون أي وازع أخلاقي أو انساني ، ودون أي احترام لما يسمى في كتب الأخلاق وعلم القانون بسيادة الحق والمبادىء الانسانية .

بل ان الأمور في تقـديري أدهى من ذلك ، وأشدّ مرارة . إذ يبدو لي أن امتهان الحق يتناسب طرداً ودرجـة التطور الذي بلغته الدول الصناعية الكبرى وفي طليعتها الولايات المتحدة ، ونستطيع أن نقول دون أدنى تحرج ان الحضارة المعاصرة ليست أبداً حضارة تقوم على احترام الانسان ، بل هي أقرب أن تكون حضارة تقصم

ظهر الانسان وتزيد من ضياعه وغربته. وما ظاهرات التمرد التي يواجه بها جيل الشباب المعاصر نتاج الحضارة التي يعيشون في داخلها إلا علامة استنكار واستهجان، تعبّر عن رفض كيان هو في أعماقه لا انساني، دون أن تتمكن من احلال كيان انساني محله. ولو أن التطور الأخلاقي ساير التطور التقني الذي نشهده في الغرب المعاصر لرأينا الولايات المتحدة تهب لنصرة العرب في وجه العدوان الاسرائيلي وتنتصر لشعب فيتنام ضد جلاديه، وتعمل على تقويض التمييز العنصري في داخل بلادها وفي داخل القارة الافريقية.

معنى ذلك أن الحق يؤخذ ولايعطى، وسيمر زمن طويل على الانسانية قبل أن ترى الحق والعدالة والسلام غدت وقائع بعد إذ كانت مجرد تطلعات وأماني طوباوية.

من هنا أيضاً رسخت حرب السادس من تشرين الماضي حقيقة أن معركة العرب مع اسرائيل هي معركة قومية أولاً، ومعركة قومية آخراً، تعتمد على وحدة القوى العربية في مشرقها ومغربها، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. إذ أن اسرائيل، والغرب كله تقريباً من ورائها، لا يريدون أقل من إبعاد الأمة العربية عن ممارسة حقها في حياة جديدة بها، ولا أقل من أن تظل هذه الأمة مستمرة في البحث عن هويتها اذ لا إبداع ولا انتاج الا انطلاقاً من هوية قومية، من معنى معين. ان دفاع العرب عن حقوقهم هو أولاً دفاع عن وجودهم، لأن تهديد الوجود هو تهديد لجميع القيم التي تحاول الانسانية منذ أحقاب طويلة، وبخاصة في هذا القرن الحافل بالمآسي الجماعية، صونها وانقاذها. ان أعمال شرير واحد قادرة على تدمير جهود بناءة لألف من ذوي النوايا الطيبة. وهل كانت النوايا الطيبة معياراً لتقدم الانسانية، وبالتالي لتقدم الحق؟.

إن هذا يؤدي بنا الى نتيجة أخرى من نتائج حرب التحرير العربية. لئن تمكنت هذه الحرب من أن تعيد الينا ثقتنا بأنفسنا وبقدراتنا على أن نستعيد حقوقنا بقوانا الذاتية، فهي قد أبانت أيضاً مدى ما تنطوي عليه نفسية المواطن العربي من حرص على التماسك والتضامن في النطاقين الإقليمي والقومي. ان حرب السادس من تشرين كانت صورة بليغة لتماسك الحكم مع الشعب، وتماسك الشعب مع القوات المسلحة، وتماسك الشعب في كل قطر عربي مع إخوانه في سائر الأقطار العربية الأخرى. كان لا بد من حدوث السادس من تشرين ليظهر هذا التماسك على أشده وبشكل عفويته بعد أن ظل كامناً مكبوتاً طوال عشرات السنين.

إن حرب السادس من تشرين لم تفعل أكثر من أن كشفت عنه، فهو موجود

قبلها ، وسيظل موجوداً بعدها . ومن سوء الطالع أن أكثر الأنظمة العربية لم تفد في السابق من هذه الذخيرة القومية الهائلة بصورة لائقة ؛ فقد قدم المواطن خلال هذه الفترة الأخيرة من ضروب التماسك ورباطة الجأش والانضباط ، والاستعداد لتحمل كافة التضحيات والمشقات في سبيل الغرض القومي الأسمى ، مما يدعو كل حاكم ومسؤول عربي أن يعتبر هذا الواقع كنزاً لا يجوز إهماله في المستقبل من أجل الدعوة الى مزيد من التضامن العربي ، من التماسك القومي . هذه هي وحدة الأمة العربية وقد انبثقت من جديد بابلغ أشكالها وأكثرها قرباً الى النفس ، إذ هي انطلقت بكامل عفويتها ، خالية من تعقيدات الصيغ الحقوقية والمعميات الدستورية . ان هذا التماسك القومي هو سر قوتنا نحن العرب ، ولا يخشين أحد عليه من الزوال ، بل الخشية كل الخشية هي أن نسلك سلوكاً في الحكم يؤدي بالتالي إلى عودة هذا التماسك لحال الكون والكبت ، بدلاً من أن يزداد تفجراً ورسوخاً ونماء في كلا المستويين المحلي والقومي . ثم ان هذا التماسك كان دعماً في الوقت ذاته لحقوقنا القومية المشروعة ، لأن التماسك حول قيم باطلة أو ظالمة هو تماسك كاذب ، مؤقت ، مهدد بالانفراط في أية مناسبة . ذلك ما حدث بالضبط في اسرائيل ذاتها ، إثر دخول القوات السورية الى أرض الجولان العربية ، وإثر عبور القوات المصرية الى سيناء . في تلك الفترة ، وحتى الآن ، ظهر التفكك داخل المجتمع الاسرائيلي ، وفي أوساط الطغمة العسكرية الممسكة بزمام السلطة . وشهد العالم منذ ذاك التاريخ وحتى اليوم سلسلة متلاحقة من تبادل الاتهامات بين الأوساط الحاكمة الاسرائيلية ، كل مسؤول ، يحاول أن يتملص من مسؤولياته عن الخسائر الكبيرة التي لحقت باسرائيل من حرب التحرير العربية ، وكل فئة تحاول أن تبحث عن كبش فداء لتبرىء نفسها من النتائج المظلمة التي وصلت اليها اسرائيل. وهكذا انفرط عقد المنظمة العسكرية الاسرائيلية التي طالما موهت على العالم كله أنها متماسكة وأن المجتمع الاسرائيلي المؤلف من قوميات متنوعة متعددة هو مجتمع واحد متضامن . انفرط عقد المنظمة الحاكمة والمجتمع المحكوم بآن واحد ؛ وما على من يريد مزيداً من المعلومات عن ذلك إلا أن يعود الى النشرة التي تصدرها مؤسسة الدراسات الفلسطينية والتي تتضمن مقالات وتعليقات مترجمة مباشرة عن صحف اسرائيل ومجلاتها .

هذا يعني أن التماسك على قيم خاطئة لا يمكن أن يعيش طويلاً ، ولا يمكن أن يستمر . والشيء ذاته حدث بالنسبة لأوربا الغربية . كانت دول أوروبا الغربية ، ومعها الولايات المتحدة ، متضامنة فيما بينها حين كان الأمر متعلقاً باقتسام مكاسب

وثروات البترول العربي ، فلما أصبح النفط سلاحاً من جملة الأسلحة التي وضعها الشعب العربي في خدمة قضيته التحررية العادلة ، ذاب التضامن العربي ، وحل محله انكفاء إقليمي يستهدف محاولة كل بلد على حدة الحفاظ على مصلحة شعبه المباشرة . ان التضامن بين اللصوص هو تضامن مرحلي ، يزول بانتهاء اقتسام ما سلبوه فيما بينهم .

استناداً الى وقائع الحاضر ، ما ترى نستطيع أن نتوقع في المستقبل القريب ..؟ ان الهدف الذي ننشده هو السلام القائم على العدل والحق . كان هذا الهدف مطلبنا في السابق ، وهو اليوم مطلبنا أيضاً ، وسيظل كذلك حتى يصبح واقعاً . ولكن تحقيق السلام لايتم من طرف واحد ، بل لا بد لجميع الأطراف المعنية من أن تكون متساوية في الحرص عليه وعلى تحقيقه واحترامه في الوقت ذاته . فعلى الصعيد المحلي ما زال حلم « اسرائيل الكبرى » يدغدغ رؤوس الطبقة الحاكمة في اسرائيل ، وما زال تشدقها بكلمة « السلام » مجرد مراوغة وكذباً فاضحاً . في ١٧ تشرين الاول ١٩٦٨ قال دايان : « يجب علينا أن نثبت الأمر الواقع بالنسبة للاراضي التي احتللناها ، دون أن نجهر علانية بضمها الينا ... ان أحسن وسيلة لبلوغ ذلك هو أن نوطن اليهود بالسرعة القصوى في المناطق المحاذية لنهر الاردن وفي مرتفعات الجولان ، وأن نقيم مراكز زراعية في سيناء » .

وفي ٢١ آب ١٩٧٣ أعلن دايان أمام مؤتمر المحامين اليهود في القدس : « في جميع الحالات التي نقرر فيها انشاء قرى اسرائيلية ، فان علينا أن نأخذ بالاعتبار واقع أن هذه المناطق ستظل تحت اشرافنا ، كما ينبغي أن تنضم الى الحدود الجديدة للبلاد بعد ابرام معاهدة الصلح » .

أمثال هذه التصريحات كثيرة جداً ، لم ينفك يكررها قادة اسرائيل منذ عدوانهم على العرب في سنة ١٩٦٧ ، بل ومنذ قيام الكيان الاسرائيلي في فلسطين . ان حرصهم على التوسع هو تطبيق لسياسة صهيونية رسمها هرتزل منذ أواخر القرن الماضي ، وهو نتيجة مباشرة لمشاعر الامتلاء والاستعلاء التي ملأت رؤوس هؤلاء القادة ، وهو ايضاً حصيلة استنتاج من قبلهم خلاصته أن العرب عاجزون عن الدفاع عن أراضيهم وبالتالي عاجزون عن الوقوف في وجه اسرائيل لانهم مازالوا عاجزين ان يتماسكوا فيما بينهم وان يوقفوا التمزق الذي ينخر في الكيان العربي . جملة هذه التقديرات هي التي كانت وما تزال تدفع بالحاكمين الاسرائيليين الى التمسك بالعقلية الامبريالية التوسعية التي نشأوا عليها منذ عشرات السنين ولكن المعضلة تزداد اشكالاً وصعوبة حين تمتد الى فعل هذا المنطق التوسعي الاستيطاني في عقول الجماهير الاسرائيلية . فلئن كان صحيحاً أن القادة الاسرائيليين يستعملون كذباً

ونفاقاً كلمة « السلام » وهم مصرون على نزعاتهم العدوانية فان اكثرية الشعب الاسرائيلي قد تأثرت بهذا المنطق واصابها المرض ذاته . ففي الاستقصاء الذي اجراه مؤخراً المعهد الاسرائيلي للعلوم التطبيقية (نشرته جريدة لوموند الفرنسية في أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٧٣) تبين ان ٧١ ٪ من الاسرائيليين يعتقدون أن مؤتمر السلام الذي اقترحه السيد كيسنجر لن يؤدي الى « سلام حقيقي » ، كما أن ٥٢ ٪ يتوقعون استئناف القتال مع العرب . وهناك فقط ١٦ ٪ يرون ان اسرائيل بقدر ماتعيد من الاراضي المحتلة الى العرب ، فان العرب يصبحون أكثر استعداداً لقبول الحل السلمي . واخيراً أشار الاستقصاء الى أن ٩٠ ٪ من الاسرائيليين يرفضون تخلي اسرائيل عن كافة الاراضي التي احتلتها سنة ١٩٦٧ حسب مشروع روجرز الذي تقدم به سنة ١٩٧٠ .

ان هذا يبين مدى عمق التشوه الذي أصاب عقلية الاسرائيليين بفعل الدعاية الزائفة المستمرة التي يمارسها حكامهم عليهم ، ومثل هذا التشوه يذكرنا بما كانت تحدثه دعاية غوبلز لدى الشبيبة في ألمانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية ، وهو يدعونا نحن العرب الى المزيد من الحذر من خداع الحكام الاسرائيليين الذين يتظاهرون بنشدان السلام وهم في أعماقهم مازالوا بعيدين جداً عن الحرص عليه . فهم اليوم مثلاً يعودون الى فكرة « الحدود الآمنة » كشرط لموافقتهم على السلام . ولكن ماهي الحدود الآمنة التي يتصورونها ؟ ان اكثر المعلقين العالميين الذين اتصلوا بحكام اسرائيل قالوا ان الحكم الاسرائيلي يفهم من الحدود الآمنة جميع الاراضي التي احتلتها اسرائيل في عدوانها سنة ١٩٦٧ لأن هذه الأراضي العربية هي التي يمكن أن تكون حزاماً واقياً مجرداً من السلاح يحمي اسرائيل من احتمال هجوم عربي عليها . معنى ذلك أن السلام في المفهوم الاسرائيلي هو تكريس ابتلاع الأراضي المغتصبة من حرب ١٩٦٧ ، وبما أنه يستحيل على العرب أن يقبلوا بذلك فاسرائيل إذن ليست حريصة على السلام ، بل على استمرار حالة التأهب لحرب جديدة . وقد ناقش الكاتب السياسي الفرنسي الاستاذ موريس دوفيرجه مفهوم « الحدود الآمنة » في مقال بليغ نشره في صحيفة لوموند (العدد ٨٩٠١ تاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٣) فقال فيه : « ولكن ماهي الحدود الآمنة ؟ يقول المتعنتون الاسرائيليون ان الهجوم المفاجىء الذي قام به المصريون والسوريون يوم ٦ تشرين الأول ، يبرر رفضهم الانسحاب من الاراضي التي يحتلونها لان هذا الهجوم كان باستطاعته أن يمزق أو يبيد الدولة اليهودية بأسرها لولا أنها كانت محاطة بهذا النطاق الواقي ، ان مفهوم الحدود الآمنة لدى هؤلاء الاسرائيليين يرتبط بمفهوم « المجال الحيوي » ، ومعناه المجال اللازم لاسرائيل لكي تتمكن من تعبئة

جنودها المواطنين لمواجهة هجوم ما ... بهذا المعنى فان الحدود الآمنة لن تكون آمنة الا لفترة وجيزة محدودة بتقدم الوسائل الحربية التي يتبناها الخصم ».

ويكمل الاستاذ دوفيرجه مناقشته في المقال ذاته فيقول : « ان الحدود الآمنة هي أولاً وبصورة خاصة حدود تقبل بها الشعوب التي تفصل بينها هذه الحدود . ان سيناء تحمي اسرائيل من هجوم عربي إذ تتيح لها مجالاً كافياً للمناورة . بيد أن هذا التفكير يتناسى أن مثل هذا الهجوم ما كان له أن يحدث على الارجح لو أن الدولة اليهودية لم تحتل أرضاً تابعة لمصر ».

«ان الحدود الألمانية سنة ١٨٧١ كانت أقل أمناً من حدودها الحالية لأن الفرنسيين لم يقبلوا أن يكونوا محرومين من الالزاس واللورين ، فكان عليهم أن يخوضوا الحرب ليستعيدوهما ... »

« ان التقدم العسكري الذي حققته مصر وسورية منذ ١٩٦٧ يوضح أن قدرتها على محو الهزيمة هي أسرع مما كان يتصور الناس . لذا فان بقاء اسرائيل يرتكز قبل كل شيء على قدرتها في أن تكون مقبولة من جيرانها ، لا على قدرتها في أن تهزمهم عسكرياً . فاذا استمرت في الاعتماد كلياً على هذه القدرة الثانية ، فهي لن تتمكن من تقوية الاولى التي ينبغي أن تحل محل الثانية ان عاجلاً أو آجلاً » .

ان تحليل الاستاذ دوفيرجه لواقع نوايا اسرائيل صحيح كلياً. فحتى الآن لم تستطع الطبقة الحاكمة الاسرائيليــة من أن تقنع أحداً ، حتى شعبها ، بنوايا سلميــة صادقة . من هنا فان مستقبل السلام لاسرائيل مرهون أولاً بزوال الطغمة الاسرائيلية المتربعة في الحكم منذ ١٩٤٨ وحتى اليوم . ان مدرسة بن غوريون ومئير ودايان ليست مؤهلة أبداً للتحدث بالسلام ولا للعمل من أجل السلام . وإذا كان لدى شعب اسرائيل بقية من حس سليم فــان عليه ، إذا أراد فعلاً أن يسير في طريق السلام ، أن يسرع بالتخلص كلياً من هذه الطبقة التي تحكمه بأسوأ أشكال الحكم الفاشي .

بيد أن للسلام شرطاً دولياً ، إضافة الى الشرط المحلي الذي بيناه . هذا الشرط الدولي موجود اليوم بين يدي الولايات المتحدة ، وبين يدي الغرب عــامة . فاذا كانت الولايات المتحدة صادقة فعــلاً في احترام الحق العربي فعليها أولاً أن توقف ارســال الأسلحة الى اسرائيل ، وعليهــا ثانياً أن تمارس ضغطاً جدياً على اسرائيل لكي تحملها

على احترام مقررات الأمم المتحدة وعددها أكثر من سبعين قراراً بين ١٩٦٧ - ١٩٧٣ وكلها تطالب اسرائيل بالانسحاب من الاراضي العربية واحترام حقوق ابناء فلسطين، بل ان بعض هذه القرارات اتخذ طابع الادانة لاسرائيل . وإذا كان لدى الغرب فعلاً شيء من الاحترام للحق والانسانية ، لا للبترول ومشتقاته وصناعاته ، فعليه أن يفعل الشيء ذاته المطلوب فعله من الولايات المتحدة . من المحزن القول ان يقظة الغرب على دعم الحق العربي أملتها سياسة العرب البترولية (وهي سياسة أكثر من صائبة وأكثر من صحيحة وحكيمة) التي تهدد مصالح الغرب وصناعاته ونمو معدلات النتاجه ، فكان أن أخذ ينتصر للحق العربي ، لا احتراماً لهذا الحق ، بل سعياً وراء حماية مصالحه الخاصة . ولولا استعمالنا نحن العرب لهذه الورقة العملاقة لظل الغرب مستمراً في تأييده الأعمى الطائش للعدوان الاسرائيلي وللغطرسة الاسرائيلية . مرة أخرى تثبت الوقائع مدى الهوة القائمة في صميم الحضارة الغربية بين نهضتها التقنية وبين ضميرها الاخلاقي والانساني . بيد أن الطريف في الأمر ، وهو ما يتكشف لأول مرة في تاريخ الانسانية، هو أن مجمل هذه الحضارة الغربية وجميع مشتقاتها انماهي قائمة على أساس هش مهزوز، يمكن أن يترنح بسهولة كبيرة ويجر معه هذه الحضارة الدعية المنفوخة «حضارة الاستهلاك والترف» الى الانهيار الكامل. ما ترى ستكون عليه هذه الحضارة اذا استمر العرب في حجب بترولهم عن الدول المتمسكة بدعم العدوان الاسرائيلي؟ بل ترى ماستؤول اليه حضارة الغرب بعد أن ينضب البترول من جوف الارض؟ هذه الاسئلة نثيرها هنا على هامش موضوعنا الرئيسي ، وهو أن مستقبل السلام مع اسرائيل مرهون بنسبة تطور موقف العالم الغربي من تأييد الحق العربي . واكثر الدلائل مافتئت تشير الى أن هذا الموقف مازال متسربلاً بالخفر ، وقلة الصراحة ، وأحياناً بشيء غير قليل من الرياء فمن الافراط في التفاؤل في تقديري ان نعتمد ، في موضوع السلام ، على الغرب ، اعتماداً كبيراً .

يبقى ان بلاد العالم الثالث برمتها تقريباً قد تحولت تحولاً هائلاً لنصرتنا وتأييدنا . ان القارتين الافريقية والآسيوية تقفان اليوم ، بصدق واخاء ومحبة ، جنباً الى جنب معنا. وقد فتحت أخيراً شعوب هاتين القارتين أعينها على حقيقة اسرائيل فرأت هذه العجائب من الشر والشراسة المتسترين وراء جلد الحمل .

أن توقعات المستقبل الرئيسية تنصب على موقفنا نحن العرب خلال الشهور المقبلة وخلال السنوات التي تلي ، بل وخلال الاحقاب الاتية . ما من شك أبداً في ان حقائق

السادس من تشرين الاول الماضي يمكن ان تظل حية الى أمد بعيد . اننا لن نتمكن أبداً من اقرار السلام في ربوعنا وفوق أرضنا الا بازدياد تماسكنا وتضامننا ، لان هذا التماسك ذاته هو قوتنا الكبرى ، قوتنا التي منها تتفرع سائر القوى الاخرى : العسكرية ، والاقتصادية ، والدبلوماسية وغيرها . سلاح البترول الذي نستعمله اليوم، هو وجه من وجوه هذا التضامن ؛ مشاركة القوات العراقية والمغربية والسعودية والكويتية والاردنية مع القوات السورية هي وجه آخر من وجوه التضامن العربي . مؤتمر القمة العربي في الجزائر هو بدوره صورة اخرى من صور التماسك العربي ، هذا التماسك الذي يحق أن نحميه بمقل أعيننا وان نصونه من أي أذى يمكن أن يلحق به فيضعف منه . لا يجوز لنا أن ندعي بأننا صنعنا هذا التضامن بقوانا ، ولا ان حرب التحرير في تشرين هي التي صنعته ، بل الاصح ، كما قلنا من قبل ، ان هذا التضامن هو ابن انتمائنا القومي ، انه موجود فينا كأمة عربية واحدة ، وقد أتيح له أن يظهر بعد طول كمون ، وان لنا أن نعمل كل ما ينبغي للابقاء عليه مشعاً متألقاً .هذا هو الشرط الاول في قناعتي للنصر العربي ، وهـذا هو المطلب الاول للمستقبل العربي ، إذا أردنا لهذا المستقبل أن يكون أفضل من الامس وافضل من اليوم . وسنعود للموضوع مرة ثانية لايضاح جوانب أخرى منه .

★ ★ ★

الدكتور:
شكري فيصل

الواقع والرؤية في الوجدان العربي

في خلال الأيام العشرين من أيام معركة رمضان في سيناء والجولان ، كان الانسان العربي تهب مشاعر كثيرة ،وكان الوجود العربي تهب وقائع مثيرة ، وكانت الحياة العربية تعاني مخاضاً قاسياً بعد حمل قاس .. كانت تعاني ولادة الانسان الجديد الذي يتجدد فيه لحمه وعظمه وجلده بقدر ما يتجدد فيه لبه وعقله وقلبه .. ويحس ، مع كل نبأ واثر كل معركة ، أنه يخلق خلقاً جديداً ، يعاود فيه سيرته الاولى ، سيرة أيام رسالاته ، متخطياً كل فترات الضعف والسقوط والحذر .

بين كل هذه الأحاسيس والمشاعر والآراء والمواقف ، كان يطفو شعور هو فوق كل شعور آخر ، وتتجلى فكرة تغطي كل فكرة سواها .. كانت مشاعر الوحدة وفكرة الوحدة هي التي تملأ العقل والقلب . وكانت هي السمع والبصر والفؤاد .

وحين كنا نتابع الأخبار خبراً بعد خبر ، لم يكن يرتسم امامنا جبهة هنا وجبهة هناك .. لم يكن يتراءى لنا جيش هنا وجيش هناك .. لم تكن هذه السلسلة من ارقام البلاغات في الشمال او في الجنوب تؤلف هاتين الحلقتين المنفصلتين .. وانما كان هنالك دائما هذه المعركة الواحدة وهذا الجيش الواحد .. أعناقنا الى الخريطة المنشورة على الحائط وأبصارنا معلقة بهذه الكتلة الكبرى كلها من الأرض ومن الجند ومن الاسلحة ، يتداخل بعضها في بعض ، وينطوي بعضها في بعض ، لتلتقي في احلامنا كلها على شواطىء حيفا ويافا وعسقلان،ورحاب الأقصى - بالشوق ـ وهضاب القدس .

في أية من اللحظات لم يكن الانسان العربي ـ حتى حين يحاول ان يكون عقلا محضاً ـ يستطيع أن يفرق بين بلاغ هذه القيادة أو تلك .. أية قيمة كانت تكون لجبهة الواحدة : تقدما أو تراجعا،هجوماً أو صداً ؟.. الجسر الذي كان ينصب على حافتي القناة ، أكان شيئاً آخر إلا هذه الحركة الصاعدة نحو قمة جبل الشيخ ! .. والجنود الذين مضوا يشقون الطريق في صخور الجولان هل كانوا إلا اولئك الذين كانوا يقطعون رمال سيناء .

في سمعنا وابصارنا وافئدتنا اختلط كل شيء .. دعني أقول لك ـ اذا شئت الدقة ـ التقى كل شيء . ولكنها « اللقاء » ليست هي الكلمة .. لقد اتحد كل شيء .. عاد كل شيء الى مثل سيرته الأولى منذ ألف سنة أو تزيد .

وما كنا وحدنا في رمضان .. كان هنالك هذه الخيوط المتداخلة من نسيج الزمان كله معنا .. كان هنالك هذا التيار المنساب من الماضي ، وكان هنالك هذا التيار المتدفق من الحاضر .. وكان ذلك من الماضي ومن الحاضر يحفر طريقه الى المستقبل يريد أن يصنع هذا المستقبل صناعه على صفاء ضميره الصافي وخلود رسالته الخالدة .

وما كنا وحدنا في رمضان ، من سيناء الى الجولان ومن دمشق الى القاهرة .. كنا كل هذه الملايين التي تتعاطف في حركة واحدة على طول هذا المحور من رباط الفتح على الأطلسي الى مشارف آسيا الوسطى ، ومن قلب رمال الصحراء الكبرى وما وراءها في افريقيا الى قلب المحيطات والخلجان والجزر في المحيط الهادي والهندي في آسيا .. كان هنالك هذا الكل المتسق ، أريد أن أقول هذا الكل الواحد . وكأنما جمعت قلوبه كلها في نبضة واحدة .. الذين هناك والذين هنالك كانوا شهود هذه الولادة .. ألم يكن ابناؤهم جزءاً من وقودها ؟..

ما أكثر ما كان في هذه الأيام من جزئيات وأحداث .. كان في كل لحظة حدث ، ومع كل موقف بطولة، كان عند كل كثيب رمل مشهد، وعند كل كتلة صخر انتصار . كل غيمة في السماء شهدت معركة وأظلت معركة . . وقد نتحدث عن ذلك طويلاً في أحاديثنا وسمرنا ، في شعرنا ونثرنا وقصصنا . . ولكن ذلك كله سينصهر في ملحمة واحدة، وسيتحدث عنها التاريخ في كلية كبرى .. وسيقول فيها انها كانت يوماً من أيام العرب .

ما كنا اذاً جماعات . . كنا وحدة . . وما كنا وحدة في الزمان وما كنا وحدة في المكان . . تلك هي أضخم المشاعر وأبرز التصورات . تلك كانت أكبر الحقائق وأصح الحقائق .

- ٢ -

هذه الوحدة تجاوزت في معركة رمضان ، أن تكون شعاراً أو دثاراً . . تجاوزت أن تكون الكلمة الى أن تكون العقل ، . خرجت عن ان تكون الكلمة التي نتدرى بها الى أن تكون العمل الذي نعانيه .

فما الذي بلغ أن يكون من أمر هذه الوحدة في هذه التجربة القصيرة ؟

ان الذي تحرقهم أشواق أمتهم ومطامحها ، والذين يلتهبون تطلعاً الى خلاصها من كل هذه التجزئة التي يعانونها يجدون في معارك رمضان ـ الى جانب كل معانيها الأخرى ـ أن معناها الأعمق هو هذا الاقتران الكامل بين وحدة الأمة العربية وبين وجودها . وحدتها هي التي تهب وجودها حقيقته ، ووجودها هو الذي يكتسب من وحدتها معناه .

ان هذا الاقتران اتضح ، هذه الايام ، على نحو لم يتضح مثله من قبل لهذا الجيل المعاصر . . لقد اسقط هذا الاقتران الواضح كل شبهة ، واكتسح كل ظل من ظلال التجزئة ، أياً كان اسمها وعنوانها ومكانها من المجتمع والدولة والفكر والحياة . .

ومعنى هذا أننا بعد تجربة رمضان يجب أن نستبعد ـ والى الابد ـ أية محاولة في الحديث عن الاقليم والوطن والبلد . . وفي التعلق بأذيال الفكر التجزيئي بحجة تقسيم الصعوبة للتغلب عليها .. ان كل هذه الأصوات الحلية افتضحت في نور التجربة وفي نارها . . نور التجربة كشف عناصرها المقنعة والمجتلبة . . ونار التجربة صهرتها وأبانت خبثها وزيفها .

ومع أننا في تجربة التاريخ الطويلة لم نكن في حاجة الى تجربة جديدة ، غير أن كثرة من الذين غفلوا عن حركة التاريخ وأخذوا ببعض مظاهر الواقع ، واخذتهم بعض الفلسفات والآراء من الذين أتيح لهم ان يكونوا في موقف المنظرين في الحياة العربية — ان كثيرين من هؤلاء حجبوا عن الانسان العربي حقيقته الكبرى هذه . وتركوه خلال نحو من نصف قرن نهبة الشكوك والاوهام والانظار التي لا يلتقي معها ، أو يلتقي مع طرف منها وينبو عن طرف .. وقدموا — من حيث أرادوا أو لم يريدوا — لحركات الغزو الفكري عوناً ما كانت تطمع ان تجده ، ويسروا الطريق لتوهين النفس العربية وإضعافها ، وتعليلها بالقريب التافه وتسليتها به عن البعيد الاصيل . . فكان من ذلك كله أن ظل الانسان العربي يسأل ما هو ؟ واين هو ؟ .. حتى وضعته التجربة الاخيرة ، مرة أخرى ، في موضعه الصحيح . كأنها تمتحن — ولعل ذلك للمرة الاخيرة — فرصته التي لا فرصة سواها .

— ٣ —

ومن أجل تقييم تجربة هذه الايام العشرين — من زاوية الفكرة الوحدوية — يحسن أن نلاحظ أن القدر الذي تحقق من هذه الوحدة في نطاق المعركة العسكرية كان دون الذي نتمنى ودون الذي نملك ونستطيع . . المعركة العسكرية ليست أبداً البداية ، وانما هي ذروة وتتويج لسلسلة طويلة من المقدمات .. ولقد توفر قدر كبير من هذه المقدمات وغاب قدر أو أقدار ..

ماغاب ، كنا نتمنى لو كان حاضراً ، شاهدا ، مشاركاً .

وما توفر كنا نتمنى لو كان أكثر تنسيقاً وأبعد غوراً . . أن لا يكون ابن اللحظات الأخيرة التي سبقت السادس من تشرين الأول .

ومع ذلك فان القدر الذي توفر كان جديراً أن يثير عندنا أعمق أحاسيسنا بالوجود القادر والوجود السليم .

ومع ذلك أيضاً فان القدر الذي غاب لم يكن غيابه أصيلا .. كان غيابه جزءاً من غياب الفكر المتوحد .. كان نتيجة لهذا الغياب ، وكان سبباً كذلك في غياب النتائج التي كنا نرقب ان تكون .

وقبل أن نتجاوز هذه الملاحظة - الشكاة ، نود أن نشير الى أن هذا التلازم بين

الوحدة والوجود اتخذ في تجربة هذه الأيام العشرين معادلته التفصيلية الجديدة ... فلم يعد مبدءاً مجرداً ، وانما استبان منه بوضوح هذا التلازم في الجانب الكمي وفي الجانب الكيفي ..

فعلى قدر مايكون من توحد يكون القدر من الوجود .

وعلى قدر مايكون من صحة هذا التوحد يكون القدر من الوجود الصحيح .

وحيث يتوفر القدر الاكبر من التوحد في جانب من جوانب الحياة العربية ، يتوفر القدر الأكبر من الوجود العربي في هذه الناحية .

ان تلازم ما بين التوحد والوجود تلازم مطلق ، في كميته وكيفيته ، وسلامته وخصوصه وعمومه،وجزئيته وكليته،وخلخلته وسلامته،وضعفه وقوته...تلازم مطلق لا يعرف اي شذوذ .

– ٤ –

ولكن التجربة الأخيرة ، في رأيي ، لم تقتصر ، في الوطن العربي ، على ذلك .. لم تقتصر على تثبيت وجوده الوحدوي ونفي وجوده التجزيئي . . ذلك أمر كانت شواهده التاريخية والنظرية على سمعنا ومرأى .. ولكنها ـ هذه التجربة ـ تجاوزت ، عندي ، ذلك الى أنها جلت للانسان العربي رسالته ، ودلته بوضوح على مكانته في حركة التاريخ ، وفي سير الانسانية بالناس ، وضربت له مثلاً أو أمثالاً للذي غاب عنه من أمر هذه الرسالة .

وستسألني كيف .. وستدع لي أن أجيبك .

حين كنا نقول دائماً ـ من خلال ايماننا بالوحدة ـ ان وحدتنا تتجاوز أن تكون تحريراً لوجودنا الى أن تكون تحريراً للناس من حولنا .. كنا نتهم بشيء من التجاوز والغرور .. كان ينظر الينا ، وكان قوم من قومنا ينظرون الينا ، على اننا في حالة من حالات التعويض النفسي .. واننا نجاوز الحياة ، ونسقط التطور ، ونحل القديم الذي مضى مكان الجديد الذي ينمو .

ولكنهم مادروا أن منطقنا كان هو منطق الحياة ومنطق التاريخ...وحين كنا ندعو الى الوحدة وحدها قبل كل مذهب،وفوق كل مذهب،وبداية كل عمل وغاية كل عمل لم نكن ندعو ذلك في نطاق تجاوز الواقع الضيق ولا في نطاق الغرور والتعويض ، ولا نحاول أن نقلد الحركات القومية في الأقطار الأخرى ولا أن نستمد منها ولا أن ننقل القرن التاسع

عشر في اوربا إلى القرن العشرين في الوطن العربي .. وانما كنا نريد أن نعاود سيرتنا الحضارية ، ونريد للحضارة الانسانية أن نغنى بها وأن تغنى بنا .

إن تجربتنا في المجال الحضاري كانت أصيلة - بقدر مايمكن أن توصف الحضارة ، وهي عملية بناء متتابع ، بأنها أصيلة - .. يلتقي على ذلك الخصوم والأعداء .. وقد كان لابدّ في حساب المنطق والانصاف أن يكون الحقل الحضاري ملكاً مشاعاً للقادرين عليه ، وأن لايبقى حكراً على المنتفعين به والمستثمرين له .. فاذا كنا نطلب وحدتنا فانما كنا نطلب وجودنا ، ووجودنا الحضاري بوجه خاص .

إن هذه الرسالة العربيـة الأصيلة هي التي جاءت تجربة رمضان تدلّ عليها من جديد . إن موقعنا من الأرض، ومكاننا من التاريخ ، وثروتنا من الذكاء والمعرفة ، وأصالتنا في تراث الانسانية - كلها هذه قوى لابدّ لها ،إن هي أتيحت لها فرصة الوجود المتوحد ، من أن تعطي ثمرتها ، وأن تكون الثمرة سداً لحاجة من حاجات الانسانيـة وتطلعاً من تطلعات الناس .

أليست تجربة رمضان دليلاً الى هذه الرسالة من جديد ؟..

- تعالوا ننظر كيف استطاعت وحدة العرب ، بهذا القدر الضئيل - وأوشك أن أكون مصرّاً على استعمال الكلمة - الذي توفر منها في هذه الأيام العشرين القصيرة ، أن تؤدي هذه الرسالة وأن نفتح آفاقاً واسعة عليها .

أ - في افريقيا مثلاً استطاعت وحدة الحركة العربية أن تضيء وجهاً من وجوه الرسالة العربية : كشف الزيف، ومحاربة التسلط، ودلالة الشعوب على الطريق، والابتعاد بها عن مزالق الاستغلال التي كانت تقودها إليه القوى الغاشمة ، والاشتراك معها في حركة تحرير الانسان .

ان الدول الافريقية والحركات الافريقية الاستقلالية التي وجدت ، في البداية ، في ثورة الجزائر شعلة مضيئة لها ،ومثلاً من الأمثلة الحية على قدراتها الكامنة - وجدت بعد ذلك في وحدة الحركة العربية وفي مواجهتها للطغيان- وجدت في ذلك ركن الأمان الذي تلوذ به ، ووجدت في الحركة العربية شريكها وصديقها الذي تستطيع أن تطمئن اليه اطمئناناً بريئاً من كل سيطرة أو استغلال .

بل ان القارة الافريقية كلها - وفي القارة الافريقية مستقبل العالم - لم تستطع أن تقف موقفاً موحداً - لعمق الذي بينها من رواسب الاستعمار - الا بعد أن تمكن

العرب من أن يقفوا موقفاً واحداً .. ان وحدة الحركة العربية اذن هي بداية وحدات أخرى لابدّ للبشرية ـ وهي تقارع الاستعمار من أجل مجتمع انساني موحد ـ من أن تمرّ بها .

وان في شذوذ النظامين العنصريين في جنوب روديسيا واتحاد جنوب افريقيا عن هذا الموقف الافريقي الموحد ـ لتجسيداً اخر حياً لطبيعة الفكر العربي الذي جاءت الوحدة العربية تتجاوب معه .. ان الذين وقفوا معنا هم الذين يحاربون العنصرية ويقاومون استعلاء الشعوب بعضها على بعض . ان قيمة كبرى من قيم الرسالة العربية الانسانية انما جَلَتها هذه التجربة الأخيرة ودلت على أبعاد من أبعادها .

ب ـ ولعل الموقف في اوربا أن يكون أبلغ منه في اوربا، على ضخامة الموقفين معاً .. وحدتنا كذلك هنا جَلَتْ صوراً اخرى من صور الانسانية المشرقة التي يمكن ان تتحقق حين تتحقق هذه الوحدة على أكمل صورها .

لقد فجرت حركتنا المشتركة خلال عشرين يوماً ـ ما أقصرها في حساب التاريخ ـ قوى في اوربا كانت تتمثل .. فالنظام الاوربي كله ـ على غناه وتقدمه ودوره الحضاري وثقافته وفكره ـ كان مشدوداً بخيوط من المال والاستغلال للشاطىء الأخر من المحيط الأطلسي .. وكثيرون في اوربا استخذوا لهذا الواقع .. أخذوا بنعيمه، أو ببعض الجوانب التي أشرقت عليهم فيه .. ولكنهم لم ينظروا الى الجانب الآخر منه او لعلهم أغضوا عنه .. .

لقد داخل اوربا شيء من القناعة بالدور الثانوي .. والحركة الانسانية لا تقوم على القناعة والتسليم ، وانما تقوم على الطموح والتسابق ، وعقليات قلية نادرة في اوربا حاولت أن تنجو من ذلك ، وان تجعل ما بين طرفي الأطلسي تعاوناً لا غلبة .. بعض ذلك كان من صدق الرؤية التاريخية أومن نمو الشعور القومي ، او منها معاً .. ولكن هذه الأصوات القليلة لم تستطع أن تفعل شيئاً كبيراً .. وبقيت اوربا على يمين الاطلسي القمر التابع لامريكا على يسار الاطلسي .. ولم يكن في ذلك لا خير الانسانية ولا خير الناس .. لاخير الحضارة ولا خير التاريخ ..

فلما جاء العرب ـ بعدحلم طويل أقرب الى الذل وصبر قاس أقرب الى المرارة ـ يتوحدون في موقف واحد ، ويتحركون في حركة واحدة ، ويقولون هم ، هذه المرة ، للقوة المتغطرسة الظالمة : لا .. ويقولون ان البترول العربي يجب ان يكون للتقريب

الحضاري لا للاستئثار الحضاري ، وللبناء لا للتخريب ، وللعدل لا للظلم . عند ذاك تململت اوربا وتحركت ، واستطاعت مفاهيم العدل والحق — لاول مرة بعد ستة قرون — ان تتجاوب ما بين البلاد العربية وبين اوربا ، واجتمع الذين لم يستطيعوا ان يجتمعوا من قبل ليقولوا للسيطرة الامريكية : ليس هذا هو الطريق .

— ٥ —

ما أبعد ما فعلت وحدة الحركة العربية ، في أيام قلائل .. لقد تقدمت بالوحدة الافريقية — هذا الحلم الانساني العذب — نحو اول حركة سياسية جريئة ، وربطت ملايين الافريقيين عملياً بالمثل العليا التي كانوا يصرخون بها . وجددت تطلعاتهم ، وتوجهت بهذه التطلعات نحو أصعب الاهداف .. نحو مهاجمة الاستغلال الانساني البشع . وما أقوى ما سيكون من أثر ذلك في مستقبل هذه القارة .

وما أبعد ما فعلت وحدة الحركة الاوربية في اوربا .. انها استطاعت ان تدفع بالاوربيين كي يلتقوا ، للمرة الاولى، على الكلمة الواحدة في السياسة الاوربية الواحدة.. لطالما حاولوا ذلك ، ولطالما أخفقوا فيه .، ولكن اوربا، الآن ، استطاعت ان تعترف — على نحو غير مباشر — انها كانت القرية الظالمة ،، وتناست خلال عشرين يوماعداوات فرضتها خلال هذه القرون القديمة منذ أرادت استنقاذ قبر المسيح عليه السلام الى ان كانت بدعة التاريخ التي لابدعة مثلها : تبرئة اليهود من دم المسيح ... وما أقوى ما سيكون من أثر ذلك في مستقبل العلاقات بين اوربا والشرق اذا استطاعت أوربا ان تتابع فكرها الحر الجديد .

— ٦ —

ولكن أ كان ذلك كل شيء من آثار التجربة العربية في الكشف عن وجوه من وجوه الرسالة العربية ؟!

لستُ أملك نبوءة نبي .. ولكن أؤمن أن تجربة التوحد العربي في هذه الايام ، تلك — اذا استطاعت أن تتقدم الى تجربة الوحدة العربية الكاملة — أن تجترح أكبر المعجزات في تاريخ البشرية . ان تجدد تاريخها المعجزة ، وان تغير تاريخ العالم مرة

اخرى من جديد (١) .

ان ذلك يقتضي أن يبدأ العرب حركتهم - متسارعة - على خطين متكاملين .

آ - تجربتهم على الصعيد الداخلي :

وهدفها الاول أن توضح طاقاتهم كلها في سبيل حياتهم الجديدة كلها .. فقد آن أن نتيح لكل انسان عربي النمو الكامل في جوانبه كلها .

ان تجربة الصعيد الداخلي تقتضي فيضاً من حديث منظم حولها ، ولكنها يمكن أن تلخص في ثلاثة أشياء ،

في الرسالة نؤمن بها .

وفي العلم نأخذ به ونقبل عليه .

وفي تكافؤ الفرص أمام كل عربي حتى ننسخ كل ما في الطبقيات القديمة والطبقيات الجديدة من تفاوت .. لانه لا يقتل العربي ولا يثيره إلا أن يظلمه أخوه ، ولا يبدد طاقاته مثل أن يثأر لهذا الظلم (والثأر يتخذ في مجموعاتنا المثقفة ألواناً اخرى جديدة .. والسلبية من المجتمع بعض هذه الالوان) .. ولا يحييه ويكشف جوهره ويصقله مثل أن يحمل مسؤوليته وأن ينهض بها .

والمسؤولية هي التي تمتص الفراغ الذي نعيش فيه أجيال من اجيالنا .

والعلم هو الذي يمتص كثيراً مما علق بتاريخنا وتراثنا ، ووزع افئدتنا .

والايمان هو الذي يعطي الحركة كلها مذاقها الروحي المستطاب .

إن الايمان والمسؤولية والعلم ، بكل نقائها وصفائها ، هي التي تستطيع أن تتجاوز نظام السلطات الموزعة الى نظام الدولة الواحدة ، وطريقة العمل الجزئي المتنافر أو المتباعد الى طريقة العمل الموحد أو المتكامل ، واسلوب الاحزاب المتواحدة على غير توحد أو المتنافرة على غير ما يستحق التنافر الى نظام الحزبين المتسابقين المتعارضين المتلاقيين على صعيد الوطن العربي كله .

---

(١) وددت لو تلبث على مجلة المعرفة أن تفرد عدداً خاصاً - أقرب أعدادها - لحركة الوحدة في ضوء تجربة رمضان .. تتجاوز فيه الحديث عن ضرورة الوحدة، فقد انتهى هذا الضرب من النقاش ويجب أن يتوقف - الى الحديث عن - رؤية شاملة لما وتخطيط كامل خلال عشرين سنة حيث نستشرف القرن الحادي والعشرين .

ب ـ تجربة الصعيد الخارجي :

وهدفها أن تظل الكلمة العربية هي الكلمة الواحدة ، خيّرة ، بناءة ، مفتوحة على التعاون الانساني الصادق حيث كان .

أن تستحيل كل هذه الرؤى الى رؤية ... ذلك في ايدينا . ذلك في ان نعش بكل قوانا على أن تأخذ تجربة رمضان أبعادها ، أقصى أبعادها . ان تكون العلقة فالمضغة فالعظم فاللحم .. أي ان تكون الرسالة العربية من جديد .

ان تجربة رمضان مدت آفاق الانسان العربي والوجود العربي .. ووهبت له جناحين يستطيع اذا شاء ان يحلق بها ..

اني لا أريد أن أصلي في تجربة رمضان لتجربة رمضان في بدر الكبرى ، أول عهد العرب برسالتهم ، فحسب .. لأني لا اقصد الآن الى ان أوغل في التاريخ .. ولكني أريد أن احيي ، في تقدير واكبار ، أيام شباط « فبراير » ، حين قامت الوحدة الاولى النواة بين مصر وسورية ، النواة التي علمتنا الوحدة بعد أن أوشك منطق التجزئة أن يغطيها فسجلت في التاريخ المعاصر الحدث الانفجاري الكبير .

اني أصلي الساعة للذين سقطوا شهداء ، وانحني للذين غابوا وللذين تغيبوا ـ أياً كان الرأي في تفاصيل تجربتهم .. فتجربة رمضان تعمق فهمنا لتلك الأيام ، وادراكنا لآثرها .

في مرات كثيرة ، خلال خمس عشرة سنة (١٩٥٨ - ١٩٧٣) كنت اذكر كيف هجرت في مرحلة الوحدة كل ابحاثي ودراساتي وبداياتي العلمية الاولى .. لقد ودعت دراستي وطلابي ومكتبي وانا ابكي بكاء هو مزيج من الفرحة الفكرية والأسى الشخصي .. لأني كنت أفارق غالياً الى اغلى ، وواجباً الى فريضة . وقضية تحتمل التأجيل الى قضية لا تحتمل التأجيل .. ذلك حين غادرت العمل الجامعي الى العمل السياسي .. كنت أعرف ان الوطن العربي بدأ منعطفاً جديداً في تاريخه ، وان هذا التاريخ أوشك أن يأخذ طريقه الى تحقيق رسالته ، وان وحدة ما بين مصر وسورية ليست إلا الشرارة الاولى ، وان على أبناء الجيل أن يتابعوا هذه الشرارة حتى تكون جذوة ونارا ، وحتى يجدوا على النار هدى .

كنت اعرف طرفاً من هذا ، وأقدر طرفاً آخر بالحدس ، وكنت أؤمن بأبعاد الحركة العربية اذا قدر لها ان تتوحد..أفلا تكون وحدة مابين شطر منها في افريقية، وشطر آخر في سورية هي النواة الصحيحة . . ولكن تجربة رمضان زادت ايماني ، ان كان الايمان مما ينقص ويزيد .

من أجل ذلك لم آس على أني آثرت عملاً على عمل . . واذا كانت بعض السنوات التي فصلت بين ذلك التاريخ وهذا التاريخ بدت ظالمة او مظلمة ، فان ذلك طبيعة الحركة التي تشق طريقها في أرض ملؤها الالغام والصخور . . ولكنها لن تلبث بعد أن تنتزع الالغام وان تشقق الصخر .

أتراها بدأت مع تجربة رمضان تجربة الفجر الصادق .

وهل يراود المؤمنين برسالتهم ، أي شك في ذلك ؟

* * *

لم يعد هنالك أمام العرب طرق كثيرة . . انما هي طريق واحدة: طريق الوحدة . . لم يبق أمام العرب الا سلوكها . . ذلك هو طريق المفاوضات السليمة ، ذلك هو الذي يجعل المفاوضات ملك أيدينا

رسالة
إلى الكتّاب الإسرائيليين

محيي الدين صبحي

اذا لم يكن جان بول سارتر نفسه عميلاً للمخابرات الامريكية ، فلا بد أن واحداً ممن حوله من ذوي التأثير النافذ عليه هو كذلك. ذلك أن العدد الخاص من مجلة « الازمنة الحديثة » (العدد ٢٥٣ السنة ٢٢) والصادر في مايس ١٩٦٧ ليس إلا تهيئة الرأي العام الاوربي كي يقتنع بالنوايا « السلمية » للطغمة العسكرية الحاكمة

في اسرائيل ـ وكي يحتشد وراءها : فاذا انتصرت في حرب حزيران ١٩٦٧ فقد انتصر « السلام الاسرائيلي » واذا انهزمت فيجب أن تهب أوربا للدفاع عن « اسرائيل المسالمة » .

وقد نجحت اللعبة . وتوجب على العرب - كالعادة ـ أن يدفعوا ثمن النجاح ذاك : دفعوه من دمائهم واقتصادهم ، وأهم من ذلك ـ دفعوه من أراضيهم التي سرعان ما اعلنت حدوداً « آمنة » لاسرائيل « المسالمة » . واعقب ذلك ، وسبقه أيضاً نشاط اعلامي عن العبقرية اليهودية : منح جائزة نوبل كاتب من الدرجة العاشرة بالمقاييس العالمية للكتاب ، غير أن مزيته هي أنه يكتب « بلغة عبرانية صافية » . كما ورد في حيثيات الجائزة . واصدرت مجلة « Encounter » عددين في مطلع ١٩٦٨ للاشادة بعبقرية الفكر اليهودي الذي ابتكر « يوم السبت » ووضع اساطير الطوفان والبعث ـ وهذه الاغارة على تراث الشعوب السامية المشترك جانب من جوانب الفكر الصهيوني القائم على السلب : فهو ينفي ميزات الشعوب وينتحلها لنفسه ، متجاهلاً باسم التاريخ ابسط الحقائق التاريخية وأكثرها شيوعاً . وتوالت المجلات الانكليزية والامريكية كلها وبدون استثناء تشدد الحملة ضد العرب ، ضد المميزات التاريخية والعرقية التي تشكل صميم وجودهم ، لتعلي من شأن الجانب الصهيوني وتبرر حروبه « العادلة » والعوامل « الأخلاقية » التي أدت الى النصر ـ فضلاً عن « التخلف » الفكري والحضاري عند العرب الذين لا يستطيعون أن « يستوعبوا » التكنولوجيا المعاصرة والآلات المعقدة ، في حين أن القدرة على الاستيعاب تجري في دم الاسرائيلي ابن المجتمع « المتحرك » والتربية « الديمقراطية » !!

حدث هذا في السنوات الأولى الثلاث ثم بدأت حملتكم ترتد عليكم دون أن يحرك العرب ساكناً في المجال الاعلامي على الأخص . كل تأثيركم على الاقلام

والفنون لم يتح لكذبتكم حياة تدوم أكثر من سنتين وفي الثالثة بدأتم تظهرون للملأ على حقيقتكم : كذابين ومخـــادعين . ولن يسير معكم الى آخر الشوط الا منافق أو عميل . إن كل الكتاب الذين يحترمون الحقيقة ويبحثون عنها ويضحون بحياتهم في سبيلها نبذوكم أو وجدوا أنفسهم في موقف اعادة النظر في كل المفهومات التي لفقتموها لهم وجعلتموهم يبتلعونها كما تبتلع كل المخدرات والمهيجات . فكيف حدث هذا ؟ كيف حدث أن أخفق كل هذا الحشد من الممثلات الجميلات والصبايا الغاويات والصحف الأنيقة والمجلات « الرصينة » والأفلام المأجورة والتعليقات الموجهة ؛ كيف أخفقت كلها في سوق القارىء العادي – الأوربي بخاصة – الى حظيرة القناعة التي ترغبون في ربطه اليها أمام شعيركم المخلوط بالزؤان ؟ كيف حدث أن تلفتم فجأة فوجدتم أنفسكم في واد والانسانية والعصر بأكملهما في واد آخر ؟ كيف بتم وحيدين بـــلا أصدقاء ، ماخلا صداقتكم البغيضة لأبشع قوى الاستعمار والامبريالية والعنصرية واستغلال الشعوب في القرن العشرين ؟ هل تعرفون من هم أصدقاؤكم؟ من بقي لكم من الأصدقاء ؟ سأعددهم لتعرفوا – أنتم الكتاب الذين تبلورون ضمائر شعبكم وتصدرون عنها ، كما هو مفترض – أنتم حلفاء مقاتلون مع جنوبي أفريقيا وروديسيا البيضاء ، وهما أعداء أفريقيا ومضطهدا العرق الأسود . وأنتم حلفاء مقاتلون مع جنوبي فيتنام وجنوبي كوريا ، وهما أكثر النظم رجعية في آسيا ، وليس لكم في أوربا من حليف سوى البرتغال : وأنتم تعرفون أنها أكثر دول أوربا تخلفاً ونزعة استعمارية ، بل إنها الدولة الاوربية الوحيدة التي مازال تخوض حروباً استعمارية في القارة الافريقية – اذا استثنينا بريطانيا التي ترســـل « متطوعين» أو « خبراء » بريطانيين الى مسقط وعمان ضد حركة التحرر العربي والاشتراكية في جنوبي الجزيرة العربية .

... وأخيراً وفي أرجاء العالم الواسع الفسيح تحالفتم مع الولايات المتحدة

الأمريكية ـ ليس كلها، بل مع دوائر قهر الشعوب واستعبادها واستغلال خيراتها وتعويق مسيرتها نحو غد أفضل . تحالفتم مع المخابرات الامريكية والبنتاغون والدوائر العنصرية والاستغلالية في الرساميل الأمريكية . لذلك نجد أن قوى التقدم والتسامح والمساواة في المجتمع الأمريكي ذاته تقف ضدكم ، وليس من المغالاة أن نقول إن قسماً من اليهود يقفون ضدكم لأسباب متعددة أنتم أكثر اطلاعاً عليها . . .

على الصعيد الايديولوجي : أنتم لم تخسروا فقط صداقة الأنظمة الشيوعية على اختلاف أنماطها: الصين والاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ويوغوسلافيا . بل خسرتم أيضاً الحركات الاشتراكية الأخرى بما فيها اليسار الطلابي ، ولم يبق إلى جانبكم سوى زعماء الأممية الثانية التقليدية : هارولد ويلسون وغي موليه ، ولكن بدون حزبين قويين .

أما في الدول الأسيوية المتحررة التي تبني نهجها الاشتراكي الخاص بها ، كالهند والدول الافريقية ، فلا مكان لدبلوماسيتكم أو أفكاركم . وحتى في أمريكا اللاتينية ، أنتم ترون أن كل دولة تتحرر من النفوذ الأمريكي تبدأ أول ما تبدأ باعادة النظر في علاقاتها معكم ، وتتحول شيئاً فشيئاً إلى الحياد منكم ثم إلى الانحياز إلى الجانب العربي . أما أفريقيا السوداء فهي مثال يستحق وقفة متأنية : ذلك أن الصورة التي بعثموها للأفارقة هي صورة الدولة الصغيرة المتحررة من الاستعمار الانكليزي (كذا !) التي تقدم المساعدات بلا حساب لجيرانها من « السود المتخلفين » . . . وأنفقتم الأموال وأرسلتم الخبراء . . . فاذا بكل هذا يعاد إليكم مردوداً بدون شكر ، بل بشيء من الأسف : لقد اكتشف الافارقة أن اسرائيل هي حصان طروادة للرساميل الأمريكية التي تحاربهم حرب افناء وتؤيد أعداءهم في روديسيا وجنوبي أفريقيا والبرتغال وتبين للأفارقة أن « خبراءكم » مخابرات

و « شركاتكم » مقدمة لقواعد عسكرية وأن مساعداتكم سوف تقتضيهم انحرافاً قوياً عن مبادىء شعوبهم وآمالها ـ فأنتم في النهـــاية أعداء لافريقيا أو حلفاء مع أعدائها .

لماذا ؟

لماذا يا كتاب « اسرائيل » ، يا من تخاطبون الأوربين بثقافة أوربية وتخاطبون الشرقين بروح شرقية ، لماذا ؟

النسخة الرسمية التي تروجونها . كما وردت في مجلة جان بول سارتر الذي بات أبكم أصم تجاه الحقيقة العربية والذي انتهت « تقدميته » منذ ان استقلت الجزائر . النسخة الرسمية للأسباب هي :

١ ـ اللاسامية في الاتحاد السوفيتي «!!»

٢ ـ مطامع الاتحاد السوفيتي في النفط العربي والاسواق العربية «!!»

٣ ـ الاسلام أو الرابطة الاسلامية بين العرب والشعوب المسلمة غير العربية في آسيا وافريقيا .

٤ ـ توافق الانبعاثين : انبعاث القومية العربية والحركة الصهيونية .

٥ ـ النفط العربي « وهذا سبب لم تذكروه فأضيفه لحسابكم » .

٦ ـ فرادة الشعب اليهودي أو الحركة الصهيونية أو المصير الاسرائيلي ، او ما الى ذلك .

هذه أسباب متنافرة ، بل متضاربة ، تخلو من الاتساق Consistency المفروض في كل تعليل فكري او نظرة شاملة او نظرية تجمع الوقائع وتفسرها .

فقد استخدمتم تهمة اللاسامية استخداماً يتراوح في دائرة تبدأ بهتلر وتنتهي بستالين او بريجنيف ، ففقدت الكلمة مضمونها وبطل مفعولها ـ خاصة بعد أن اتهمتم بها العرب وهم العرق السامي الوحيد الذي يواصل الحياة ضمن المكونات السامية الثقافية والحضارية والنظرة الى العالم منذ أن عرفه التاريخ الى اليوم .

بل إن الاتحاد السوفيتي كان أول دولة في العصر الحديث أقرت لكم يهوديتكم وأعطتكم في القرم مكاناً للتجمع وحقاً في انشاء دولة يهودية في بيروبيجان، فرفضتموها، وأعطتكم بريطانيا أراضي في اوغندا وسعت امريكا لكم لتتجمعوا في الأرجنتين: كل ذلك كان سيتم سلماً ولكنه يقتضيكم أن تتنازلوا عن السيادة وأن تنطووا تحت جناح الدولة المانحة فرفضتم وأصررتم على فلسطين وربطتم سيادتكم بعجلة الامبريالية الامريكية لأنها تتجاوب مع نزعة جنرالاتكم في التوسع والتحكم فوافق لكم الاتحاد السوفيتي مع من وافق، وزودكم أندريه غروميكو، وزير الخارجية السوفيتية أمام الامم المتحدة بالصيغة الكلاسية عن حقوقكم المزعومة، فقال:

« نظراً لان ما من دولة من دول اوربة الغربية قد تمكنت من الدفاع عن الحقوق الاولية للشعب اليهودي، او التعويض عليه عن المظالم التي عانى منها على يد السفاحين الفاشيين، فان رغبة اليهود في انشاء دولة خاصة بهم هي رغبة مشروعة. ان عدم الاعتراف بذلك والتشكيك في حق الشعب اليهودي في تحقيق امانيه لابعد مايكون عن العدل ... »

« وبعد ستة اشهر من ذلك، اضحت دولة اسرائيل واقعاً تاريخياً تحت اشراف الامم المتحدة. وبدعم حاسم من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية » (١).

هذه الضمانات مازال الاتحاد السوفيتي ملتزماً بهـا، وما زال السيد غروميكو وزيراً للخارجية؛ ولم يكن الاتحاد السوفيتي في يوم من الأيام بحاجة الى النفط العربي مثلما هي حاجة أوربا الغربية والولايات المتحدة إليه، فكيف ينسجم كل ذلك مع تهمة اللاسامية وتهمة المطامع التوسعية المزعومة للاتحاد السوفيتي؟.

عليكم أنتم أيها المفكرون والكتاب الاسرائيليون ان تفتشوا عن

«١» المقتطف بأكمله مأخوذ من مقال دوف بارنير في كتاب « من الفكر الصهيوني المعاصر » ـ نشر مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ـ لبنان. شباط ١٩٦٨. (وهو ترجمة للعدد المذكور من « الازمنة الحديثة »).

الحقائق ، ولكن ليس لدى الغير ، بل في أنفسكم وفي مؤسساتكم العسكرية وفي تصرفاتكم ضد العرب وفي مواقفكم من الشعوب والعصر والسلام العالمي والدور الذي اخترتموه لأنفسكم وشعبكم . ولن أطيل كثيراً فالسر معروف ومثبت على خارطة الشرق الأوسط : أنتم تقومون بالتوسع في الأراضي العربية وتقومون بدور المقاوم لحركة التقدم العربي بمبادئها الثلاثة : الوحدة والحرية والاشتراكية .

لقد وافق الاتحاد السوفيتي على انشاء دولة لكم في الشرق الأوسط – بصرف النظر عما لحق بالعرب من ظلم وأذى على أيديكم – لكنكم تريدون منه أن يوافق لكم على انشاء امبراطورية تتحكم بالعرب . فاذا رفض شهرتم في وجهه سلاح اللاسامية ، من بين أسلحة أخرى كثيرة تستخدمونها . وليس الاتحاد السوفيتي بالدولة التي تسمح مبادؤها للآخرين بانشاء امبراطوريات على حساب الشعوب .

وهذا ينطبق أيضاً على أوروبا الغربية – إذا أردنا ان نقفز الى البند الخامس من الأسباب الرسمية التي تقدمونها لتبرير عزلتكم الدولية عن العالم – فليس النفط هو الذي جعل دول أوروبا الغربية تقف موقف الحياد من النزاع في الشرق الأوسط ، بل إنها اتخذت هذا الموقف قبل ان يستخدم سلاح النفط بسنوات : بدأ هذا الموقف الرئيس العظيم شارل ديغول الذي كان يقول عن « اسرائيل » : إنها صديق وحليف . ثم تبعت فرنسا دول أوربية كثيرة كان آخرها بريطانيا : إن أوربا مثل الاتحاد السوفيتي ، تضمن لكم دوله في الشرق الأوسط لكنها لاتلتزم بأحلامكم الامبراطورية . فهي مع (وجودكم) وضد (توسعكم) .

أما أن الرابطة الاسلامية بين العرب والشعوب المسلمة غير العربية في

آسيا وأفريقيا هي السبب في عزلتكم ، فهذا قول فيه مغالطة لأنه يحتوي على جزء من الحقيقة ويغفل الجزء الأكبر منها . ذلك ان الدول العربية الرئيسية على حدودكم تتبنى الاسلام كمؤشر حضاري وتراث قومي مجيد ، أما تطوير المجتمع العربي وتحديثه فانه يعتمد على التشريك « Socialization » والتصنيع والتوحيد: ولهذه الأقانيم نزعة علمانية « Secular » وليس دينية . بل إن العرب في كل تاريخهم كانوا مبرأين من التعصب الديني بحكم كونهم أمة مزدوجة الديانة : فهم مسلمون ومسيحيون ، على اختلاف المذاهب في الديانتين . وجاءت نزعة الانبعاث القومي إلى العرب وإلى سواهم من الشعوب المسلمة فساعدت على قلب النظرة الى الاسلام من نظرة دينية عملية الى نظرة حضارية . وإذن فيجب أن تبحثوا عن سبب عزلتكم في مكان آخر غير الرابطة الاسلامية ؛ ذلك ان هذه الرابطة لم تمنع دولة مسلمة كايران من ان تتحالف معكم حلفاً استراتيجياً ضد العرب . ولو ان للرابطة الاسلامية تأثيراً فعالاً في سياسة ايران لقطعت عنكم نفطها فتتوقف جيوشكم عن غزونا واكتساح أراضينا وتشريد شعبنا وتدمير مدننا واتلاف مصانعنا ومحاصيلنا وقتل عمالنا وفلاحينا . ذلك ان ايران مثل اسرائيل ، تطمع في التوسع في الأراضي العربية بدافع نزعة شوفينية وتوسعية كالنزعة الصهيونية لدى جنرالاتكم وأحزابكم المتعصبة ، وقد أدين موقفها مثلما أدين موقفكم ، ولو ان عدوانيتها لم تبلغ الى الحجم الذي جمحتم به الى التوسع في أراضي العرب ،ولم تدفعها الى تمثيل الدور القمعي ضد حركة التحرر العربي ،وهو دور تطوع به جنرالاتكم منذ ان ناهضتم ثورة الجزائر وتحالفتم مع بريطانيا وفرنسا ضد الثورة الناصرية في عدوان السويس سنة ١٩٥٦ .

وإذن فهذه الشعوب المسلمة لم تقف الى جانب العرب بدافع الرابطة الدينية وحدها ، وإنما وقفت إلى جانب العرب لأن هذه الشعوب مثل العرب :

تطمح الى الوحدة القومية ، والاستقلال الاقتصادي ، والتطوير والتحديث والتصنيع ، في عالم يسوده التعاون والاعتراف المتبادل بحق الوجود والتقدم – وهذا لايكون إلا بسيادة سلام عادل لايطغى فيه القوي على الضعيف ولا يخطط لاستئصاله أو عرقلة تقدمه .

هذه هي روح العصر ، وقد اخترتم أن تتجاهلوها ، بل أن تقفوا ضدها متعاونين مع اعداء الشعوب واعداء السلام وأعداء التقدم . « قل لي من اصدقاؤك ، أقل لك من انت ؟ » : هذه الحكمة القديمة ماتزال ملأى بالعبر . وإذن فليس تزامن انبعاث القومية العربية مع الحركة الصهيونية هو الذي يجعل الصدام حتمياً بل ان المواقف الموحدة التي تتخذونها مع اعداء الشعوب تجعل صدامكم حتمياً مع الشعوب كلها: تحالفتم مع الامبريالية الاميركية وطمحتم الى القيام بدور الحارس والضامن لابتزاز الثروات العربية ، وتحالفتم مع البرتغال وجنوب افريقيا حلفاً عسكرياً رأينا طائراته فوق حماتنا لتشاركوهم في تطويق افريقيا والقضاء على حركات التحرر فيها ، وتحالفتم مع الاعداء الشوفينيين للعرب في كل مكان: واخطر من كل ذلك ، جعلتم انفسكم قوة تفتيت لصميم الوجود العربي بأن نفيتم الوجود العربي في الشرق الاوسط وزعمتم أن فيه طوائف وليس فيه أمة واحدة ، فغدت كل نزعة طائفية تستمد دعمها من اذاعتكم واخباركم . ثم اعتنقتم مذهب الرجعية التاريخية التي ترى في السوريين آشوريين وفي اللبنانيين فينيقيين وفي المصريين فراعنة وفي عرب افريقيا بربراً .. الخ ، وتجاهلتم الوجود العربي القائم بالفعل وبالامكان على حد سواء .

انا اعلم ان هذه النظرة كامنة في اساس العقيدة الصهيونية :

– « اعطوا ارضاً بلا شعب لشعب بلا ارض »

اسرائيل زانغويل

ـ « المرء لايشتري ارضاً بل يستولي عليها ويأخذها لنفسه »

مناحيم شاينكين « ١٨٧١ ـ ١٩٢٤ »

ـ « كلما حصلنا على مزيد من الارض نكون على استعداد للقيام بتضحيات اكبر »

تيودور هرتزل

ـ كلما ازداد عدد المهاجرين زادت حاجتنا الى الارض

هرتزل

ـ ان مياه الليطاني ، اغنى خزانات فلسطين ، قد اقتطعت كلياً ، وابقي اليرموك خارج الوطن القومي اليهودي .. ومنابع الاردن العليا تعاني من الوضع نفسه .

« ١٩٣٩ » جابوتنسكي

ـ ان الامة اليهودية لن توافق مطلقاً على سلخ شرقي الاردن من جسد فلسطين الذي تربطها به صلات تاريخية وجغرافية واقتصادية ولا يستطيع اي تصريح ان يغير من اعتقاد كل فرد يهودي بأن الارض الواقعة شرقي نهر الاردن تؤلف جزءاً لايتجزأ من وطنه الام ودولة المستقبل .

« ١٩٤٦ » غلوين وسنر

ـ « المساحة المفتوحة بوجه الاستعمار اليهودي والمنوي اقامة الوطن القومي اليهودي على ارضها فيما بعد ، لاتنحصر من ناحية المبدا بمنطقة الانتداب البريطاني »

« ١٩٢٠ » جابوتنسكي

ـ لن يكون سلام لشعب اسرائيل ولا لارض اسرائيل ، حتى ولا للعرب ، مادمنا لم نحرر وطننا بأجمعه . حتى ولو وقعنا معاهدة صلح .

« ١٩٥٠ » مناحيم بيغن

ـ لاتوجد اية دولة اخرى في العالم يعيش ٩٠ ٪ تقريباً من شعبها خارج حدودها

« ١٩٥٤ » ناحوم غولدمان

ـ ان المهمة القومية التي تضطلع بها دولة اسرائيل ـ الا وهي جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة في العالم وتهجيرها الى اسرائيل ـ ان تلك المهمة تستدعي هجرة متصلة تستمر على الاقل لمدة جيل واحد « ٣٠ » عاماً . وعلى الدولة الاسرائيلية ان تؤمن

الاحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان ... ولذا فان مهمتنا هي احتلال الاراضي العربية وتوطيد سيطرتنا عليها .

الخطة الاستراتيجية للجيش الاسرائيلي . للعام ١٩٥٦-١٩٥٧ «١»

ومع أنني تعمدت أن أحذف كل التصريحات التوسعية التي أدلى بها جنرالات اسرائيل بعد حرب سنة ١٩٦٧ ، فإن هذه الاقتباسات تضم صلب العقيدة الصهيونية منذ ١٩٨٠ إلى اليوم . وأهم عناصر هذه المقتبسات :

آ ـ فكرة اعادة تجميع كل اليهود في مكان واحد .

ب ـ التوسع في الاراضي العربية لاستيعاب هذه الهجرة .

ج ـ وما يترتب على ذلك من التحالف مع القوى الاستعمارية لكسب الدعم المادي والمعنوي لمثل هذا التوسع .

د ـ اهمال الجانب العربي من الحساب الصهيوني تحت وهم فكرة « اقامة وقائع جديدة وفرض الامر الواقع بقوة السلاح .

هذه الافكار نشأت في أواخر القرن التاسع عشر حين كان التوسع الاستعماري في أوجه ، وحين كانت اوروبا منفقة على النزعة الاستعمارية بقوة السلاح وبصرف النظر عن آمال الشعوب او مقاومتها ، وحين بدأ الاستيطان الانكليزي في أمريكا الشمالية بعد افناء الهنود الحمر يؤتي أكله على شكل قوة اقتصادية وعسكرية نامية هي الولايات المتحدة الامريكية التي شكلت الاحتياط القوي لاوربا الغربية في الحربين العالميتين . غير انهزية النازية وتزايد قوة الاتحاد السوفيتي المذهلة ادخل تغيراً نوعياً في العلاقات الدولية ؛ واول مظاهر هذا التغير النوعي قدرة الشعوب المضطهدة على تحصيل السلاح والتدريب اللازمين لمقاومة الاستعمار عامة والاستعمار الاستيطاني بشكل خاص . نحن إذن في عصر تحرير

«١» جميع هذه المقتبسات مأخوذة عن كتاب د . أسعد رزوق « اسرائيل الكبرى » من منشورات مركز الابحاث « ١٩٦٩ » .

الشعوب لا في عصر سحقها وانكار وجودها وسلب مقومات هذا الوجود من ارض وثروة وتراث . والاسرائيليون إذا تشبثوا بمفهومات التوسع الصهيونية المتخلفة قرناً من الزمان عن روح العصر فانما يقضون على انفسهم بأن يبقوا خارج هذا العصر ، وان يعيشوا في غربة عن شعوب هذا العصر، وان يكافحوا ضد التاريخ وان يبقوا رغماً عنه ـ وهذا شيء لا يكون لأحد على الاطلاق .

لقد قامت الفكرة الصهيونية في عصر لم يكن الاستعمار فيه ليحسب حساباً للشعوب : كانت انكلترا تستطيع استعمار ثلاثمائة مليون هندي بأقل من مائة الف جندي انكليزي . وتستطيع استعمار مصر بأقل من خمسين الف جندي انكليزي ، وتستطيع ان تقوم بمذابح في السودان ضد المهدي بثلاثين الف جندي انكليزي . اما اليوم . . . كيف تستطيعون ان تستعمروا العرب في عصر الحرب الشعبية والجيوش النظامية والاسلحة الفتاكة والوعي القومي الملتهب والتسليم الدولي بعدالة القضية العربية ؟. إنني ليبرالي بقدر ما انا قومي ، ولدي الذهن المفتوح الذي يرضى ـ بعدأن يغص ـ بألا نحاسبوا على اخطاء زعمائكم التاريخيين : ولكن اذا اصررتم على اعتناق هذه الافكار الصهيونية القديمة ، أفكار الفتح والتوسع واجلاء العرب عن اراضيهم والاعلان المستمر عن احتلال هذه العاصمة او تلك ، فانكم ستواجهون من العرب المصير غير الانساني الذي ترغبون في أن تفرضوه عليهم . هذا منطق وجدال وليس تهديداً ولا وعيداً ولا خطابة . ان روح العصر ترفض بناء امبراطوريات على حساب الشعوب ، فكيف تتقبل إجلاء الشعوب عن أراضيها لاحلال مهاجرين بدلاً منها ؟ الرب وعدكم بذلك ؟ لقد وعدكم ـ إن كان قد وعدكم ـ أيام كان « الرب » اقطاعياً استعمارياً يوزع البلاد على الشعوب البيضاء لتتصرف بها حسب مطامحها ومصالحها ، أما اليوم فقد تغيرت صورته . ويجب أن تعدوه ـ بعد أن وعدكم ـ بأن تكونوا شعباً لايقتصر همه على انجاب الجنرالات

فقط ، بل ينجب السياسين والمفاوضين والمخترعين والموادعين لجيرانهم : ان المهاجر الصهيوني قد ينقب في الأرض العربية فيعثر على أثر يعود الى السبعين عاماً الذهبية الوحيدة في التاريخ اليهودي ، ولكن العربي ينظر الى أرض فلسطين فيجد بيته وكرمه وقبر أخته التي ذبحت في قبية او كفر قاسم او دير ياسين ، بعد أن اغتصبت ونكل بها .

ومع ذلك فهذا العربي يتجاوز مغضياً عن كل ذلك ويدعوكم الى مائدة مفاوضات بإشراف الأمم المتحدة وضمان كل قوى العالم ، فماذا أنتم صانعون ؟

لقد عاد الصهيونيون المتعصبون الى نغمة « مصير اسرائيل » ونغمة «فناء اسرائيل » في وقت دارت فيه الحرب الرابعة في اراضينا ومدننا وعلى أبواب عواصمنا .

فلم يصدقه أحد .

وعاد الصهيونيون المتعصبون الى نغمة «تدمير العرب » و«احتلال عواصمهم » و « كسر ظهورهم » فلم يخف منهم أحد : أتعلمون لماذا ؟ لقد زرت أما ثكلى استشهد أحد أبنائها في القتال . جلست صامتاً أبحث عن الكلمات ، فبادرتني بالقول :

– أحمد الله أن ابني استشهد ولم يتمكن اليهود من احتلال مدينتنا .

وقالت لي زوجة شهيد آخر :

– الحمد لله الذي قتل في الحرب مهاجماً ولم يقتل منسحباً . الجرح في صدره وليس في ظهره .

هذا هو المزاج العربي الذي سوف تواجهونه ، وهو في تصاعد .

أتدرون السبب ؟

يتحدث الكتاب الصهيونيون المتعصبون عن «فرادة» المصير الاسرائيلي . . ان هذا الاستئناف الى الميتافيزيقيات القدرية او العرقية لا يعني الا المزيد من العناد . وهو عناد لن يؤدي الا الى المزيد من العنف والدمار لطرفي النزاع كليهما .

لقد فكرت طويلاً في أمركم فلم اجد فرادة الا في اعتناق مفهومات تخالف روح العصر . لقد اعطتكم المذاهب الاستعمارية التي استمرت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، أرضاً في فلسطين ، ضمنها (الحق العام) كما تسمون عصبة الأمم وهيئة الامم المتحدة . وها أنتم تتجاهلون قرارات الامم المتحدة حين حاولت أن تضمن حقوقنا . لكن عصر تحرر الشعوب والوحدات القومية لن يعطيكم امبراطورية تمتد من النيل الى الفرات . هذا العصر سوف يزود الغضب العربي بالأسلحة اللازمة للمحافظة على البقاء في الأرض ، في الوطن ، في الأمة . ان استلاب الارض العربية هو افقاد القومية العربية أحد العناصر الاساسية لبقائها . وهده لعبة خطرة ما أظن أن مفهوم « الفرادة » يستوجبها . هاهي الحرب قادمة ، وأنا واثق أن جنرالاتكم يخططون للحرب الخامسة الآن . وهم يخططونها حرب ابادة لاتقتصر على الاشتباك بين الجيوش ، وذلك لارهاب العرب وجعلهم يتهيبون من الحرب . ولكن ما من مخلوق أو أمة تجد التهديد خطيراً الى هذا الحد وتستسلم ، خاصة إذا كان العالم في آسية وافريقية وأوربة يدعمها .

فرادة ؟ لنلق نظرة على التصرفات الفردية لدى جنرالاتكم الذين سكتم عنهم :

١ ـ لقد انفردوا بالقوة بعد عام ١٩٦٧ . ومع ذلك فلم يقدموا مشروع سلام واحد يصلح للعقل والشرف والضمير ان يفاوض على اساسه .

٢ ـ أغلقتم قناة السويس وطلبتم من العالم ان يستغني عنها ريثما تدبرون ضمانات لامنكم ، واذا بأمنكم يمتد ليشمل السكنى في الاراضي المحتلة كلها ، وتهديد البلاد العربية بأسرها .

٣ ـ بعد ان طالبتم العالم بالاستغناء عن قناة السويس ها انتم تطالبونه بالاستغناء عن البترول ؛ وهو المكون الرئيسي للحضارة المعاصرة بأكلها .

٤ ــ بعد ان فرضتم على العالم ان يستغني عن القناة والبترول عرضتموه لخطر المواجهة الذرية بين السوفييت والامريكان .

٥ ــ وما زلتم الى الآن تزعمون على شعبكم جنرالات تأكلهم شهوة الاحتلال والتدمير .

أيها الكتاب :

اذا كان للكتابة شرف المحافظة على النقاء الانساني فان ذلك يكون عبر اللحظة التاريخية المواتية . ولم يسبق في تاريخكم مثل هذه اللحظة المواتية : هناك ضمان لأمنكم وسلامتكم من جيرانكم العرب . وهؤلاء الجيران هم الذين يشكلون الضمان الحقيقي وليس فقط الرأي العام العالمي .

ان أي كاتب ذي ضمير سوف يقود حملة لتوعية شعبه على خصب اللحظة التاريخية المواتية لتجنب الأحقاد والضغائن والتعاون مع كل القوى الخيرة في العالم لاحلال سلام عادل .

وهذا لايكون إلا بالعمل على اسقاط الطبقة الحاكمة في اسرائيل . هذه الطبقة التي تعيش بالحقد والتآمر وتهدر دماءكم قبل دمائنا ، وتسوقكم إلى حروب غير عادلة ولا شريفة مادامت تهدف الى اغتصاب أراضي الغير وافنائه . لقد سقطت الطبقة الحاكمة في « اسرائيل » منذ ان فشلت بعد حرب ١٩٦٧ في تقديم مشروع للسلام مقبول لكل الاطراف . لكن سكوتكم عليها الآن جريمة في حق شعبكم وأمتنا والانسانية والحضارة .

لقد وثقت بأمتي العربية وأحببتها أكثر وأكثر لأنها معافاة من التعصب والحقد وكره البشر حين سمعت خطاب الرئيس أنور السادات ومشروع السلام

الذي قدمه ، والذي تعرفون أنه لايمثل إلا الحد الأدنى من المطالب العربية المشروعة . إن أمة تحارب بالبسالة والكفاءة اللتين يتطلبها اقتحام القناة وخط بارليف وتحصينات الجولان ثم تقدم مشروعاً للسلام بمثل هذا التسامح لهي أمة سليمة الضمير معفاة من الضغائن .

وقد وثقت من ان قيادتكم مريضة وان من واجبكم ان تغيروها حين سمعت رد المسز مائير على مقترحات الرئيس السادات . كان ردها على مشروع السلام : « ان قوات اسرائيل تهاجم الضفة الغربية للقنال الآن » .

هذا فرق نوعي بين حضارتين ، وليس فرقاً بين ميزان القوى . فقد أصبح الحصول على القوة العسكرية مشاعاً بيننا وبينكم ، نستطيع ان نحصل على التدريب والسلاح مثل ماتستطيعون ، ولكننا نستطيع ان نسعى إلى السلام ، ومن واجب أي كاتب شريف ان يفتش عن القيادة التي تسعى الى السلام .

خماسية مباركة

أنطون مقدسي

خماسية ، (١)

لأنها تأليف في أجزاء خمسة ، يضم دراسات وضعت في أزمنة مختلفة ، منها المنشور ومنها غير المنشور ، يشد بعضها الى البعض الآخر ، بالاضافة الى المقدمات

«١» بالفرنسية من منشورات الندوة اللبنانية ١٩٧٢ — ١٩٧٣ .
Y. Moubarac Lentalogie iolamo-chrétienne Editions du Cénacle lileanais, Beyrouth 1972 - 1973 .

والهوامش والمراجعة الختاميـة بخاصة ، تجربة متعددة الجوانب ، هي حيـاة المؤلف الفكرية والروحية ، تجربة تعطي عنها الخماسية صورة أمنية ، كما أنها تقدم للقارىء في نهاية التأليف جملة أسس- مقاييس على ضوئها ، يعيد المؤلف النظر في ماضيه ليجعل منه مستقبلاً .

مباركة ،

لأنها تكشف عن وجه عربي أصيل من لبنان ، تردده وقلقه ، ثورته وخضوعه ، صلاته وتوبته ، جزء من أصالته .

فالمؤلف — الأب يواكيم مبارك — يتقمص الحياة العربية بأهم أبعادها ، يجول في حناياها وآفاقها : من الماضي الى الراهن ، من القديم الى الآتي ؛ يعيش صراعاتها : مع الفلسطينيين فلسطيني ومع البنانيين لبناني ، مع المسلمين مسلم ومع المسيحين مسيحي . أكاد أقول مع « الطائفيين » طائفي ؛ ثم يقف ، يتخذ موقفاً يقوله ، والموقف - القول ملزم ، يبني ويعيد البناء ، وبعدها يعود على مواقفه ، يحلل وينقد ، يصلي ويندم ، يرجو ويترجى ، يصحح ، يستشرق المستقبل في دروب كلهـا مزالق . وفي غاية المطاف ، إذ يهي رحلة ويعد العدة لأخرى ، يعيد النظر في المفاهيم التي وضع والأسس التي اعتمد ، فيقومها ، ويعمقها ليزيدها احكاماً .

هذه الاعادة هي استدراكاته ؛ تجدها في خاتمة الجزء الخامس . يليها حساب الربح والخسارة : كلاهما يقيس الدرب الذي قطع «١» .

أأقول معه ، انه فشل ؟

كلا ! لكن المعركة وساحها عصيّان على النظرة الشاملة والوحدات الكليـة التي يحبها المبارك : الأولى متعددة الأطر فوالمرامي ، كل يوم تتكشف عن أمرغيرمتوقع ؛ والثاني ، تاريخ بعمر الدهر ، وأرض وسعت يوماً حضارة الانسان فلا يدري الباحث من أين يبدأ . وإذا أخطأ نقطة الانطلاق تحول البحث الى متاهة .

والخماسية ، من هذا القبيل ، سلسلة محاولات أو مقاربات ، كل منها ، في أغلب الأحيان ، متعدد المنطلقات . وقد تتراكم هذه بحيث يصعب ردها الى واحد ، أوالتأليف

«١» V ٢ صفحة ٢٣٥ وما يلي ؛ وصفحة ٢٤٨ وما يلي . الارقام اللاتينية تشير الى الجزء ، والأرقام العربية الى صفحات الجزء .

بينها . كل منها ، بالمقابل ، تستثير الماضي ، تبعثه في الحاضر بحيث ترغم القارىء العربي، المنكش على مشكلاته المباشرة ، على مواجهة صعوبات قلما ينتبه اليها «١» .

ذلك أن المبارك عالم ومناضل وراع : مع العالم يصغي الى الحدث ، مع المناضل يقومه ، مع الراعي يتبين دلالته الروحية .

وهو ، الى هذا ، محاور ممتاز . تأليفه مناظرة مستمرة مع نفسه ، مع الواقع المعاش ، مع من عنوا بهذا الواقع من عرب وأجانب . فالنقاش ، الى جانب البيان العلمي ، تمرد وخضوع . وعندما يختم المؤلف ، ويعتقد أنه أدرك الخاتمة ، يلقي على ربع قرن من العمل الدائب نظرة أساها يفيض حناناً على بلد أحبه فنذر نفسه لخدمته.

وبعد فالمسألة ليست مسألة كتاب أو خمسة كتب – فالكتابة تستمد قيمتها من الوضع الانساني الذي تتفاعل معه وتحاول الاحاطة به وتقويمه – وإنما هي مسألة لبنان: موقعه من الوطن العربي ، دوره فيه ، سماته ، ما هو زائف منها ، وما هو سليم ، الخ . لبنان الذي يستعيد اليوم حقيقته لدى جيل جديد يصل ما قطعه الأجنبي الدخيل .

المسألة ، بشكل أدق ، وبعد أن كان ما كان ... مسألة المنظور اللبناني ، يتسع ليصبح العروبة في المنظور اللبناني .

فالمبارك ، في خماسيته كما في بقية مؤلفاته ، شاهد ممتاز على حقبة تاريخية هي التي يُصفى حسابها اليوم ، وهو في الوقت ذاته باكورة التي تلي . .

وهذا ما يعنيني في مراجعتي لخماسيته ، أو بالأحرى في الحوار الذي أقيمه معه، وأريده في ظل آية الصداقة ، قمة اللقاء الانساني ، الصداقة للبنان ولأبناء لبنان .

وأعترف مسبقاً أني سأكون دون المهمة . أعترف لا تواضعاً مني ، بل اقراراً بحقيقة واقعة وهي أن للمبارك من المعرفة في تاريخنا وفي روحاليتنا ما ليس لي .

في البحث عن الجذور :

أبدأ من النهاية ، فبدايات الحياة في مراميها ، يدلني على الطريق المبارك نفسه عندما يقرأ ما كان على ضوء ما يكون ، إذ يكتب :

«١» راجع على سبيل المثال II صفحة ١٩٧ .

« موضوع اللغة العربية . من المحتمل أن موقف المؤلف لم يتّبين بوضوح ، في هذا النص أو ذاك من النصوص المكرسة لها، أو التي أشير فيها اليها . هاكه دون مواربة.

انه انحياز مطلق ، وقطعي ، لا الى جانب الفصحى ضد العاميات وحسب ، بل الى جانب اللغة الكلاسيكية ضد كل نوع من أنواع التحديث . وانني ارفض هنا كل ما يتقدم على انه تبسيط للكتابة أو القواعد ، أرفضه على أنه « مناورة » مقنعة كثيراً أو قليلاً لأقلمة اللغة العربية . فهذا يطيح ، في رأيي لا بالكنز الأثمن ، بل أيضاً بروح الأمة العربية وبخطها » .

ويرى بعدها أنه إذا كان عندنا لأسرى الحرب والمرضى على أسرة العذاب ، شأن رفيع ، فذلك بسبب ارتباطنا باللغة العربية ، سواء بسواء كارتباطنا بالأندلس وفلسطين والكلام والارض والكعبة المقدسة ، ارتباطنا بارث لا يتجزأ .

يرى هذا ويضيف :

« هو الشعب الذي صنع اللغة ، في أحشائه تصوّرت ، وهو الذي سيعيدها الى النور » .

ويقول أخيراً :

« ان كل تحديث لا يخضعه العرب لمقاييسهم ومتطلباتهم الذاتية لا يمكن أن يكون الا مرحلة اضافية في حركة تفسخهم وخضوعهم للقوى الاقل نبالة في عالم متحول ؛ في حين يعود اليهم أمر رد مثل هذه العملية الى مصيرها في الرسوخ لخطهم الذاتي » (١) .

هذا الكلام القاطع حصيلة . (٢)

وفي الوقت عينه ، أصل ،

حصيلة عمر مع اللسان ،

«١» V ٢٣٥ - ٢٣٧ .

«٢» للأب يواكيم مبارك مؤلفات كثيرة بالفرنسية ، يجد القارىء في الخماسية تعدادها وتواريخ نشرها . أما الخماسية ذاتها فمجموعة دراسات وتعليقات ومواقف ومحاضرات ، الخ . رافقت صدور المؤلفات ، تلخصها أحياناً . كما انها توضحها وتكملها . وتحتوي الخماسية أيضاً على تعليقات على كتب المؤلف ، بالاضافة الى بعض دراسات لمؤلفين آخر أدرجت لأنها ، على الأرجح ، تتفق مع وجهة نظر المؤلف .

وأصل لأن المبارك بدأ حياته الفكرية مع الجذور ، فأولى بحوثه العلمية — أولى جولاته — كانت مع ابراهيم الخليل ، عنيت : الحدث الأول ، الحدث — الأساس على حد تعبير بول ريكور (١) ، ذلك الذي انشأ الحضارات والثقافات ـ السامية العربية ـ ومعها الروحانية التي ما تزال وستبقى ، المصدر الأول لأهم روحاليات العالم .

وكان لا بد لباحث ، في هذا المجال من أن ينطلق من اللغات التي نزلت فيها النصوص المقدسة أو كتب فيها بعدئذ ، السامية منها « العبرية ، الآرامية ، السريانية ، العربية » وغير السامية « الاغريقية واللاتينية » . ويطالب المبارك بدراسة هذه اللغات كلها ، بتدريسها ، بانشاء الاكاديميات للحفاظ عليها (٢) . ولكنه يعطي للعربية المقام الأول ، إذ « انها ليست لغة الوحي وحسب ، بل الوحيدة التي تقدم ذاتها على أنها كذلك » . فالتوراة ، كما يضيف « معروفة في ترجماتها أكثر مما هي في نصها الأصلي » بعكس القرآن الكريم حيث النبرة والايقاع » من ماهية تجلي الله في التاريخ » (٣) .

ومن ثم فان العربية استعادت التراث السامي ، صهرته في كيانها ، وبهذا حلت محله (٤) .

والعربية الى ذلك ، وبسببه على الأرجح ، تستدعي الفرد كله ، تصهره تنشىء حساسيته ، منعكساته ، دلالة وجوده ، تجعل منه صورة عن الأمة التي ابتدعتها وأبدعت ذاتها معها ؛ وبهذا تربطه بالانسانية . انها لغة القديم والأصول الاولى ، كلاهما لا يساوم ، يأبى الحلول المتوسطة . فالمبارك ، عندما يرى أن لغتنا تشدنا الى الأرض والى المعذبين فيها ، عندما يستشهد بالآيات الكريمة ، تدعو الى البر والرحمة ، عندما يتلوها مصلياً يقصد ، إذا فهمته ، أن العربية بحكم بنيانها، لغة التعاطف مع كل ما هو انساني ، تجعل من الغريب قريباً ، ومن البعيد جاراً .

«١» بول ريكور . تعارض التفسيرات ،نشر Seuil

«٢» يعود المؤلف على هذا الموضوع أكثر من مرة ، راجع مثلاً IV ، ٢٠٦ .

«٣» V ، ٢٣٩ . يلح الأب مبارك في الخماسية دوماً على دور اللغة العربية الحاسم بالنسبة للعرب وللانسانية . راجع على سبيل المثال : II ، ١١٥ — ١١٦ و IV ، ٢٠ ؛ ١١٣ — ١١٤ .

«٤» III ، ٣٠٤ — ٣٠٥ .

والعربية أخيراً – وهو أهم من كل ما تقدم – لغة « التوحيد » صانته خالصاً ، وجعلت من الذي ينطق بها – سواء أثبت أم نفى – شاهداً عليه وله ..

أأقول إن كلية العروبة « عالميتها على حد تعبير الاستاذ جاك برك » هي في هذا كله ؟

بمعنى ما نعم .. وكذلك وحدة العرب .

فالانسان – فرداً وجماعة – بمقاصده ، بالدلالة التي يعطيها – أو التي أعطيت – لوجوده .

« إن العلاقة توحيد – كلية – ، لتستحق المزيد من الايضاح .

ويمكن أن تصاغ على الشكل التالي ، طالما أن الله واحد احد فهو كلي » .

يكتب المبارك هذا ليضيف بعد أسطر ، « أن أدهى مشهد كان يتبدى عنه تنوع القبائل العربية هو ، على الضبط ، تنوع الآلهة التي كانوا يعبدونها ، كل واحد منها تُصوِّر على انه مُلْك لشعب أو لقبيلة ، وهذا هو التعريف لعبادة الاوثان » .

ويواصل قائلاً :

« طالما أن الرسول يعلن إلهاً واحداً ، عليه في الوقت ذاته أن يعلن وحدة عالمه الديني في عالمه السيامي » « ١ » .

ولكن الدلالة لا تتأكد من اللغة وحسب ، بل من الحدث الذي نقوله ، من التقاء بينهما .

ولهذا يضيف المبارك لتوه ،

« كان الرسول قد اكتشف هذه الوحدة في جو مشترك ، جو تلقى الوحي التوحيدي ناجزاً في التاريخ منذ مرحلته الاولى ...

قاله ابراهيم سيد الكل ، والمؤمنون اخوة فيه وفي ابراهيم » « ٢ » .

فالحدث الابراهيمي ، أو الفعل الحر اطلاقاً الذي اصطفى بموجبه الله ابراهيم

« ١ » II ، ١٧

« ٢ » II ، ١٧ ، راجع أيضاً «التوحيد القرآني وشهوده، النبيان موسى والياس II . ٩٩ – ١٧٦ .

وجعل منه خليلاً له « ١ » هو الحدث الاساس ، إذ إنه شطر التاريخ الى شطرين : ما قبل وما بعد ، هذا . استعاد ذاك استعادة كلية أي عربه وصهره « ٢ » ، وفيه تتأصل وحدة الاسلام والعرب « ٣ » ومنه يستمد التاريخ الاسلامي العربي معناه « ٤ ».

ويضع المؤلف ، بهذه المناسبة دراسة علمية دقيقة مستفيضة فيبين فيها ، من جهة ، معالم المحيط العربي في جنوب الجزيرة بخاصة ، ومن جهة أخرى أسماء الله في اللغة السامية، لا ليرد الاسلام الى ما قبله ، فهو حريص كل الحرص على اصالة الاسلام، بل ليحدد الارضية التي توضع فيها الوحي الاسلامي « ٥ » .

فالكلية التي يراها بحق في الاسلام هي ، من جهة كلية الحدث الابراهيمي « هيمنته على التاريخ»، أي كونه جمع التاريخ السابق وعين المعاد « وإليه ترجعون » ومن جهة أخرى كلية رب الوجود ، وسيطرته المطلقة عليه «وسع كرسيه السماوات والأرض » .

بوسعي القول ، اذا فهمت فكرة الخماسية - ربما بالأحرى إذا عمقتها - أن الحدث الذي انبثقت منه الديانات التوحيدية ، يوم شاء الله أن يكلم ابراهيم الخليل ، قد استبقته اللغة العربية أساساً أولاً منه تنطلق واليه ترتدي التراث الاسلامي برمته ،وفي التراث العربي بجله « ٦ » .

وعملية « الاستبقاء » هذه، «أو مسألة التركيز على الحدث ـ الاساس » أوضعناه في ابراهيم الخليل أم في هجرة الرسول « ٧ » أوضعنا التعريب في الاسلام حيث بلغ

« ١ » يركز الأب مبارك في كل دراساته على ابراهيم الخليل ، فيعقد لهذا الغرض فصولاً مستفيضة يناقش فيها آراء الذين يرون غير رأيه . راجع على سبيل المثال II ١ - ٩٧ و III ، ٩٨ وما يلي . راجع أيضاً كتابه « ابراهيم في القرآن الكريم » .

« ٢ » II ، ١١٨ .

« ٣ » II ، ٤٢ .

« ٤ » II ، ١٥ .

« ٥ » II ، ١٧٧ - ٢٧٧ .

« ٦ » أقول « بجله » لأن معظم الشعر العربي يبقي فيما أرى جاهلياً الى أن أدركته الحداثة .

«٧» V ٤١ - ٤٢ .

كاله أم قبل ذلك «١» ، تتفرع عنها مسألتان ، بمنتهى الأهمية ، نظرياً وعملياً .

الأولى ، علاقة الحدث بالقول .

الثانية ، وحدة التاريخ العربي بوصفه تاريخاً انسانياً وتاريخية انسانية .

وبتعبير أدق فان معنى الأمة - وبالتالي صفة هذا المعنى الاجرائية في الظرف الراهن - ليختلف عندنا عما هو عليه لدى بقية الأمم ، وبصورة خاصة لدى الغربيين .

وهذا اشكال كبير لن أتمكن في هذه المراجعة من أن أوفر له البحث اللازم ، وانما سأعود عليه لماماً لأتبين المزالق التي يتعرض لها الباحث عندما يدرسه .

المنعطف :

كما الحياة العادية ، كذلك البحث العلمي في سياقه السوّي :

وثيقة تلي غيرها ، مرجع ينضم إلى آخر ، فرضية جديدة تحل محل قديمة ؛ والكل في رتابة العقل وسكينته .

ويعتقد الباحث ، ضمناً أو صراحة ، أنه يشرّع للمعقولية الناظمة للأشياء . فكل الأمور تجري كما لو أن الموجودات خاضعة ، بخضوع تام ، للحتمية العلمية ، وأن على الوقائع أن تندرج استقراءً - استنتاجاً في سياق القانون حيث النتيجة تلزم عن السبب .

ولكن على فجأة هاهو حادث يفلت ، كما الاعصار ، من السلسلة الطبيعية ليشوش نظامها ، وكأنه يتحدى العقل ومعقولياته . عندها يقف الباحث حائراً ليتساءل ، ليقع على هذه الحقيقة الانسانية الاساسية ، وهي أن البحث العلمي - حتى في أنواعه الاكثر إحكاماً كالرياضيات - يستجيب لحاجة ، وأن الجماعة ، بشكل أو بآخر ، توجهه ؛ وإذا كان لا يتفق مع أغراضها فهي تعتمه وتمتصه .

الواقع أن الاحداث الانسانية الكبرى ليست مفاجئة للدرجة التي نتصور ، إذ إنها تعلن عن ذاتها قبل وقوعها ، كما العواصف نقرؤها في الجو المكفهر . ولكن الفرد يحرص على رتابة حياته ، يعتقد أنها تصون مصالحه وأمنه .

كذلك كنا قبل حزيران ١٩٦٧ ، قبل العدوان الثلاثي ، قبل ١٩٤٨ ، الحرب

«١» IV ، ٩٠ .

على الابواب ونحن لاهون عن « علامات الزمان » تحجبها عنا أنانياتنا ، أو سنبقى على ماتحن عليه في عصر « تسارع التاريخ » ؟

ربما أن أكثر كتابات الاب يواكيم مبارك دلالة على شجاعته وإخلاصه ، تلك التي جمعها في الخماسية تحت عنوان « كتابات أيار — حزيران ١٩٦٧ » «١»

كان لنا ، يومها ، هناك ، قلة قليلة من الأصدقاء، في طليعتهم جاك برك ومكسيم رودنسن ، الخ أدوا واجبهم بجرأة وشهامة. أما الأخر من المثقفين فمنهم من باعوا أنفسهم لابليس وآخرون أعمت قلوبهم أحقاد دفينة ومحاكات ملتوية ، وغيرهم آثروا الحياد ، ومن لم يختر في مثل هذا الظرف موقعه يختارونه له . وبالنتيجة كلهم — وباستثناء من ذكرت طبعاً — استكانوا لدعاوة خطط لها منذ زمن طويل بحيث تشوه ، لا القضية الفلسطينية وحدها ، بل وجه العربي ماضياً وحاضراً ومستقبلا .

وكلنا أصبح يعرف مثل هذا المناخ حيث تختلط الأصوات وتتشوش الافكار ، فالكلمة الأخيرة للاعلام يعلق المنطق ويعطل الموضوعية .

الحقيقة أن اللعبة لعبت قبل أن تبدأ ، كما في الدراما الاغريقية حيث النتيجة حاضرة ، مع القدر ، في العبارة الاولى من الفصل الأول .

ويبدو واضحاً من كتابات المبارك التي أشرت اليها — ومن غيرها — أن التاريخ العربي القائم في وجودنا كلنا ، أخذ يستثيره من الأعماق ويدفعه الى الاسهام ،على طريقته ومن موقعه في المعركة العربية المشتركة .

وهاهو يوجه النداء تلو النداء ، يضع الاقتراح بعد الاقتراح ، يخط الرسالة بعد الرسالة ، هذه لهذا ، وتلك لذاك ، يخاطب كلا منهم بلغته ومن منطلقاته . ينادي ، يرجو ، يترجى ، يناقش ،يحلل ، يفند . ياأساتذتي ، ياأصدقائي،يازملائي ، ياأصحاب العقول النيرة ، ياذوي النوايا الطيبة ... لاحياة لمن تنادي. فهولاء المثقفون ، يسارهم يعارض ليستمتع بنعم البورجوازية ، ويمينهم يشتم العرب باسم القيم الروحية . وكل منهم ؛ اذ تتوجه اليه في مثل هذه الأزمات ، يعتقد — أكاد أقول كدون كيشوت — أن مصير الحرب والسلم بيده .

ولا تخلو كتابات المبارك ، إذ ذاك من دعابة مرة . فهو يكتب مثلاً لفرنسوا موورياك مايلي ، « معلمي العزيز ، إذا أطال الله بعمري ؛ إذا لم يستدعني اليه الا بعدك

«١» ٧ ، ١ — ٧٢ .

ـ وأنا أصغر منك سناً بأربعين عاماً ـ فلن أصلي لراحة نفسك « من الأعماق » بل الفاتحة ، بعد القداس » (١) .

ولكن هذه الكتابات ، وإن كانت تتلون بكل ألوان العاطفة المجروحة — الغضب ، التقريع ، التحذير ... — فهي تتجنب « الاساليب الرخيصة » إذ انها ، في حقيقتها تحليلية تعري الظاهر لتنفذ الى الصميم .

« ان المشكلة الفلسطينية ، كما تبدو لي بوضوح متزايد على الضوء الجارح للأيام الأخيرة ، هي أولاً وفي ماهيتها ، مشكلة استعمارية . فغرس الاسرائيليين في فلسطين لايختلف جوهرياً عن شركة قنال السويس ، عن شركة الهند ، عن الشركات البترولية الانكلو — امريكية ... وهذا المشروع الاستعماري علينا أن نرده الى « واقعه القومي » والا فان وجود اسرائيل مضافاً اليه الاسكان ، سيصبح شبيهاً كل الشبه بنظام الدكتور ورفورد في افريقيا الجنوبية . وهذا الأخير لم يشك في ذلك طالما أنه يرسل الى ديان ، كدفعة اولى خمسين من متطوعيه » (٢) .

يكتب الأب مبارك هنا إلى أحد مراسليه ، والى آخر ما يلي ، « إن العاطفة الدينية في حساب الدولة الاسرائيلية ، ليست الا عاملاً محرضاً اضافياً يدعم حركتها التوسعية ، فالاستيلاء على القدس كما على بيت لحم وعلى حبرون ، ليس له في نظرها من مرمى أكثر مما كان لاحتلال ايلات بعد هدنة ١٩٤٩ . ان الأمكنة المقدسة ، تحت السيطرة الاسرائيلية هي بكل بساطة ـ ومعذرة من الوجدانات الموتورة ـ ضريبة موجهة الى السياحة والحجيج المسيحيين ، تجعل منها احتكاراً للدولة الصهيونية وحدها . » «٣» .

ان الذين عاشوا في عاصمة غربية أيام المحن ، خبروا ضراوة الرأي العام ، وقد استفزت غرائزه الدعاوة المنسقة علمياً . فأثناء العدوان الثلاثي كان التلفظ بكلمة عربية واحدة في الشارع اهانة . أما الدفاع عن حق الجزائر ـ بله عن عروبتها ـ فهو من باب « التجديف على الروح القدس » «٤» .

«١» V ، ٤٣ « من الأعماق » صلاة مسيحية تتلى في الاحتفالات الجنائزية .

«٢» V ، ٥٠ .

«٣» V ، ٣٥ .

«٤» أي التنكر للروح الحق ، وهو الخطيئة التي لاتغفر ، على ماجاء في الانجيل.

ونحن اليوم ، وبعد ربع قرن من الحروب الاستعمارية ، نعرف كم يحتاج النفاذ الى هذا الرأي العام ، من صبر وتعقل. ذلك أن الأزمة ، عندما تنقضي ، تنسحب ذيولها على سنوات ، ولايمكن أن « يذوب الجليد » ، على حد التعبير الغربي ، الا إذا استخدم المرء ، لا أساليب العدو التي هي جزء لايتجزأ من الجريمة ، بل البرهنة ، فهي وحدها قادرة على الكشف عن الحقيقة تدريجياً .

ملف فلسطيني :

لهذا الغرض وضع الأب مبارك بعد حزيران ١٩٦٧ ، الدراسات التي جمعها تحت عنوان « ملف فلسطيني » «١» .

كان قبلها قد ألف دراسات مماثلة عن العرب والاسلام «٢» . والمجموعتان تحيل كل منهما الى الأخرى وتكملها . كلتاهما تحققان الشرط الأساسي لهذا النوع من التأليف أي التبسيط والتعميق . فالدراسة تقدم للقارىء المعطيات الأولية للموضوع ؛ وتحاول، في الوقت ذاته ، أن تحيط بمختلف أبعاده ، الاقتصادية منها والدينية ، الجغرافية والسياسية ، التاريخية والثقافية ، ولولا بعض الأمور الهامشية التي سأعود عليها ، لقلت أن دراسات الأب مبارك تؤلف « خلاصة»هي ، ضمن حدود اطلاعي ، من أكمل ما كتب عن هذه المسألة الشائكة .

ينطلق الملف من وحدة فلسطين وعروبتها .

فالتقسيم ـ ظالم ككل تجزيء لوحدة وجودية ـ تحقيق تاريخي لـ« فتوى » سليمان المعروفة . وبالتالي كاشف عن طيات القلوب ، كما يقول المبارك ففي حين قبلته لتوه الأم المزعومة وغير الجديرة ، أي الصهيونية ،على أن تسترد فيما بعد أشلاء الولد،أصرت الأم الحقيقية ،أي فلسطين العربية ، على رفضه ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ،وأقرت، بلسان فتح ومنظمة التحرير، الوحدة كياناً سياسياً ديمقراطياً وعلمانياً يحقق المساواة للجميع ، طوائف وفئات اجتماعية وأفراداً «٣» .

لقد فتت الاستعمار والاحتلال الوحدة ، فكان الكفاح المسلح الرد الصحيح ،

«١» V : ٧٣ – ١٨٢ .

«٢» IV : ٢٩ – ٧٧ .

«٣» V : ٩٧ ؛ ١٣٤ ؛ III ، ٢٢٣ .

يعيد الأمور الى نصابها ، اذ جعل من اللاجئين مقاومـين ، ومن المشردين جماعـة ، مصيرها بيدها «١» . فالمقاومة ، كما يقول المبارك . واحدة من أحداث التاريـخ المعاصر الكبرى«٢» .

وهي ايضاً محور حركة التحرر العربي «٣» فيجب « أن يدرب الشعب كلـه عليها » ، يتدرب « في تربية مدنية وسياسية ملائمـة بحيث لا تتأسس ثقة الشعوب العربية على مصير الجيوش، بل على قرار اللاعودة ، قرار القلب والروح ، كما فيامريكا مرتن لوثر كنغ وهند غاندي » .

يكتب هذا المبارك في مقال بعنوان « من أجـل معنى للبنان — رسالة الى مواطنيّ من المسيحيين، ثم يضيف : « ان ولادة كفاح مسلح لدى المهانين والمستذلين ، حركة لا يمكن للوجدان المسيحي أن يكون تجاهها حراً و « أيا كانت خطيئات الحركة وادعاءاتها المفرطة وتناقضاتها» .

ويضيف ايضاً معمماً : « وإذا كان على كل انسان ان يدلي برأيه تبعاً لخطه في الحياة ، وعلى كل بلد أن يحتفظ بحريته تجاه منظمات المقاومة ، فما من أحد يحل من اعتبار ذاته معنياً بالفدائيين ، ويحل من حضوره في حركتهم العادلة«٤» .

ويشدد على لبنان « المريض بفلسطين » «٥» على حد تعبيره ، إذ يرى فيـه « الخصم الذي لا يلين لاسرائيل » «٦» .

كما يشدد على عروبة المنطقة من العراق الى المغرب الاقصى كما يقول ، أو من الخليج الى المحيط ، كما نقول .

«١» V ، ٩١ .

«٢» V ، ١٣٦ .

«٣» V ، ٩٢ وما يلي و ١٥٨ .

«٤» IV ، ٢٤٥ . الاشارة في كلمة «المهانين والمستذلين» الى رواية دوستويفسكي بالاسم ذاته مقصودة ، إذ أن المؤلف يستعمل كثيراً هذه الكلمة أو ما هو بمعناها . أما كلمة « معنى » فتدل بالفرنسية على ما يستأثر بالانسان كلياً . والكلمة العربيـة كذلك ، ولكن فقدت هذا المعنى القوي على ما يبدو لي .

«٥» V ، ١٣٨ .

«٦» V ، ١٣٩ .

منطقة بدأ تعريبها قبل الاسلام ، وتسارع معه . فكان فلسطين وسورية — جلهم من الآراميين والساميين — هبوا لنصرة الجيش العربي في مواجهة المستعمر البيزنطي ، وبعدهم سكان مصر . ومن ثم تعربوا تدريجياً ؛ ومنهم يهود ومسيحيون اعتنقوا الاسلام «١» .

ويخصص المبارك لهذا الموضوع نصوصاً كثيرة اختار منها التالي :

« ان الفتح العربي دمج فلسطين في عالم موحد ومتميز ، حيث العربي أصلا أخذ يتطور بسرعة أكثر من المستعرب من أبناء الحضارات التي اعتنقت الاسلام . ولايمكننا أن نتكلم ، هنا ، عن استعمار استيطاني ، ولا عن استعمار غزو . وانما تعريب فلسطين حركة طبيعية أنجزت مع الاسلام ما كان قد بدأ منذ فجر التاريخ . فالتعريب هو التعبير الأخير عن الصيرورة السامية في الهلال الخصيب ، صيرورة أخصبتها عوامل عدة منها الهلنية والآرامية ، وتبناها اليهود والمسيحيون كما المسلمون » «٢»

وحركة التعريب هذه هي التي يستند اليها الأب مبارك ليعطي الحل الثقافي الأولوية على بقية الحلول الممكنة أو المقترحة «٣» والثقافة ، بهذا المعنى ليست جملة معارف وعلوم مكتسبة ، بل هي لحمة الوجود الانساني وسداه ، اليها ترتد أبعاده .

وأضيف معقباً أن التعريب استعادة . وهذه هي التي توحد التاريخ — تاريخ أمة ما — إذ تجعل من الماضي ، وبنسبة قدرتها على التمثل ، مستقبلا . ان الحاضر — الحدث الراهن — اذ يحيل في حركتيه الى ما قبل والى ما بعد ، يعطي للواقع كثافته الوجودية .

والتعريب يسقط الذرائع الصهيونية .

فالمبارك يتناولها واحدة واحدة ليرفضها جملة وتفصيلا ،

الذريعة السكانية : أن اليهود لم يصبحوا الأكثرية إلا بعد أعمال العنف التي مارسوها متواطئين مع الاستعمار ،أي بعد دير ياسين وما شابهها من المجازر الوحشية «٤».

«١» V ، ٧٨ ، ١٢٤ وفي مواطن أخرى .

«٢» V ، ١٥٠ .

«٣» V ، ١٣٤ .

«٤» V ، ٩٦ ، ١٦٠ وما يلي .

أما اليهود القاطنون في أرض العرب والذين تتذرع الصهيونيـة أحياناً بحمايتهم «١» فقد كان اندماجهم في البيئة أكمل من اندماج المسيحيين أنفسهم «٢» .

الذريعة التاريخية : لو كان علينـا أن نرد كل شعب إلى أرض أجداده لتوجب اعادة النظر في تقسيم الكرة الأرضيـة «٣» . ومن ثم فان اليهود لم يشكلوا دولة الا خلال فترة محدودة مـن الزمن ، وفي جزء من فلسطين ، غير الذي منحهم إياه قرار التقسيم عام ١٩٤٨ «٤» .

الذريعة القانونية : قرار هيئة الأمم ،على أنه تكريس للغزو ، لم ينفذ طالما أن اعادة العرب الى أرضهم وبيوتهم لم تحصل «٥» .

الذريعة الدينية : ويسهب المبارك في تفنيدها ليرد الموضوع الى بعده السياسي والاستعماري ، كما رأينا«٦» . فيبين في جملة ما يبين ، أولاً أن ٩٠٪من يهود اسرائيل لا يرون في موروثهم سوى الجانب الثقافي أو التاريخي ــ الأثري ، في حين أن البقية ، وهم من أتباع الحاخامين . لايعنيهم الجانب السياسي إلا بنسبة ملاءمته لسنتهم كالامتناع عن العمل يوم السبت ، وغير ذلك «٧» .

ومن ثم فان الصهيونية ، وهي أساساً ايديولوجيا استعمارية «٧» وبسبب هذا كانت وما تزال موضع خلافات جذرية بين اليهود أنفسهم «٨» فالارثوذكسية اليهودية اعتبرتها مارقة منذ عام ١٨٩٧ ، لأنها أنكرت « المسيح المرتقب » ودعت الى استخدام الوسائل غير المشروعة للاستيلاء على فلسطين «٩» .

«١» V ، ١٠٠ .

«٢» V ، ١٥٢ .

«٣» V ، ١٠٧ .

«٤» V ، ١٠٩ – ١١٠ ، ١٤٩ .

«٥» V ، ٩٧ .

«٦» يعود الأب مبارك مراراً على هذا الجانب من الموضوع ليؤكده ، راجع مثلاً V ، ٧٦ ، ٩٥ ، ١٥٥ .

«٧» V ، ١١٥ .

«٨» III ، ٢٢٣ – ٢٢٤ ، و V ، ١٣٥ .

«٩» V ، ١٠٨ .

أما فيما يتعلق بالوعد فقد جاء في سفر اللاويين بلسان الرب : « الأرض لي ، وان أنتم فيها إلا غرباء » «١» والأرض كما جاء أيضاً في التوراة ليست حقاً مكتسباً ولا ديناً تسترده ، بل هي هبة إلهية .وكذلك اصطفاء الله الشعوب والأفراد «٢».

وأخيراً لا آخراً « إذ ان برهنة الأب مبارك مستفيضة » فان القدس اسلامية أكثر منها يهودية أو مسيحية ، وكذلك فلسطين ، لا بحكم الفتح ، بل بنتيجة التطور التاريخي للسامية ثقافة وديناً ،وبموجب قرار جمعية الامم تاريخ ١٩ أيار ١٩٣١«٣» .

والقدس بالنتيجة هي نقطة انطلاق الحركة المسكونية «٤» .

* * *

أقتصر على هذا ، إذ لو أردت أن ألخص ما يذكره الأب مبارك في مناقشة الصهيونية – وتمكنت من ذلك – لكانت هذه المراجعة صورة ضعيفة عما يقول . فهو يكتب صفحات طويلة عن القدس والحركة المسكونية ولقاء الأديان والثقافات ، على القارىء ، إذ شاء أن يراجعها بنفسه . ولكني أقتصر على هذه العبارة تكشف موقفه الملتزم بوضوح .

« طالما أن بين فلسطين ولبنان المريض بها صوتاً واحداً يقول لا ، فالقدس في قلوبنا لا يمسها دنس » «٥»

وأقول معقباً ، فيما يخصني ، أن التعريب الذي أنجز الثقافات السامية يسقط حجج الصهيونية ، لأنه يتناول المسألة ، لا من حيث الحق والتاريخ ـ كلاهما موضوع نقاش لا ينتهي ـ بل من حيث الوجود الانساني في نموه . ذلك أن الثقافة العربية ، إذ أكملت في تطور تاريخي سوي (٦) التراث السامي وصهرته ، است حق العرب في المجال العربي .

«١» V ، ١١١ « سفر اللاويين ٢٥ ، ٢٣ » .

«٢» V ، ١١١ « سفر تثنية الاشتراع ٣٠ ، ١٦ – ١٨ » .

«٣» V ، ٧٩ – ١٢٥ ، وفيما يخص الاسلام والقدس V ، ٧٥ – ٨٨ ، وفيما يخص الاسلام وفلسطين V ، ١٢٧ .

«٤» يولي الأب مبارك هذا الموضوع عناية خاصة ، فلا يمكن مناقشته إلا بالرجوع الى المعطيات اللاهوتية التي لا باع لي فيها .

«٥» V ، ١٤٣ .

«٦» أفضل كلمة « سوي » على كلمة « طبيعي » في النص الذي أوردته سابقاً للأب مبارك « V ، ١٥٠ » لأنها أوضح وأقرب الى قصده فيما أرى .

وأختم هذا الجانب من الموضوع بتلخيص هذا الكلام السمح للبارك :

كما زالت الدولة البابوية لتتوحد ايطاليـا ، يجب أن تزول اسرائيل لتتوحـد فلسطين . ان اوروبا الامبراطوريات ، عندما تنسحب من الأقطار المحتلة ينسحب معها ابناؤها المولودون هناك . أما نحن ، فوحدتنا بين الأمم تقول لمثل هؤلاء ان ابقوا في ربوعنا «١» .

موقع مربك

قدمت في الفقرة قبل السابقة ، حزيران ١٩٦٧ على أنه منعطف في الخماسية . فهل اهتدى المؤلف يوما ، الى طريق جديدة؟كلا ! وانما عاش الماضي حاضراً ، عاش الواقع الذي يسعى – نسعى كلنا – اليه ، فالبحث التزام ، والواقع ومنه « الموقع » تاريخ يستحيل تاريخية ، هذه بنسبة تقبل ذلك واستعادته تلقيه وابداعه .

ان للبحث العلمي ، كما لكل فعالية انسانية ، دلالة تبقى مضمرة الى ان يصطدم الباحث بالسؤال : علام البحث ؟ سؤال يهم المعني بالشؤون الدينية أكثر من غيره ، إذ ان الهدف ، هنا ، هو تجسيد الايمان « غرسه في مركب زماني – مكاني ما » بحيث تمارس الحياة الروحية وتستنقم .

ولا يمكنني ، على ضوء هذه الملاحظة العامة أن أفهم المجلد الثالث من الخماسية (وهو مجموعة دراسات جمعت تحت عنوان «الاسلام والحوار الاسلامي ـ المسيحي ») وما عقبه «٢» الا على أنه بحث الأب مبارك عن موقعه ، موقع لبنان من العروبة ، وهذه من العالم ، وبالنتيجة بحث عن دلالة موقع ، هو تجسدنا في العالم ، ولقاؤنا مع البشر .

المجلد ، كغيره من دراسات الخماسية ، « خلاصة» محكمة ، غنية بالمعاني ، وغنية أيضاً بالتلوينات العاطفية تمر عبر المعاني والكلمات التي تؤديها .

ولكنه مربك في العديد من صفحاته ،

لاالقارىء الأجنبي ،

ولا للقارىء اللبناني ، اذا كان قد ألف الفرنسية وألف ندوات المثقفين في ديار الغرب .

«١» V ، ١٠٧ .

«٢» بخاصة IV ١٩٩ – ٢٣١ .

فالأول واجد فيه ، بدون شك ،نظرات ونظريات لايقل غناها الفكري عن جدتها وجديتها ، بخاصة عن الاسلام وما يدور حوله من مناقشات عندهم .

أضف فيما يتعلق بالبناني ، الى جالب ماتقدم ، قراءة مشكلاته من منظورات أخرى . ولكنه مربك ، بالنسبة للعربي ، أقصد الذي ينطلق من موقع عربي خالص . ألأنه يرى في دراسات المستعربين والمستشرقين والاخصائيين الأجانب بالاسلام تطاولاً على شؤون من واجبهم احترامها وتركها لأهلها؟كلا !فقد مضى عصر الاستعمار والمبشرين عن حسن أو سوء نية ، وان كانت ذيوله مازال قائمة . وعلينا ، في كل الاحوال أن نفيد من عبر الماضي ؛ كما علينا أن نصغي الى كل محاولة علمية ــ وأياً كانت درجة علميتها ــ تسعفنا على فهم تراثنا الثقافي والديني .

واخيراً فانه من المفيد للعربي ، أياً كان ، أن يتعرف الى ذاته كما يراها الغير .

ومن ثم فان الأب مبارك يطرح باخلاص لا تقل جرأته عن وضوحه ، النقاش القديم الذي انقضى بين الاسلام والمسيحية ، فينتقد الاتجاهات المستحدثة في فهم الاسلام ورسالته ، ويقترح حلولاً جديدة للموضوع . وهذا الجانب من الموضوع ، احيل القارىء الى ما يقوله بصدده . لأن معلوماتي القليلة عنه لا تؤهلني لاستعادته «١» . ولكني ، وإن كنت ما أزال حذراً حيال ما يسمى اليوم في الغرب بالحوار الاسلامي ــ المسيحي ، لا أرى شخصياً أي حرج في ذلك . إذ علينا أن نواجه الماضي بصراحة كي نصفي ما كان له من نتائج سيئة . فالعقد التاريخية ، كما العقد النفسية (وهي من نوعها لحد بعيد) عندما تبعث الى النور – نور العقل – تتلاشى وتسقط .

والمبارك بعد يلتزم بالاسلام «٢» كما بفلسطين ، بالمسيحية كما بالعروبة ، بلبنان ، بالمارونية ؛ يحب الكل ؛ يحب وطنه ومشكلاته ويعيشها كلها كي يفهم ويسهم في الحل .

فهو يستبعد من صلاته بعضاً من صفحات الزبور ، كما يستبعد بعضاً من صفحات التوراة بسبب تفسيراتها اليهودية والمسيحية – الغربية المتحيزة ضد العرب «٣» ولأن

«١» راجع بشكل خاص III ٧٩ وما يلي .

«٢» III ، ٣٠٦ .

«٣» III ، ٣٠٤ – ٣٠٥

واحداً من هذه الاسفار يحمل بذور الصهيونية «١» . ان كلام الله ليس موجهاً الى شعب والى عرق ، بل الى البشر أجمع ، فرداً وجماعات ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

وبالمقابل ، عندما يشرح لمستمعيه من الفرنسيين صلاة الاسلام . ويتلو في خاتمة البحث أدعية ابراهيم الخليل تشعر بأن وجوده كله يصلي فتصلي معه «٢» .

ومع ذلك فثمة ارباك ، تقرؤه أحياناً بين الأسطر وتتميزه بوضوح أولاً عندما يعالج الأب مبارك ، واللبنانيين ، بعضاً من مشكلات لبنان ، ومن ثم عندما يضع مجلداته الخمسة تحت عنوان « خماسية اسلامية – مسيحية » وينقل هذا التأليف من أرض فرنسية الى أرض لبنان «٣» ؛ وأخيراً عندما يتناول مباشرة وفي مواطن عديدة كلمة عروبة فيترجها ويشرحها .

وأقول ملخصاً قبل التفصيل ان المربك هو موقع الاب مبارك ، وأقصد به المنطلق ــ الهدف الذي يتحدث منه وعنه واليه .

ويعجبك من المبارك أنه عندما يتحدث عن « الجبل الاشم » تأخذه «كأقرانه» حمية الجاهلية ، فيفاخر على طريقته الوديعة والعقلانية بدور لبنان في التاريخ . ولم لا ؟ فلبنان ناضل ودفع الثمن غالياً للحفاظ على حريته ، خلال الاحتلال العثماني . وهو ، في حدود ما أعلم ، أول من نادى بالعروبة في تاريخ العرب الحديث . وكان دوره أساسياً في الحفاظ على العربية «٤» .

ولهذا أعلق قوله ــ وهو مألوف لديهم ــ ان لبناناً جسر بين الشرق والغرب«٥» . كما أعلق تعريفه بالادب العربي المسيحي من آل اليازجي وآل البستاني الى ناصيف نصار مروراً بجبران وبشر فارس وسعيد عقل وغيرهم . لا بل من الجاهلية الى أيامنا «٦» . فهذا برسم التصدير ، ومن المفيد أن يعرف الاجانب أن المسيحيين عرب ومواطنون

«١» V ، ١٢٢ .

«٢» III ، ٢٨٩ وما يلي ، بخاصة ٣٠٧ – ٣٠٦ .

«٣» V ، ٢٢٩ .

«٤» IV ٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ : V ٢٣٨ – ٢٣٩ ، وأيضاً V ، ١٩٠ .

«٥» V ١٤١ ، وأيضاً IV ، ٧٤ ، ٢١٠ و ١٣١ ومايلي .

«٦» lv ، ٧٧ – ١٥٦ .

لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما لكل المواطنين وعليهم ، وأن تعلقهم بالعربيــة كتعلقهم بايمانهم ، كما يقول المبارك عن نفسه «١» . أما ذاك فلان الجسور كثرت حتى حرنا أيها الاصح : التونسي ينسبها لتونس ، والجزائري للجزائر ، الخ ، وفي أيامنا الايطالي لايطاليا والفرنسي لفرنسا ، الخ .

ولكني لم أدرك ما الذي يقصد الأب مبارك بـ «الحل اللبناني» يرتبط بهارتباطه بحياته » «٢» ويقدمه على أنه الحل الأمثل لمشكلة فلسطين «٣» ، وربما لمشكلــة الوحدة العربية. بالأحرى لم أتمكن من التوفيق بين تصريحاته المتعددة حول هذا الموضوع.

انه يدين حياد لبنان والأنانية اللبنانية «٤» .

يريد من العروبة أن تنقذ المجتمعات الاسلامية والمسيحية من وطأة الطائفية «٥» .

ويكتب :

« اجرؤ على الاعتقاد بأن الحفاظ على لبنان المدعو حراً تحت ستار الدفاع عن المسيحيين ، لابل الدفاع عن الوفاق بين الطوائف ، هو رياء لايطاق . فهــذه السياسة لاتحمي منهم بحاجة الى الحماية. يعني الفقراء الذين هم الأكثرية الساحقة في لبنان ، والذين يشجعون على الهجرة بحجة انتشار الروح اللبنانية «٦» .

صحيــح :

وكذلك الدعوة إلى الوحدة في التعدد . وهو جانب من الموضوع يفوت المتزمتين من أنصار الوحــدة العربية ، يرون هذه في التجانس الكامــل بين الأفراد والفئات الاجتماعيــة .

«١» lv ، ٧٢ ؛ lll ، ٢٠٦ ؛ lv ، ٢٠٦ .

«٢» lv ، ٢٠٢ .

«٣» v ، ٥ .

«٤» lv ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ .

«٥» lv ، ٢٤٢ .

«٦» v ، ٢٣٦ .

والتعدد، كما يراه الأب مبارك في واحدة من دراساته هو تعايش الاديان والثقافات والمركبات الحضارية «١» .

الاخير مطلب لا يناقش فيه انسان عاقل ، اذ ان الامة - وأياً كان نوعها وتعريفها - حصيلة لوحدات حضارية وثقافية واقتصادية وغيرها ، متمايزة وفي الوقت ذاته ، متحدة .

الثاني سأعود عليه .

أما الثالث ، أفلا يعيد الطائفية من حيث أخرجها ؟

حوار مع ابليس :

والحق ان الذي يربك الاب مبارك يربكنا كلنا ، هو وضع لبنان الدستوري القائم ، كما هو معروف ، على تسوية ، كان لها ما يسوغها ، يوم وضع « الميثاق الوطني» عام ١٩٤٣ ، وفي الماضي . أما الآن فقد مضى عهدها وانقضى ؛ إذ إن الطائفية ، أقله في عصرنا - عصر السياسة الاقتصادية والاقتصاد السياسي - مركب هجين من الشعائر الدينية والرواسب العشائرية والمصالح الاقطاعية والبورجوازية . فاذا ما استمرت أدت الى النتائج المعروفة ، بل المأساوية التي تعرفها كلنا ، وتستغلها أقلية من المتنعمين بخيرات الوطن العربي على حساب الاكثرية المعدمة ، كما يقول الاب مبارك .

ان الاب مبارك يريد ، بارادة مخلصة ، ان ينمو بلده - بلدنا كلنا - من الداخل في التفاعل مع القوى الحية العربية «٢» ، بحيث يصبح ، كما السيمفونية ، انغاماً عدة في واحد . ولهذا عندما يتحدث عن لبنان الى اللبنانيين يسعى الى تقريب القلوب فيستنهض الهمم ، يمتدح الجهود الحسنة كلها - هذا كلمة طيبة ، لذلك ثناء ، الخ - يضع الاقتراح تلو الاقتراح للتوفيق والتلاقي والتعايش والنمو ؛ يناشد ، يرجو ، يصلي ، ولا يكف لحظة واحدة عن أن يكون عقلانياً «٣» .

ولكنه يكتب في نص آخر يكاد يكون معاصراً للسابق ما يلي : « ان الطابع

«١» lv ، ٧٢ .

«٢» lv ، ٢٤١ .

«٣» lv ١٩٩ وما يلي ، المحاضرة التي ألقاها في الندوة بتاريخ ٣١/أيار ١٩٦٥ .

الاساسي الذي يجب أن يتمكن لبنان من أن يواجه معه مجموع العالم العربي هو التعددية ، في احترام التنوعات القومية والحضارية والدينية والثقافية ، اذ يؤكد استقلال كل بلد ضمن حدوده الطبيعية ، ويضمن لكل مجتمع متايز ، في قلب البلد الواحد ، الممارسة الحرة لحقوقه والتفتح تبعاً لموروثه الخاص » «١» .

هذا الكلام ، مستمـد من النص الذي استشهدت به حيث يطالب الاب مبـارك بتدريب الشعب العربي كله على المقاومة ، هذا الكلام ، ان لم أقل عنه أنه خطر ، فهو ، على الاقل ممتلىء بالالتباسات . اذ ما الحدود الطبيعية في وطن جزأه الاستعمار تبعـاً لمصالحه ، وحمى ـ يحمي ـ التجزئة بأساطيله ؟ أوليس استقلال لبنان ، في واحد من عوامله الاساسية جداً نتيجة لمعاهدة سايكس ـ بيكو ؟

وثمة تصريحات أخرى أملاها الحماس للبنان «٢» أتجاوزها لافضـل عليها الكلام الذي يقتبسه الاب مبارك من المرحوم البطريرك مكسيموس صائغ « تتطلب منا الحقيقة أن لا نتحدث عن مسلمين ويهود . بل عن عرب واسرائيليين » . «٣» يذكره ويعقب عليه قائلا : « ان مسيحيي الشرق لا يقلون صلابة عن المسلمين في مقارعتهم لاسرائيل» «٤».

ان الاب مبارك ، بالرغم من الاقوال التي تبدو متناقضة لاول وهلة عندما يقرأ الانسان بسرعة الخماسية دفعة واحدة ، ليس متناقضاً مع ذاته ، بل ان الواقع ـ اللبناني والعربي ـ الذي يعالج مشبع بالمتناقضات من كل الانواع .

ويبدو لي أن نقطة الضعف لدى الصديق الاب مبارك ، انه يستبقي المتناقضات، لا عندما يتحدث أحياناً عن لبنان ، وحسب ، بل بخاصة عندما يضع تأليفه الخماسي كله تحت عنوان « الحوار الاسلامي ـ المسيحي » فيجعل من هذا الحوار دلالة كلية ، مع أنه في أحسن الحالات ، ظاهرة من جملة ظواهر أخرى ، وفي الخماسية أمور عديدة أهم منه بكثير .

«١» IV ، ٢٤٣ « في سبيل معنى للبنان » رسالة الى مواطني من المسيحيين ، بتاريخ أيار ـ حزيران ١٩٦٩ .

«٢» IV : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، وفي مواطن أخرى .

«٣» IV ، ٦٤ .

«٤» IV ، ٦٥ .

أذكر ، بهذه المناسبة ، أني مررت صدفة ببرمانا منذ عامين ، يوم عقد فيها واحد من لقاءات الحوار هذا ، واجتمعت صدفة أيضاً باثنين من العرب المشتركين فيه . فقال لي كل منها على حدة ، ان غرضنا الوحيد هو تعريف هؤلاء بالقضية الفلسطينية علهم يقفون الى جانبنا . وهذا خير تعبير عن وجهة نظر العرب في الظرف الراهن .

أيكون أن اسهام الاب مبارك الجاد في الحوار تهرب من الموضوع الحقيقي ؟ كلا ، اذ مادام مقيماً في الغرب ، فليكن رسولنا اليه . وانما يبدو لي ــ وقد أكون مخطئاً ــ أن الاب مبارك ، ككل لبناني آخر من أقرانه ، يسير مع العروبة الى أن يشعر « ولا أدري متى يحصل هذا » بأن مسيرته قد تمس استقلال لبنان. وعندها ينكفىء على ذاته ، كما في النص الذي أوردت منذ حين

ولكن الاستقلال على درجات ؛ والترابط الوحدوي كذلك . واذا لم يربط لبنان مصيره ، على شكل أو آخر ، بالمصير العربي ، فهو قد ربطه بالصراعات الدولية على مناطق النفوذ .

ومن ثم فاني لا اعرف سياسياً عربياً ، لسياسته الحد الادنى من المعقولية ، يريد أن يكره قطراً على الانصهار في آخر ، ولذا الوحدة ، وأيا كان شكلها ، حركة شعبية تاريخية حرة ، تتحقق بنسبة وعي الشعب لها وقدرته على انجازها . وما تبقى سياسات ، مهما حسنت النية ، مشبوهة .

ومن ثم ،

قلت ان الاب مبارك يستبقي التناقضات ، لا لأنها غاية بل ليفجرها فتأتلف ، ولكن أليس الاجدى تجاوزها ، من حيث المنطلق والهدف ، الى تأليف آخر ، يضع كلا منها في موضعه . مثلا الحوار الطائفي مع الطائفيين : انه ، كالحديث مع ابليس ، المؤمن فيه مغلوب دوماً . فلنرفض الطائفية بكل بساطة . انها نقيض الايمان تخنقه ، اذ تحول الاديان الى احزاب متصارعة على الوجود ، وتعطل كل تجمع سياسي سليم .

ان الحياة الروحية ، وان كانت تتجسد ، ويجب أن تتجسد في مركب زماني ــ مكاني معين ، فهي من مستوى آخر . أما في المنظور الاجتماعي الخالص ، فالدين ظاهرة ثقافية ، لها ما للظواهر الثقافية الاخرى ، وعليها ما عليها .

واخيراً :

ان التعدد ليس تعدد الاديان، فهذا مهما أرهقنا الحديث عنه طائفية ، وانما تعدد الحضارات والثقافات والاقتصادات والسياسات الخ . لكل منها طريقه الى الوحدة .

أسماء « ما أنزل الله بها من سلطان »

يمكن لقارىء المبارك المدقق أن يرد تحفظاتي « وهي أمثلة أكثر منها تحفظات » دفعة واحدة بايراد النص التالي :

« ان الغرض من بحثي هو استخلاص افضل لهذا المفهوم « اي العروبة » قاعدة مشتركة للتفاهم بين سكان الشرق الاوسط بما فيهم اليهود. ذلك أنه اذا كان النظام الدستوري لا يمكن أن يحدد بالدين ، فلا يمكنه أن يتبع تخطيط المركبات الحضارية ؛ وانما هو في اطار الدول وحسب حيث يجعل من مجموعها الحلقات المتينة لسلسلة واحدة أو لشبكة كبيرة هي العروبة » . يقول هذا الاب مبارك ويعقب : « ان أفضل ماتريده اسرائيل كي تسوغ وجودها ، هو بلقنة « تجزئة » الشرق الاوسط بخلق دول طائفية .. على مبدأ « فرق تسد » ، اذ هذه الدويلات لا يمكن أن تكون الا توابع للدولة اليهودية ، في حين أن العرب يقترحون انشاء دول متمايزة . تحترم كل منها التعددية الداخلية فيما يتعلق بالاديان والمركبات الحضارية ، ولكن كلها تشترك في مناخ واحد هو العروبة »«١» .

ويسائلني القارىء : أليس في هذا القول تعييناً للفكرة التي ترى أن التناقضات ترتد اليها ، والتي تمهد لها في كلامك كله ؟

ولكن الاب مبارك يبدأ نصه بعبارة ، أورد كلماتها الاساسية بمنطوقها الاجنبي لانها لا تترجم : « الذي يقول أرابيته يرفض أرابيزم» ، وسوف تتضح من سياق الحديث.

وفي نص آخر سابق على الاخير بقليل « الاثنان من عام ١٩٧٠ » يكتب الاب مبارك قائلا : « الذي يقول أرابيته يتخلى عن ارابيزم » فكلمة الارابيته تترجم بدقة العروبة . الارابيزم هي بالاحرى نقل وحيد الصيغة « كذا » وغير دقيق لما يمكن أن تكونه عربية من النموذج البدوي ؛ «هذه تهدم ، بسبب لاثقافتها الجماعة التي أقامها النبي

«١» ك ٧ ، ١٣١ - ١٣٢ .

في المدينة » ، هذه تغلب عليها العرقية ، « وتلك قوة استقبال ومشاركة ، خلو من أي تمييز ، تتسع لمجموع العالم العربي ولسكانه » «١» .

وفي نص ثالث وردفي الاستدراكات ، فهويعبر عن فكر مؤلف الخماسية في صيغته الاخيرة ، ولا شعار آخر ، يعدل الاب مبارك عن كلمة عروبة ، ويبدلها بكلمة «عربة» على أن هذه الاخيرة هي التعبير الصحيح ، بعد نكبة حزيران ١٩٦٧ عن الهوية العربية بسبب اشتقاقها على غرار « غربة » ، فغربة الفلسطينيين التي ستحرر العرب شبيهة بغربة النبي التي كانت باكورة نصره .

يقول الاب مبارك بهذا الصدد: « اني لاأثير أية مشاحنة عقيمة من نوع التزمت اللغوي . ولكن عروبة التي تؤدي ، فيما أرى على الضبط ارابيزم ... قد فقدت قيمتها بسبب استعمالاتها السياسية في قولهم « العروبة فوق الجميع » ، جديرة بأن تؤدي«كذا» « المانيا فوق الجميع » .

أقرأ هذا النص وأعود بذاكرتي – انا الذي أدعي أني عاصرت الحركة العربية وعايشتها جهدالمستطاع منذ عام ١٩٣٦ الى ايامنا – أعود لاتساءل ما اذا كان أحدقال بشيء من ذلك ، فلا أعثر الا على بعض المهووسين من الصف الاخير ، وهم قلة قليلة تكونت لفترة من الزمن وزالت ؛ وكنا نهزأ منها ، او نفسر قولها على أنه وضع مصلحة الامة العربية – وخصومها يومها كثر – فوق مصلحة الاقطار .

أفلا يكون الاب مبارك ، وهو الذي يكتب بالفرنسية وبالتالي للفرنسيين قد وقع ضحية أحابيل بعض المغرضين – وما أكثرهم في الغرب – ممن شوهوا نضالنا هناك اذ حاولوا ايهام الرأي العام بأن العروبة نازية جديدة ؟

على الأرجح

وأذكر أيضاً أني دعيت باصرار ، مطلع عام ١٩٥٨ « اذا صدقت الذاكرة » الى ثلاث محاضرات القاها أحد الاخصائيين المعروفين بالمسائل العربية « وممن يستشهد بهم الاب مبارك»فقال من جملة ما قال في المحاضرة الاخيرة « وقد ألقيت وحدها في البيت اللبناني بباريس » قال متعجباً مستنكراً : الارابيزم ؟! الارابيزم ؟! جعلوا منها

«١» IV ٢٤١ – ٢٤٢ .

«٢» V ٢٦٦ – ٢٦٢ .

« ويقصد حزب البعث » فلسفة !؟ ما هي هذه الفلسفة وأين نجدها ؟ ردد العبارة مرتين أثناء المحاضرة وهو ينظر الي ، ومرة ثالثة أثناء المناقشة وجهها الي مباشرة. فأجبت بما خلاصته : افرض ياسيد اني استعدت كلمة فرانسيزم القديمة ، ورددت اليك سؤالك قائلا: مافلسفةالفرانسيزم؟ ان الامة ليست ايديولوجيا ، بل مجال نشوء الايديولوجيات. لايوجد ، ياسيد ، في لغتنا ، أي مقابل لكلمة ارابيزم . وانما انتم صغتم الكلمة على وزن جرمانيزم لغرض في نفوسكم . ان كلمة عروبة التي نستخدمها تشير الى وجودنا عرباً ، وفي حدود البداهة المطلقة أن العربي عربي كما ان الفرنسي فرنسي ..

ويسكت الرجل على مضض لادراكه أن الواقع غير مايظن .

أعود الى حديث الاب مبارك .

كان بوسعي أن أتجاوز النصوص الاخيرة ، فمن حق العربي الذي يتحدث بلغة اجنبية الى الاجانب أن يستخدم الكلمة الملائمة لغرضه . ولكن الاب مبارك يستبقي ، عندما ينقل تأليفه الى لبنان ، « مفردته » ، ويضعها بالحرف العربي الكبير على الغلاف الاخير من المجلد الخامس الذي هو ، كما يرى بحق ، أخطر أجزاء الخماسية شأناً .

ومن ثم فان الشعب العربي الذي حفظ اللغة ومن حقه وحده أن يطورها ، كما سمعنا الاب مبارك يقول،هذا الشعب من الخليج الى المحيط ، يدل على ذاته بكلمة عروبة .

والكلمة بعد جميلة ..

وحديثة ، لاعلاقة لها بالرحل الذي ناهضهم النبي وهداهم ، لا بل انها تستعيد التاريخ العربي وتحاول أن تتجاوز الصراعات القديمة .

فعلام اصرار الاب مبارك اذاً ؟

ألأنه متعدد المواقع ، يربكه التوفيق بينها !

ربما .

فتارة موقعه عربي خالص ، بجمله - شأننا كلنا - يتقمص مشاكل العرب ونكباتهم الى حد الارهاق ، وطوراً موقعه فرنسي يدفعه الى الاشادة بما يسميه الفرنسيون «عالم اللغوي » ، يعطيه الأولوية ويرى فيه ، حيث هو قائم « أي في لبنان ومصر والشمال

الافريقي » أداة توازن ونمو «١» . وتارة موقعه لبناني فالمصالحة بين فئات متعددة قضية مصيرية ، وطوراً موقعه عالمي – انساني يدفعه الى سلخ الثقافة عن اللغة والقومية «٢» .

وارباك الموقع هو هذا .

وهو ارباك العربي الذي يقرأ الحماسة .

ارباك العربي الذي أخذت الحداثة وتقليدها يقطعان جذوره . ربما أيضاً أن خصومة بعض الأوساط اللبنانية مع العروبة – وهي شبيهة لحد بعيد بخصومة النبي مع القبائل – هي التي تنعكس أحياناً في كتاباته .

أقول بشكل أعم إننا كنا نتبنى العروبة التي تبلتنا ، ومن ثم نناهضها ، كل مناعلى طريقته . أفلا يجب علينا ، إذاً ، أن نصفي ، كل ضمن مجاله ، رواسب اللاشعور – الجماعي بخاصة – كي يستقيم حوارنا مع تاريخنا ومع العالم .

أما إذا بقيت الأمور على ماهي عليه الآن ، فسوف تتعدد الانتماءات الى مالانهاية له : مرة للمتوسط «٣» وأخرى للمغرب ، وثالثة لفرعون ، ورابعة للقديم القديم ، وخامسة للحديث الحديث ، وغيرها وغيرها . أفنجعل من كل منها هوية قومية أوثقافية أو سياسية ، هذا ينتخب هذه أو ذاك تلك ؟ إذاً – والعدو في عقر الدار يمعن في التخريب والتجزئة ، يجزىء المجزأ – إذاً على الوجود السلام !

العروبة موقعاً

اللغة ، بوصفها مجموعة رموز اصطلاحية يحيل بعضها الى البعض الآخر ، حيادية ، اللسان : لا ؛ انه ملزم .

وكذلك القول ، كمثال اللسان .

«١» IV ٨٨ ؛ V ، ١٣٥ و ١٦٨ وفي مواطن أخرى .

«٢» V ، ٢٣٥ .

«٣» نجد لدى الاب مبارك صدى أيضاً لهذه الفكرة « IV ، ٧٤ » التي قال بها يوماً طه حسين ، ويبشر بها اليوم ريشه حبشي .

وكذلك أيضاً المقولات ـ ومنها العروبة ـ التي هي مفاصل اللسان للشيء شروطاً قبلية بها يستقيم ويتفرد .

فالانسان ، إذ يبدع وجوده بياناً ، لاينطق الا بلسان واحد . أما ثنائية اللغة أو ثلاثيتها ، أو تعدد اللغات ، يرى فيها بعض اللبنانيين خاصة لبلدهم تضعه ، ثقافة فوق الأقطار العربية الأخرى ، فخرافة قائمة على الالتباس بين اللغة واللسان «١» .

بحكم البداهة ان الذي يعرف لغتين خير ، في نطاق الثقافة ، من الذي يعرف واحدة ؛ والثلاث خير من الاثنتين ..

ولكن يجب أن ترتد اللغات الى واحدتها القول ، والا فاتنا البيان وعدنا الى عهد برج بابل يوم بلبل الله الألسن .

إذ ان اللغة ، كما الانسان ، كما الأمة ، كما الوجود ، وحدة تضم المتعددات ، شريطة أن لا ينمو كل من هذه لحسابه ، فتفتت الوجود الموحد وتزيله .

والعروبة ـ تلك بديهية أخرى ـ لغة العروبة ، لغة الشعب العربي ، من موقعها يتعرف الى ذاته ، الى العالم ، الى الانسان ، الى القريب ، يصبح قريباً ، الى مبدع الموجودات والألسن يحفظها .

أنا لا أفصل ، مع المبارك ، العروبة عن اللغة فأقطع الارحام ، ولا أوحد بينها فالطريق خط واحد . وانما أقول : الأمة ليست اللغة ، ولكنها ليست غيرها .

الأمة فسحة وجود ودلالته ، فيها يتجسد انسان شعراً وتاريخاً ، سياسة واقتصاداً ، ويتعين فيتفرد .

انها امكانات تحقق ؛ فيها ، بسبب هذا ، فائض عن اللغة ، كما أن في الانسان فائضاً عن الأمة واللغات .

ومفهومها كذلك ، شرط قبلي ، كما يقول الفلاسفة ، لا ينفصل عن واقعه ، وإن كان ليس اياه .

فالعروبة قسمتنا ، مكانتنا تحت الشمس ، ما قدره « بمعنى القدرة والمقدار » الله لنا ؛ انها موقعنا اليه ترتد المواقع ؛ نتخطاه إذ نرسخه ونعمقه .

«١» IV ، ٢١٦ .

والاب المبارك عدد المواقع ففاته الموقع . لم يلحظ أن الأجنبي الدخيل سلم لنا بكل الحقوق ـ حقوق الأرض والسماء ـ ما عدا واحداً : وحدتنا ، اعطيت لنا ، واليها تستند الوحدات . مع ذلك ، أفضل مواقعه على لا موقع ، المنظرين والايديولوجيين ؛ حديثهم في الفراغ .

وأقول أيضاً : الأمة حادثة ؛ حادثة لا مبدأ ؛ تتضمن مبادئها ، كما الحرية المعقولات ؛ حادثة ـ أساس . استمرارها في بعثها المستمر أحداثاً .

والجذور كذلك . اذ الانسان تاريخ يستحيل في القول عقلاً . استحالته بلسبة إحكامه وابانته .

ولهذا ،

عندما كانت العروبة لساناً مبيناً ، اتسعت لكل الثقافات ، فكتب المستعربون فيها وعنها ، كما كتبوا ، كل منهم بلغته الاولى . وكان في كتاباتهم اغناء للعربي بما هو عربي وللانسان بما هو انسان . أفيجرؤ أحدنا اليوم على ادعاء مثل ذلك ونحن نقلد اكثر بكثير مما نبدع ، نسير مع الأجنبي أشواطاً ويأبى أن يسير معنا شوطاً واحداً .

وعندما ندرك ، مرة أخرى ، مستوى القول ، عندما ننشىء انساننا ، عربياً بملء عروبته ، وانساناً بملء انسانيته ، عندما نكون ما أعطيناه ، عندها تتسع ثقافتنا لكل الثقافات ، ووجودنا لكل الوجودات ، والا فات الآخر عامل تجزيء لمصير وجد واحداً .

ذلكم هو معنى الحل الثقافي : ان نعني بالانسان؛ الاقتصادات والسياسات أبعاده؛ وهو الحامل للروحانيات ، مرماها .

* * *

أردت هذه الدراسة تعريفاً بتأليف صديقي الاب مبارك، فهل حدت عن فكره ؟

ربما .

اقتطعت ، والاقتطاع فكرة في غير موضعها .

لخصت ، والتلخيص يفقد البرهنة ترابطها وتلويناتها ؛

أسقطت أموراً ، تارة لضيق المقام، وطوراً لضيق الباع؛

ولكني قرأت ، وتلك لعبة القراءة : أن تستعيد .

سلكت طريقاً ليست عكس طريقه ، وانما غيرها .

هو علمه معلمه ماسينيون «١» أن ينتقل من اللاهوت الى الناسوت . وانا ساءلت عن الانسان العربي : ما اذا كان بعد بوسعنا ان نعثر عليه في متاهة الانتماءات .

وبعد ، لكل قارؤه . والقارىء سؤال يستدعي جواباً .

وأخيراً ، من مسألتين مسألة : اما أن نختار ، عرباً ، المصير الواحد ، واما نحن في ديار أخرى .

انما العروبة خط كلي : ضمنه الانتقاءات ـ حتى اللاوحدوية ـ حوار. خارجه.. سمه ماشئت .

«١» المجلد الاول مكرس كله له : مؤلفاته ، حياته، ماكتب عنه وشؤون أخرى.

الدولة الصهيونية
والموقف الثابت من السلام

الدكتور حسام الخطيب

يحسن بالباحث في بادىء الامر أن يقيم تفريقاً دقيقاً بين الصيغة المطروحة حالياً في بورصة السياسة الدولية ، وهي التسوية السياسية أو السلمية ، وبين المفهوم الأعم السلام . ويمكن القول إن التسوية السلمية على النحو الذي يناقش اليوم ليست مرادفة للسلام وانما هي جانب من جوانب مفهوم السلام . ومن هنا يرجى أن لا ينصرف الذهن الى التسوية السلمية كلما جرى الحديث عن السلام في هذا البحث ، كما انه من الطبيعي لفت النظر الى ان مصطلح السلام ، كغيره من المصطلحات التي يجري تداولها في عالم السياسة

---

(١) يعتبر هذا المقال متمماً لمقال سابق للمؤلف بعنوان « اسرائيل والسلام» كتب قبل حرب تشرين الاول ، ومن المقرر أن يظهر في عدد كانون الاول ١٩٧٣ من شؤون فلسطينية .

والتي تتعرض للشد والجذب الفكريين من هذا الطرف او ذاك ، اصبح ذا معنى مطاط متفاوت ، حتى انه في احيان كثيرة يأخذ معنى معاكساً لما وضع له أصلا . فمفهوم السلام الاسرائيلي مثلا ، كما يتضح من تصريحات القادة الاسرائيليين هو تطوير حديث لمفهوم السلام الروماني Pax Romana ، أي السلام الذي يعني رفع علم الدولة الاقوى على منطقة بأكلها وتحقيق سيطرة كاملة تبيح حركة تجارية اقتصادية سياسية عسكرية غير منقوصة لصالح الطرف الاقوى . ومن الواضح أن هذا المفهوم للسلام يتناقض تناقضاً صارخاً مع المفهوم الطبيعي للسلام الذي يقوم بداهة على مبادىء من نوع التعايش والتفاهم والعدل ؛ وهذا هو المقصود بالسلام كلما ورد هذا المصطلح في البحث الحالي .

ولاشك ان المفهوم الاسرائيلي للسلام ، الذي لايعني شيئاً سوى السيطرة الكاملة على المنطقة العربية ، مفهوم مفضوح محلياً وعالمياً وتجري يوماً بعد يوم ادانته من قبل حركات التحرر العالمي وبلدان المنظومة الاشتراكية وسائر أقطار آسية وافريقية والعالم الثالث . ولكن هناك فارقاً بين ماتطمح اليه أية دولة وبين ماتستطيع تحقيقه فعلا . وقد طرحت حرب تشرين ، بنتائجها الهامة جداً هذه النقطة أكثر من أي وقت مضى ذلك أنه من خلال الانتصارات الاسرائيلية المذهلة في حرب حزيران ١٩٦٧ وماتبعها من فنون الحرب النفسية تخيل الكثير من الناس في المنطقة العربية وفي العالم ان الشقة بين ماتريده دولة كاسرائيل وماتستطيع ان تحققه ليست الا شقة ضيقة جداً ولذلك كانت المناقشات تنصب على نوايا إسرائيل التوسعية فحسب . ولكن وقائع حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ونتائجها الحالية والمرتقبة تحتم علينا ان نتحدث دائماً عن النوايا والامكانات في وقت واحد إذا أردنا للصورة التي نقدمها أن تكون واقعية ومتوازنة ، وان كان من الضروري أن نضع في الذهن أنه في حالة الدولة الصهيونية يشكل الارتباط بالامبريالية ومخططاتها حالة فريدة من الامكانات المتجددة التي توجب على الطرف العربي ان يكون دائم الحذر وأن لا يركن الى أية نتائج وقتية ذات طابع ايجابي ؛ ذلك أن امكانيات الدولة الصهيونية متأثرة تأثراً بالغاً بموقف الامبريالية العالمية ، ولعل الوقائع اليومية لحرب تشرين الاول التي لم تجف دماء ضحاياها بعد تشكل أكبر دليل على التاوج الشديد في مصادر القوة المتاحة للعدو الصهيوني من خلال تبعيته للقوة الامبريالية الرئيسية في العالم .

طبيعة الخطر الاسرائيلي على السلام

وان اسوأ ما في الخطر الصهيوني على السلام انه متجدد ومستمر ، ذلك لانه

ليس وليد ظرف تاريخي عابر أو مرحلة تطور اجتماعي في حياة الامة كما هو شأن كثير من الحالات التاريخية التي حملت تهديدا السلام . ومن هنا كانت الدعوة الى اعتبار ما صنعه الاسرائيليون من توسع حتى اليوم امرا واقعا fait accompli ومطالبة العرب بالانطلاق من هذا الامر الواقع لتحقيق نوع من انواع التسويات السلمية دعوة غير واقعية وغير مقبولة لانها تنطوي على تجاهل استمرارية الخطر القائمة في صميم الكيان الصهيوني سواء من حيث ايديولوجيته أو من حيث سياسته العامة او من حيث ارتباطه بالامبريالية أو من حيث مصلحته العملية . ان تفحص هذه الجوانب المختلفة يؤدي بالمرء الى اقتناع تام بان هذا الكيان والسلم المحلي والعالمي يقفان على طرفي نقيض .

آ - التناقض بين الايديولوجية الصهيونية ومفهوم السلام . (العامل الايديولوجي) .

تعتبر الصهيونية نفسها ايديولوجية قومية تقوم على الزعم بأن اليهود شعب واحد له ماضيه الواحد وله هدف عام واحد ومصير واحد على الرغم من تشتت شمله عبر القرون . ومنذ البدء قدمت الصهيونية نفسها على انها حل للمسألة اليهودية ، ودعت يهود العالم جميعاً الى الهجرة الى (ارض المعاد) لكي يستأنفوا حياتهم القومية التي انقطعت بسبب الشتات diaspora . وقد صاحبت هذه الدعوة نزعة شوفينية اتصفت بالتمييز والاستعلاء وانكار حقوق الآخرين . وكانت نظرة الصهيونية الى العرب الفلسطينيين بوجه خاص اشد عنصرية من نظرة الاميركيين الى الهنود الحمر أو الروديسيين الى الافريقيين . ولقد التقت آراء الزعماء المفكرين الصهيونيين حول مسألة التخلص من العرب ، ولكنهم تفاوتوا أحياناً في انتقاء الوسيلة ، فعند تيودور هرتزل ان الابادة الجماعية هي الحل ، وعند زانغويل ان ترحيل عرب فلسطين عن ديارهم هو أكثر رقة من تكتيك زميله وايزمن الهادف « الى خنقهم ببطء «to snow them down»

ان النزعة الشوفينية والنزعة العسكرية العدوانية لاتنفصلان ، وقد كانتا لب الحركة النازية في ثلاثينات هذا القرن . وينسى الناس عادة ان السبق في هذه النزعة يرجع الى الفكر الصهيوني الذي سبق النازية في الزمن وفاقها في درجة الوضوح .

وتكشف كتابات تيودور هرتزل انه كان يفضل لو تقوم الدولة الصهيونية بقوة السلاح كما تكشف عن تمسك شديد بالعنف والقوة ، وتشير هذه الكتابات الى تصور

مزدوج للطرفين الصهيوني والعربي منذ اواخر القرن التاسع عشر ، فالطرف الصهيوني سيعتمد على السلاح والعنف الجماعي المنظم وسيضم جيشاً من « الرجال البائسين الذين هم أفضل الغزاة » . أما الطرف العربي فسيكون قطيعاً من الوحوش علاجه الوحيد هو الابادة الجماعية :

« فمثلا اذا وجدنا في موقف يتطلب منا تطهير بلد من الوحوش الضارية ، طبعاً لن نحمل القوس والرمح ونذهب فرادى في أثر الدببة كما كان الاسلوب في القرن الخامس في اوربة ، بل سننظم حملة صيد جماعية ضخمة ومجهزة ، ونجمع الحيوانات ونرمي وسطها قنبلة شديدة الانفجار (١) .

وتنبع خطورة هذا الكلام من ان هرتزل كان يعنيه حرفياً ، وفيما بعد أثبت الصهيونيون انهم حرفيون في فهم أقوال مؤسس الحركة الصهيونية ، ولم تكن مذابح دير ياسين وقبية ونحالين وغيرها سوى حفلات صيد كبيرة سيقت اليها القطعان العربية على طريقة هرتزل. وقد تحدر التعلق المرضي بالعنف من هرتزل الى قادة الفكر الصهيوني سواء منهم من وصف بالاعتدال أو بالتطرف وقد ذهب فلاديمير جابوتنسكي الى حد تقديس السيف جنباً الى جنب مع التوراة وكان يعنيه تماما ان يغرس هذه الافكار في نفوس الطلبة والشبيبة الناشئة ، وقد جاء في كلمة له وجهها الى الطلبة اليهود في فيينه :

« عليكم أن تحتفظوا بالسيف لان الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً المانياً بل هو ملك لاجدادنا الاوائل . ان التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء » (٢)

أما مناحيم بيغن : زعيم منظمة (ارغون) التي تحولت الى حزب « حيروت » الحالي فهو مشهور بعبارته : «أنا احارب اذا انا موجود» وهو يذكر في كتابه «الثورة»

«١» انظر ص ٤٢ — ٤٣ من :

Herzl , Theodore , L etat Julf , L Herne , 1969

«٢» انظر ، العابد ابراهيم : العنف والسلام : دراسة في الاستراتيجية الاسرائيلية منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١١ ، والنص منسوب الى كتاب شختمان : مقاتل ونبي : قصة فلاديمير جابوتنسكي ، السنوات الاخيرة ، نيويورك ١٩٦١ .

صراحة ان الممارسات الارهابية ضد المدنيين العرب اشبعت «رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود للانتقام » .

ان مثل هذه الايديولوجية القائمة على الشوفينية والهوس العدواني هي بطبيعة الحال مناهضة للسلام . ولكن الخداع الايديولوجي الصهيوني كان يقدم دائماً للجماهير اليهودية المضطهدة اللون الفكري الذي يمكن ان يستهويها وذلك بصرف النظر عن تعبيره الحقيقي عن الفكر الصهيوني ، وقد رأت الصهيونية منذ القديم ان الاشتراكية هي عدوها الاول ولذلك حاولت ان تحاربها بطرق عديدة، وأن تقدم نفسها بديلا عنها امام الجماهير اليهودية المضطهدة وأن تشوه دعوتها الى السلام وذلك بتقديم مفهوم صهيوني خاص للسلام، «١» .

وقد يبدو الكلام على التناقض بين الاشتراكية والصهيونية نوعاً من الاستطراد هنا ، ولكن شيئاً من التمعن بالامر يفضي بالمرء الى استنتاج واضح وهو ان الحركة الصهيونية خلقت لمحاربة الاشتراكية أي لمحاربة السلم والتقدم ، وانها من الناحية الايديولوجية تتناقض مع مفهوم السلم وتحاربه بل تزدريه .

ب ــ التناقض بين طبيعة الدولة الصهيونية وبين العناصر التي يقوم عليها مبدأ السلام:

من الطبيعي ان مبدأ السلام لا بد من أن يستند الى قاعدة متينة من الحق والعدالة والشعور بالمشاركة الانسانية ، والا كان السلام مجرد هدنة بين حربين. واذا قبلنا هذا التفسير البسيط للسلام وقسناه بالعناصر التي تقوم عليها اسرائيل فسرعان ما نستنتج ان هذه الدولة بطبيعتها مهيأة لأن تكون ضد السلام . وبما ان هذا الاتهام ليس بسيطاً على الاطلاق وبما انه مقصود حرفياً ، لذلك سوف تجري مناقشته بمنتهى الدقة .

ان دولة اسرائيل ليست دولة تقليدية ، فهي لم تنشأ بالتدرج ضمن حدود معينة وانما اتت تجسيداً لعمل ايديولوجي وسياسي ولذلك فهي تعكس هذا العمل تماماً . وتصر الطبقة الحاكمة الاسرائيلية على الطبيعة الصهيونية لاسرائيل وترفض اي فهم اخر لها . ان هذه المسألة شديدة الاهمية بالنسبة لكل مفكر يساري أو تقدمي لانها تتطلب منه

«١» انظر : ايفانوف يوري : احذروا الصهيونية . منشورات وكالة نوفوستي ١٩٦٩ الترجمة العربية ، ص ٧٣ – ٧٤ .

أن ينظر الى اسرائيل نظرة مختلفة عن نظرته الى أي بلد اخر في العالم ، وأن لايتوقع منها تطورات اجتماعية وسياسية شبيهة بما يحدث في المجتمعات العادية . وهـذا هو بن غوريون أكبر مهندسي الدولة الصهيونية يوضح خطورة العلاقة الصهيونية ـ الاسرائيلية :

« ان اسرائيل ليست دولة لمواطنيها فحسب ... بل للشعب اليهودي كله ولكل يهودي اينما كان يختار ان يعيش في وطنه ويفضل استقلال اسرائيل على الحياة في المنفى «١» .

وكذلك :

« ولكن ميزة اسرائيل هذه هي مصدر تقييد لها أيضاً ، فسيادة الدولة محصورة ضمن حدودها وتطبق فقط على مواطنيها ، على حين لا يزال ٨٠ ٪ من الشعب اليهودي يعيشون ولا أحد يدري : إلام ؟ خارج حدودها .. »

وكذلك :

« لذلك لم تعتبر المنظمة الصهيونية العالمية عديمة النفع حين قامت اسرائيل، بل على عكس ذلك ، زادت زيادة كبرى تبعاتها ومهامها . ان الدولة والحركة الصهيونية تتمم الواحدة منها الاخرى وتحتاج الواحدة منها إلى الاخرى، وبجهدهما المشترك تستطيعان بل ويجب أن تستطيعا تنشيط الشعب اليهودي ودفعه كي يحقق مثال خلاصه «٢» » .

واذا اكتفينا بهذا الوصف الذي أعطاه بن غوريون لدولة اسرائيل يمكن أن نستنتج بسهولة الحقائق التالية :

١ ـ اسرائيل دولة غير تقليدية لاتنحصر بحدودها ، انما تفترض ان مواطنيها « اليهود » منتشرون في جميع انحاء العالم ، وحتى لو كان هؤلاء اليهود غير موالين لاسرائيل وكثيرون منهم ليس لهم علاقة بالصهيونية وفيهم من يدينها حقاً ، فان اسرائيل

---

(١) The Jewish Agency Digest , 24 August 1951 Vol . 3 , № 49 , P , 1890 .

(٢) المصدر السابق ، ١٦ ايار ١٩٥٢ ، المجلد الرابع ، رقم ٣٠ ، ص ١٠٦١ والنصان منقولان عن ص ٩٩ ـ ١٠٠ من « السلام المراوغ » لجون دايفز ، ترجمة محمود فلاحة ، دمشق .

لن تتركهم بسلام بل ستجعلهم عرضة للعداوة المغرضة التي من شأنها ان تشعرهم بانهم غرباء في أوطانهم ، وفي هذا طبعاً افتئات على حقوق الدول التي يشكلون جزءاً من مواطنيها بل تدخل في شؤون الدول الاخرى . الا يكفي ذلك ليشكل أكبر تهديد للسلام بين الدول ؟

٢ – ان اسرائيل لم تستوعب سوى جزء من يهود العالم « حوالي ربعهم حتى اليوم » وقد احتلت حتى الآن جميع أراضي فلسطين وأراضي ثلاث دول عربية أخرى مجاورة . الآن لنفترض ان اسرائيل اصابت نجاحاً جديداً في استقدام مهاجرين يهود بكميات ضخمة ، اين سيقيم هؤلاء ، وهل يمكن ان تكتفي الدولة الصهيونية بحدودها الحالية . واي سلام يمكن ان يسود في منطقة محدودة الموارد يفيد اليها كل عام مائة الف مهاجر مشبعون بروح العداء لأهالي المنطقة وبنزعة شوفينية عدوانية ؟

٣ – ان الايديولوجية الصهيونية التي تسود اسرائيل تقوم على أعتبار كل المنطقة الممتدة بين النيل والفرات « أرض اسرائيل » . وتعتبر ما حققته اسرائيل حتى اليوم من فتوحات ليس الا اسرائيل الصغرى بل ان الاراضي المحتلة حتى اليوم لم تستكمل حدود اسرائيل الصغرى وينقصها حسب المخططات الصهيونية جنوب لبنان ومنابع نهر الاردن والهضاب الشرقية المحاذية لنهر الأردن ومنطقة حوران في سورية . ان هذا التحديد يتكرر اكثر من مرة في المراجع الصهيونية وفي حزيران سنة ١٩١٨ ، نشرت جريدة « فلسطين » اليهودية مقالة مسهبة كتبها دافيد بن غوريون « أول رئيس وزراء اسرائيلي » واسحق بن زفي « ثاني رئيس دولة يهودي » تحت عنوان « حدود فلسطين ومساحتها » جاء فيه : « يحد فلسطين غرباً البحر الابيض المتوسط ، وفي الشمال جبل لبنان ، وفي الشرق الصحراء السورية « صحراء الشام » ، وفي الجنوب شبه جزيرة سيناء ، هذه هي الحدود التي حددتها الطبيعة لفلسطين » .

وبعد هذا التحديد يذكر الكاتبان بالتسمية المناطق التي تتضمنها كلمة « فلسطين »:

« وبكلمات اخرى تضم فلسطين النقب برمته ، واليهودية ، والسامرة ، والجليل وسنجق حوران ، وسنجق الكرك «بما في ذلك معان والعقبة» وجزءاً من سنجق دمشق أي اقضية القنيطرة ووادي عنجر وحاصبيا » «١» .

«١» انظر : الكيالي ، عبد الوهاب : المطامع الصهيونية التوسعية ، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٧٨ – ٧٩ .

والجدير بالذكر ان هذه الحدود لا تختلف كثيراً عن الحدود التي تضمنتها خريطة «الدولة الصهيونية» التي قدمها الوفد الصهيوني الى مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ (٢). وهي حتى الآن الخريطة الرسمية للايديولوجية الصهيونية .

ولم يصدر في الفكر الصهيوني ما يشير الى أي تراجع عنها ، بل على العكس هناك براهين في تصرفات دولة اسرائيل وتصريحات قادتها تشير بشكل واضح الى انها الخريطة المعتمدة حتى اليوم .

ويزيد من خطورة الأمر أن دولة اسرائيل حتى اليوم لم تشر الى حدودها في أي بيان رسمي ، وعند انشاء الدولة سنة ١٩٤٨ ثارت مناقشات كبيرة حول حدود الدولة وتقرر الاكتفاء بدستور مؤقت بدلا من الدستور الدائم لكي تتجنب الدولة وضع نفسها ضمن اطر جغرافية وسياسية محددة .

ان هذا الواقع بحد ذاته يشكل عقبة نوعية في طريق اية تسوية سلمية في الشرق الاوسط لان اسرائيل لاتستطيع من الناحية الايديولوجية — على الأقل — أن تلتزم بحدود معينة وقد سبق لاسرائيل ان واجهت مشكلة مماثلة ولكن على درجة مصغرة عند توقيع اتفاقيات الهدنة مع الدول العربية اثر حرب ٩٤٨ ، إذ أبدى كثير من الصهيونيين انزعاجهم بحجة ان توقيع مثل هذه الاتفاقيات قد يؤدي الى حصر اسرائيل في بقعة محددة «٢» .

هل يحتاج المرء بعد هذه الشواهد الى التذكير بالتناقض الصارخ بين مفهوم الدولة الصهيونية وابسط مفهومات السلام . ان الحق هنا ينظر اليه من طرف واحد ، وهو حق الطبقة الحاكمة الاسرائيلية وزعماء الصهيونية العالمية في حشد يهود العالم في فلسطين وتسخيرهم للمآرب والاطماع الامبريالية . أما العدالة فهي غير واردة هنا لان التوسع

«١» انظر تفاصيل الخريطة في ص ١٢ — ١٣ من : هداوي سامي : ملف القضية الفلسطينية ، تحرير د . يوسف الصايغ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث بيروت ١٩٦٨ .

«٢» رزوق د . أسعد : اسرائيل الكبرى : دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٥٤١ .

يتم على حساب مجتمعات بشرية لايحسب لها حساب وكأنها غير موجودة على الاطلاق . أما المشاركة الانسانية فهي كلمة غير موجودة في قاموس الصهيونية على الاطلاق ، فالمهم أن تقوم اسرائيل التاريخية ولو على حساب المصير الانساني كله .

ج ـ التناقض بين ارتباطات اسرائيل الامبريالية وبين متطلبات السلام .

ليس الارتباط بين اسرائيل والامبريالية وليد المصادفة أو المصلحة المؤقتة بل هو ارتباط عضوي ولد مع ولادة الحركة الصهيونية ، وتطور بحسب التطور التاريخي للحركة الاستعمارية ، ففي القرن التاسع عشر غلب على افكار رواد الحركة الصهيونية ومفكريها ما كان سائداً في عصرهم من النزعات الكولونيالية ، وكان المثال الذي حذوا حذوه هو الحركات الاستعمارية الغربية المنبثقة عن هذه النزعات . وقد استعمل موزس هس كلمة « الكولونيالية » عنواناً لكتابه حول الارض المقدسة«١» الذي يعتبر من اقدم الكتب الصهيونية الاستعمارية ثم ان هرتزل لم يجد سوى « رودس »«٢» اكبر ممثل للاستعمار في عصره ، ليكتب اليه رسالة في ١٩٠٢/١/١١ قال فيها :

« ان ما أبغيه في فلسطين هو أمر استعماري » . ورجا فيه أن يعلن ان مايسعى له هرتزل « صحيح قابل للتطبيق »«٣» كما ان كتابه « الدولة اليهودية » يمتليء بأفكار التفوق الاوربي وفيه تأكيد مستمر على ولاء الدولة الصهيونية لأوربة ورسالتها البيضاء في وجه الوحشية الاسيوية : « سنشكل هناك حصناً لأوربة ضد اسية ، وموقعاً متقدماً للحضارة ضد البربرية ، وسوف نظل ـ باعتبارنا دولة محايدة « بالنسبة لدول أوربة » ـ على اتصال بكل أوربة التي يجب عليها أن تضمن وجودنا »«٤» .

«١» Hess , Mois , Projet de colonisation de la terre Sainte , 1867 .

«٢» سميت روديسيا باسمه ، وهي من اشرس معاقل الاستعمار والتمييز العنصري في هذا العصر .

«٣» انظر هرتزل : اليوميات الكاملة ، نيويورك ، ١٩٦٠ ص ١١٩٤ .

«٤» Herzl , Theodore : Complete Diaries , NewYork , 1960 Herzl , L'Etat Juif , p 45

أما حاييم وايزمن فلم يجد خيراً من الاستعمار الفرنسي في تونس مثلا ليشبه به الحركة الصهيونية ودورها في فلسطين فقال :

« ان مايستطيع الفرنسيون القيام به في تونس يستطيع اليهود ان يقوموا به في فلسطين(١) » :

كما لم يجد بن غوريون خيراً من الغزاة الذين استعمروا المكسيك وهم « الكونكويستادروس » ليشبه بهم دور الصهيونية في فلسطين«٢» ،

« ان المرء يستطيع أن يجد في الفكر الصهيوني احتذاء لجميع اشكال الفكر الاستعماري ومراحله . أما من الناحية العملية فقد كان هناك ارتباط مستمر بين الحركة الصهيونية والدول الاستعمارية ، وقد جرب هرتزل زعيم الصهيونية الاول حظه مع المانيا القيصرية ثم مع بريطانيا وكان يأمل الحصول على « موافقة رسمية تختصر طرقاً طويلة » . وأخيراً استطاع عقد صفقة مع بريطانيا قبل الحرب العالمية الاولى ، وفي منتصف سنوات الحرب « ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧ » استطاعت الصهيونية بقيادة خليفته حاييم وايزمن أن تحصل على اول وثيقة دولية استعمارية تؤيد ادعاءات «الوطن القومي اليهودي » وهي تصريح بلفور . وبصرف النظر عن المغالطات التاريخية والقانونية التي بنيت عليها هذه الوثيقة فقد استطاع الصهيونيون بتأييد الدول الاستعمارية – ادخال هذه الوثيقة في صك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي أقرته « عصبة الأمم » وكذلك جعلوه أساساً للحكم البريطاني لفلسطين وقد التزمت به الادارة الاستعمارية وبعد حوالي ثلاثين سنة من التهيئة والاعداد استطاعت بريطانيا أن تسلم فلسطين للأجهزة الصهيونية التي كانت تمثل دولة ضمن دولة في حين أن عرب فلسطين لم يسمح لهم بممارسة أي نوع من أنواع النشاط السياسي تحت ظل الانتداب .

وفي الوقت نفسه كان مركز الثقل الامبريالي في العالم قد انتقل الى الولايات المتحدة الامريكية وكان طبيعياً ان ينتقل كذلك مركز ثقل التحالف الصهيوني الامبريالي الى واشنطن بدلاً من لندن ، وذلك دون ان تنقطع الصلات بالمراكز الامبريالية الاخرى . وخلال ربع القرن الماضي تدفقت سيول الاسلحة والمساعدات على اسرائيل من مختلف الدول

«١» Wiezmann Chaim , Trial And Error , London , 1950 , P 244 .

«٢» Ben Gorion , David , Rebirth and Destiny of Israel New York , 1954 , pq .

الامبريالية . وقد بلغ مجموع المساعدات والهبات والقروض التي تلقتها اسرائيل منذ نشوئها حتى اليوم حوالي ١١ مليار دولار ، وهي تتلقى بانتظام من الولايات المتحدة الاميركية وحدها مايقارب «٥٠٠» مليون دولار سنويا . وفي خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ بلغت المساعدات الاميركية المعلنة لاسرائيل ماقيمته الفين ومئتي مليون دولار . أما المساعدات الاقتصادية والتبرعات المالية المباشرة فقد تجاوز هذا الرقم . وبالمقابل تقوم اسرائيل بخدمات جلى للامبريالية ، فهي تشكل موقعاً أمامياً للاستعمار و «حاملة طائرات لاتغرق » كما قال وزير دفاع اميركي سابق ، وهي تشكل تهديداً مستمراً للحركة الثورية العربية والشعب العربي المتطلع للخلاص من نير الاستعمار ، وتشكل كذلك حاجزاً ضد الشيوعية في المنطقة ، وتشكل أيضاً عائقاً للتطور الاجتماعي في المنطقة العربيـة ، كما تحاول ان تكون مركزاً للاحتكارات الاميركية وجسراً يمتد منه النفوذ الامبريالي الاقتصادي والسياسي الى سائر انحاء آسيا وافريقيا .

ازاء هذا الواقع هل يمكن ان تكون اسرائيل مع السلام ؟ أليس السلام يتنافى تنافياً تاما مع مهمتها الامبريالية ؟ أو ليست الامبريالية هي التي تجعل منها قاعدة للعدوان ومستودعاً ضخماً للاسلحة ؟ أو ليست المغامرات العدوانية جزءاً لايتجزأ من الوجود الاسرائيلي . لقد كان هذا بالضبط ماعناه البلاغ الرسمي السوفياتي الذي أذيع يوم اندلاع الحرب في ٥ حزيران ١٩٦٧ .

« وهكذا اندلع لهيب القتال في الشرق الاوسط ، بسبب السياسة المغامرة لبلد واحد وهو اسرائيل التي تشجعها الاعمال السرية والعلنية لاوساط امبرياليـة معينة . وقد دفع الى هذه الاعمال الخطرة زعماء اسرائيل الذين يزعمون دائماً انهم يقاتلون من اجل وجود اسرائيل كدولة . على ان القادر على نسف اسس تطور وجود اسرائيل نفسها هو بالذات سياسة التهور والمغامرة التي تتبعها اليوم الاوساط الحاكمة فيها «١» .

وليس المقصود من ايراد هذا النص هو التأكيد على ادانة الاتحاد السوفياتي للعدوان الاسرائيلي كما يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى . فهذه الادانة تشكل جزءاً لا يتجزأ من

«١» أنظر النص في : جبجيك ، يان وفالشنوفسكي تاديوش :

خفايا عدوان حزيران ١٩٦٧ ، ترجمة محمود فلاحة ، منشورات ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي بجيش التحرير الفلسطيني ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦ .

السياسة الرسمية المعلنة للدولة السوفياتية والمعسكر الاشتراكي وانما المقصود هنا لفت النظر الى ان المغامرات العدوانية الاسرائيلية هي شيء في طبيعة اسرائيل ولكنها في الوقت نفسه هي « القادرة على نسف أسس تطور وجود اسرائيل نفسها » .

واذا كانت المغامرة العدوانية الاسرائيلية من التمادي بحيث تشكل تهديداً للوجود الاسرائيلي نفسه فأحرى بها قبل ذلك ان تشكل تهديداً صارخاً للسلام وان تتم من خلال انتهاك جميع مقوماته .

ب ـ عناصر الموقف الاسرائيلي السلبي من مساعي السلام

حتى الآن توصلت المناقشات السابقة في هذا البحث الى اثبات ان اسرائيل مناهضة لفكرة السلام من حيث المبدأ وبنتيجة طبيعة تكوينها وعلاقاتها الصهيونية والامبريالية . ولكن هذه المناقشات تظل ذات طابع نظري في معظمها وتحتاج الى تفحص في ضوء المواقف العملية النوعية من محاولات السلام . ومن المعروف ان المواقف العملية للدول تتصف بالدينامية والتغير وتختلف عن السكونية النسبية للمبادىء والايديولوجيا . ولكن في حالة اسرائيل بالذات يبدو الانسجام تاما بين النظرية والتطبيق حتى الان ، ربما لان الامبريالية التي خلقت النظرية الصهيونية هي نفسها التي خلقت الدولة وما زالت تتعهدها بالرعاية والحماية . والتجسيد الاسرائيلي للصهيونية ما زال حتى اليوم صارخاً ، ومن هنا كان الموقف الاسرائيلي العملي من مشروعات التسوية السلمية التي ما زالت تطرح في منطقة الشرق الاوسط مستمرا ومنسجما مع الطبيعة العدوانية للصهيونية . على انه من الضروري التنبيه منذ البدء الى ان مشروعات التسوية السلمية ـ كما عرفت خلال السنوات الأخيرة ـ ليست هي الصورة الوحيدة التي تعبر عن مفهوم السلام ، والموقف المباشر من اي مشروع سلمي لا يمكن ان يعتبر تماما تجسيدا للرغبة في السلام أو عدم الرغبة فيه .

فهناك شروط غير مباشرة للسلام تتمثل في سلوكية الدول وتصرفاتها وطبيعة تطلعاتها وطبيعة علاقاتها مع الدول الاخرى . ومن هذه الزاوية يمكن التأكيد ـ اعتمادا على المناقشات السابقة في هذا البحث ـ ان مجمل سلوك الدولة الصهيونية خلال ربع القرن الماضي كان مناقضا على طول الخط لفكرة السلام ، وان ركام المشكلات والضغائن والنزاعات التي تولدت من الموقف الاسرائيلي خلقت حالة شبه مستعصية ازاء السلام .

ولن يغير من طبيعة هذه الحالة اي موقف اسرائيلي ايجابي مباشر من مشروعات التسوية السلمية (١)

ومما يلفت نظر الباحث بشكل صارخ أن عدد مشروعات التسوية السلمية التي انبثقت سواء من داخل المنطقة أو من خارجها خلال سنوات (١٩٤٨ — ١٩٧٣) يفوق عدد السنوات التي تؤلف عمر الدولة الصهيونية . ويميل الناس عادة لتناسي هذه الحقيقة نظرا لتعاقب هذه المشروعات وبروز مشروعات جديدة دائما قبل ان تستنفد المشروعات المطروحة (٢)ويبلغ معدل هذه المشروعات مشروعا واحداً وثلث المشروع في كل عام (٣٣ مشروعاً رئيسياً)

ويتضح من استعراض تطورات هذه المشروعات أنها جميعاً وبدون استثناء انتهت بسبب تعنت الموقف الاسرائيلي وتمسكه بنقطة معينة (غالباً المفاوضات المباشرة) والاصرار عليها بشكل يثير الطرف الآخر ، واخيراً اختلاق عذر للانسحاب من الموقف ، وهكذا .

(عناصر الموقف الاسرائيلي من التسوية) :

ويتضح من استعراض الموقف الاسرائيلي من مشروعات التسوية خصائص مشتركة أهمها :

١ — رفض مباشر لأية مقترحات تبنى على أساس مقررات هيئة الأمم المتحدة .

٢ — اصرار كامل على اعتبار القدس مدينة اسرائيلية وعاصمة للدولة خلافاً للمقررات المتكررة للأمم المتحدة بتدويل القدس .

٣ — اصرار على الاحتفاظ بقسم كبير من الأراضي المحتلة اثر حرب ١٩٦٧ . ولا سيما الجولان وقطاع غزة وشرم الشيخ وجزء من سيناء .

---

(١) — من اجل مذاكرات موضوع البحث الحالي « اسرائيل والسلام » لا « اسرائيل ومشروعات التسوية السلمية » والتسويات السلمية منظور اليها هنا باعتبارها جزءا من الموقف العام ازاء السلام لا مرادفا له .

(٢) — من اجل عرض واف لمشروعات التسوية انظر : القاضي ،ليلى سليم : تقرير حول مشاريع التسويات السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي (١٩٤٨ — ١٩٧٢) شؤون فلسطينية ،منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ،ع ٢٢ حزيران ١٩٧٣ .

٤ – رفض فكرة الضمانات الدولية ورفض مشاركة أية قوات دولية في حفظ الأمن على الحدود سواء أكانت تحت اشراف هيئة الامم المتحدة أو الدول الكبرى «١» .

٥ – اعتبار نهر الاردن هو الحد الأمن لاسرائيل وعدم السماح لأية قوات عسكرية عربية ان تعبره . أما الحدود النهائية بين اسرائيل والاردن فهي خاضعة للمفاوضات « بشرط ابقاء الضفة الغربية مجردة من السلاح » .

إن هذه الشروط هي من قبيل التعجيز والاغلاق المسبق لأي باب من أبواب التفاوض لأنها تعني أن اسرائيل لا تريد اعادة الارض المحتلة مقابل الاعتراف العربي – كما يظن بعض المتفائلين – ولكنها باختصار تريد الارض والاعتراف معاً ، أي تريد السلام على أساس من الاقرار بشرعية انتصاراتها العسكرية ، وليس هذا الكلام من قبيل الاستنتاج فهناك عشرات التصريحات الاسرائيلية التي تؤكد هذه الفكرة ومنها مثلا التصريح التالي الذي أدلى به حاييم بارليف – رئيس اركان الجيش الاسرائيلي سنة ١٩٦٨ الى صحيفة « معاريف » الاسرائيلية بتاريخ ١٩/٢/١٩٦٨ والذي اوضح أن هدف العمليات العسكرية :

« فرض ظروف حالية للتسوية مع الدول العربية ... نستطيع ان نفرض على الاردن التسوية التي نريد إذا استعملنا قواتنا العسكرية استعمالاً صحيحاً ، وبهذه الطريقة نجبر « حسين » على أن يسعى الينا ملتمساً منا توقيع اتفاق معه . ونستطيع ان نفرض تسوية سلمية اذا نحن اكرهناه على قبولها . ولن نستطيع ذلك الا اذا كنا على الجانب الآخر من الحدود » .

أما بشأن قرارات هيئة الامم المتحدة فان أقوال الجنرال دايان تشكل موقفاً فريداً من نوعه في العالم المعاصر تجاه هذه الهيئة الدولية ، فهنا قوم استندوا في شرعية دولتهم الى قرار متعجل اتخذته هيئة الأمم المتحدة بضغط ظروف دولية معينة « قرار تقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ » ، ثم بدأوا مباشرة بعد تطبيق

«١» ترفض اسرائيل بوجه خاص مشاركة أية قوات سوفياتية في أي مشروع دولي لحفظ الامن ، وقد ورد هذا الكلام صراحة في تصريح رسمي لغولدا مائير « ٤ نيسان ١٩٧١ » .

القرار بالشكل الذي يريدونه يتنكرون لكل ما يصدر عن هيئة الأمم المتحدة . أدلى دايان في اجتماع مغلق لكتلة حزب العمل ببيان جاء فيه « وفقاً لما نشرته « معاريف » في ١٩ حزيران ١٩٦٨ » :

« على اسرائيل ان لا توافق على قرار مجلس الامن تحت أية ظروف لان هذا القرار يدعو بوضوح الى انسحابنا الى خطوط الرابع من حزيران سنة ١٩٦٧ . وليس من المفيد أن يتلاعب الانسان بالكلمات في محاولة لفهم القرار فهماً مغايراً لذلك » «١» .

والموقف الاسرائيلي يفسر نفسه بنفسه ، فاسرائيل ترفض أي تدخل دولي . بما في ذلك هيئة الأمم المتحدة لانها تقف في موقف قوة وتريد ان تترك لها حرية التصرف الكاملة في المنطقة ، ثم أنها ترفض التخلي عن اية مناطق مهمة مقابل السلام والاعتراف لانها تعتبر هذه المناطق جزءاً لا يتجزأ من « ارض اسرائيل Eretz Israel » . وأخيراً ليس ما يدعوها للتعجل في المصالحة مع الاقطار العربية لانها حتى الآن لم تستكمل الكيان المطلوب وتشعر ان أية تسوية قد تؤدي الى تجميدها ضمن حدود واضحة .

ومن أجل ذلك ترفض اسرائيل اي شكل من أشكال المفاوضات مع العرب سوى شكل المفاوضات المباشرة وتعتبرها الوسيلة الوحيدة لاحلال السلام .

(لعبة المفاوضات المباشرة) :

على ان لعبة المفاوضات المباشرة واضحة تماماً ، وفيما يلي موجز لأهم أغراضها :

١ — الاصرار على المفاوضات المباشرة يهدف الى تحقيق مكسب واضح لمجرد قبول العرب بالمفاوضات ، وهو اعتراف العرب باسرائيل قبل ان تقدم اسرائيل أي شيء لقاء هذا الاعتراف مثل قبول مبدأ الجلاء عن الاراضي المحتلة . وحتى لو فشلت المفاوضات فالكاسب هو اسرائيل لانها تكون قد انتزعت اعترافاً عملياً من العرب بوجودها الشرعي . ثم انها تتوقع في حالة اخفاق المفاوضات ان يلتهب الوطن العربي بالخلاف والفوضى وان يقع الحكام في ورطة مع شعوبهم تؤدي بهم في النتيجة الى الخضوع لأية شروط اسرائيلية مهما كانت مجحفة .

«١» وجاء في هذا البيان ايضاً : « بالنسبة لاسرائيل تشكل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط ونهر الاردن وحدة أرضية متماسكة . وانني اقاوم بشدة تخطيط أية حدود من شأنها ان تقسم هذه الوحدة الارضية » .

٢ – تعلن اسرائيل ان المفاوضات يجب ان تكون غير مشروطة أي أن لا يكون الانسحاب من الأراضي المحتلة شرطاً للجلوس حول مائدة المفاوضات . وبما ان الاحتلال الاسرائيلي يشكل البند الاول في قائمة عناصر الازمة الراهنة فان المفاوضات ستنصب بطبيعة الحال على مسألة الانسحاب لا على المسائل الكبرى التي نجمت عن ظهور الكيان الصهيوني كمشكلة الشعب الفلسطيني ومشكلة ملكية الاراضي التي استولى عليها الاسرائيليون ومشكلة مياه نهر الاردن ومشكلة التوسع الاسرائيلي بوجه عام .

٣ – الاصرار الاسرائيلي على شكل المفاوضات يهدف الى الاحراج من جهة وتحويل الانظار من جهة اخرى عن حقيقة العدوان حتى تبدو المسألة شكل لامضمون وبالتالي حتى لاتصل الى نتيجة .

٤ – تهدف المفاوضات المباشرة بالمفهوم الاسرائيلي الى استبعاد أي دور للامم المتحدة أو اية قوى دولية اخرى ، وهي تعني ببساطة وضع المقلوب تحت الامر الواقع وتجاوز سلسلة قرارات هيئة الامم المتحدة التي لاتريدها اسرائيل والتي بلغت مئة وخمسين قراراً تتعلق بتخطيط حدود اسرائيل واعادة اللاجئين الى ديارهم ورفض الحاق القدس باسرائيل والدعوة الى الانسحاب من الاراضي المحتلة وادانة العدوان الاسرائيلي المتكرر .

٥ – تهدف اسرائيل من وراء المفاوضات المباشرة مع الدول العربية الى استبعاد الفلسطينيين الذين يشكلون طرفاً اساسيا في المسألة والذين فقدوا ديارهم وكيانهم السياسي . وتختفي وراء ذلك الرغبة في الحصول على اعتراف سياسي حقوقي من الدول العربية بانتهاء الوجود الفلسطيني بعد ان انهته اسرائيل من الناحية المادية (Physically) بتشريد نصف الشعب الفلسطيني ووضع النصف الاخر تحت الاحتلال .

٦ – وتبدو اسرائيل متأكدة من رفض العرب للمفاوضات المباشرة على النحو الذي تطرحه اسرائيل وهكذا يتاح لها ان تستمر في الاحتلال وان تنادي بالسلام في وقت واحد .

ومن هنا كانت ترفض اي تنازل عن هذه الصيغة وتتشدد بالمناداة بها كلما شعرت ان هناك صيغاً قريبة منها قد تكون مقبولة من العرب كما حدث خلال محادثات سنة ١٩٧١ .

٧ – وفي الوقت نفسه تمضي في اتخاذ اجراءات من شأنها ان تقطع الطريق على اية تسوية محتملة :

آ - فقد الحقت القدس باسرائيل وجعلتها عاصمة لها متحدية بذلك قرارات هيئة الامم المتحدة ومشاعر الرأي العام العالمي .

ب - رفضت تطبيق قرارات هيئة الامم بالسماح للاجئين الفلسطينيين بالعودة الى ديارهم .

جـ - بنت سلسلة من المستوطنات العسكرية في الاراضي المحتلة بعد سنة ١٩٦٧ .

د - تستمر في تهجير الفلسطينيين من قراهم وتستولي على اراضيهم بالقوة وتعمل على الحاق اقتصاد المناطق المحتلة بالاقتصاد الاسرائيلي «١» .

٨ – تدلي الطبقة الحاكمة الاسرائيلية بتصريحات متكررة تشير الى أن القدس غير قابلة للتفاوض ، والجولان غير قابلة للتفاوض ، وشرم الشيخ غير قابلة للتفاوض ، والشريط المحاذي لنهر الاردن غير قابل للتفاوض . وهذا يعني بالنسبة لكل من يفكر بالتفاوض مع اسرائيل أن التفاوض لن يعني شيئاً على الاطلاق(٢) .

وعلى الرغم من موجة التفاؤل الدولية التي أعقبت حرب تشرين الأول فان التصريحات الاسرائيلية في الاسبوع الذي تلا الحرب لم تحمل أي تغيير جوهري في الموقف الاسرائيلي التقليدي ، ويستذكر المرء بوجه خاص التصريحات المتشنجة التي أدلت بها جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل خلال زيارتها لواشنطن في الأول من تشرين الثاني أي بعد انقضاء بضعة أيام على وقف اطلاق النار .(٣)

وان هذا الموقف المتعنت من السلام يستند الى قاعدة صلبة من الطبيعة الايديولوجية والامبريالية للدولة الصهيونية – كما اتضح من العرض السابق ، ولكن بصرف النظر عن

«١» لفهم السياسة الاسرائيلية في المناطق المحتلة انظر : الخطيب د. حسام : « حدود مقفلة وجسور مفتوحة » ، شؤون فلسطينية ، بيروت ، مركز الابحاث الفلسطيني ، ع ٢١ ايار ١٩٧٣ .

«٢» تعتمد هذه المناقشة اعتماداً رئيسياً على :

Al - Abid, Ibrahim, Israel and Negotiation p I O Research Center Beirut, 1970 .

«٣» لنا عودة الى التصريحات المذكورة ،

جميع العوامل السابقة يمكن اعتبار العامل المصلحي « أو البراغمي » سبباً من أسباب تناقض السياسة الاسرائيلية الدائم مع قيام سلم فعلي في المنطقة . والمؤسسة العسكرية التي تسيطر على مفاتيح الحكم في اسرائيل تعرف ذلك تمام المعرفة ولذلك تهيء الرأي العام الاسرائيلي باستمرارة لفكرة الحرب والعدوان . ثم ان تجربة اسرائيل خلال ربع القرن الماضي دفعتها دفعاً مطرداً باتجاه نوع من الايمان المطلق بأن القوة هي الحل الوحيد لجميع المشكلات . والملاحظ أن اسرائيل كسبت في أوقات الحرب أضعاف أضعاف ماكسبته في فترات وقف اطلاق النار . والواقع أن تاريخ اسرائيل الحالي هو سلسلة من الحروب الكبيرة مثل حرب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ تتخللها سلسلة متواصلة من الاعتداءات الصغيرة . والنجاح الاسرائيلي العسكري مازال يدفع بالاسرائيليين الى مزيد من الايمان بأن الحرب هي الحكم في كل الأمور . ومما زاد الأمر سوءاً أنه – بسبب ملابسات كثيرة منها الدعم الاستعماري – كانت الخسائر الاسرائيلية منخفضة جداً بالنسبة للمكاسب التي حصلت عليها من خلال الحروب . والاشارة هنا يمكن أن تنحصر بالخسائر البشرية ما دامت نفقات الحرب كلها مغطاة من قبل الدوائر الامبريالية والرأسمال الصهيوني . وحسب الاحصاءات الاسرائيلية بلغ مجموع القتلى ٦٦٩ قتيلاً في حرب حزيران التي أعطت اسرائيل سيطرة على أراض تبلغ مساحتها أكثر من أربعة أضعاف مساحة الدولة الصهيونية . ولم يحدث خلال الحرب أن تعرضت المدن الاسرائيلية لغارات فعلية أو قصف فعال « باستثناء المستعمرات المواجهة للحدود السورية التي أخليت من السكان سلفاً » . كما أن الاسرائيليين لم يعانوا خلال السنوات الماضية أي نكسة عسكرية يمكن أن تفتح أذهانهم على المعنى اللاانساني للحرب . ولذلك نرى قادتهم العسكريين والسياسيين يتحدثون عن الحرب وكأنها لعبة مسلية، ويتقبل الرأي العام مثل هذه الهيستريا لأن وسائل الأعلام الرسمية والحزبية تعده نفسياً لقبولها «١» . ومن

«١» اول ما يلفت نظر الزائر في اسرائيل – كما يذكر مراقب المدنة هاتشسون – النزعة العسكرية المسيطرة : فالزائر : « يخرج بانطباع لا بد منه ، وهو أن الاشياء العسكرية لها الافضلية في كل شيء ... منظمات الشباب ، الجنود النظاميون ، البحارة ، الطيارون ، الاحتياطي العسكري الضخم المجهز والمدرب والمخبأ خلف اسوار ما يسمى بالمستعمرات الزراعية ، الرجال على الحدود ، وقوات البوليس ... كل شيء يشير الى ان هذه الامة تضع تأكيداً شديداً على اجهزة ومعدات الحرب » .

انظر : العابد : العنف والسلام ... ص ٤١ .

الواضح أن نتائج حرب ١٩٧٣ لم تكن من القوة والحسم بحيث تستطيع تغيير صورة راسخة ثبتت في ذهن الاسرائيليين منذ مطلع هذا القرن ، ومن المؤكد أن حرب تشرين الثاني كانت بمثابة صدمة كهربائية فتحت عيون الاسرائيليين على مغالطات كثيرة في واقعهم الخاص.ولكن من المبالغ به أن نتحدث عن نتائج هذه الحرب كما لو أنها حاسمة في تغيير الموقف الاسرائيلي التقليدي المؤيد للحرب ذلك أن هناك عوامل موضوعية قائمة في طبيعة التركيب الاسرائيلي تدفع الكيان الصهيوني باتجاه الحرب دائماً . وربما كان من أبرزها :

١ — الوضع الخاص لاسرائيل باعتبارها دولة غريبة عن المنطقة فرضت نفسها بالقوة وظلت تصر على معاملة المنطقة بأسرها من موقع الغطرسة والتعالي .

٢ — المطامع الاقتصادية والسياسية الناجمة عن استقدام المهاجرين بأعداد ضخمة والحاجة الى مجال حيوي Lebens Raum

٣ — ضرورة اصطناع الازمات الكبرى من اجل اثارة تعاطف اليهود في العالم والضغط على المنظمات الصهيونية خارج اسرائيل من اجل جمع الاموال والمعونات بحجة الاخطار التي تهدد يهود اسرائيل .

٤ — وجود عرب خاضعين للاحتلال الاسرائيلي ومفعمين بالنقمة ضد هذا الاحتلال ، مما يدفع بالمحتل دائما الى اتباع سياسة القوة والتخويف واخضاع الجوار من أجل القضاء على شريان المقاومة .

٥ — مصلحة الطبقة العسكرية في ابقاء المجتمع الاسرائيلي تحت رحمتها من جهة واستمرار احتفاظها بمفاتيح السلطة من جهة اخرى بحجة وجود الخطر الخارجي. ومن الملاحظ ان اسرائيل فاقت اية دولة اخرى في العالم المعاصر بدرجة تقديس قادتها العسكريين .

٦ — امتلاء المجتمع الاسرائيلي بالتناقضات ، ومن جملتها التمييز العنصري ضد اليهود الشرقيين وضد الاقلية العربية ، مما يجعل من اي جو سلمي فرصة لبروز هذه التناقضات .

٧ — الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها إسرائيل والتي يمكن ان تدمرها لولا سيل المعونات المتدفق ، ومن المعروف ان العامل الاقتصادي كان من بين اهم العوامل

التي هيأت اسرائيل لعدوان سنة ١٩٦٧ «١»

ان هذه العوامل وعوامل اخرى كثيرة تدفع الاسرائيليين باستمرار في طريق الحرب وتجعل موقفهم من السلام الحقيقي موقفا سلبيا ، ومن الضروري التأكيد هنا على ان كل هذه العوامل من صنع الفكر الصهيوني والطبقة الحاكمة في اسرائيل وليس من صنع الظروف الخارجية ، ولئن كانت هذه الحقيقة تزيد من خطورة الموقف الاسرائيلي على سلام منطقة الشرق الاوسط والعالم باسره فانها في الوقت نفسه تحمل تأكيدا راسخا على مسؤولية اسرائيل الكاملة عن حالة التأزم التي تعيشها المنطقة .

ج ـ الكيان الصهيوني في فلسطين ، تلك هي المسألة ..

لقد مضى حتى الان ربع قرن على قيام دولة اسرائيل ، وفي غمرة الاضطرابات السياسية التي تعكر جو تلك المنطقة من العالم التي تسمى بالشرق الاوسط يميل معظم الناس ، ولا سيما جيل الشباب الذي لم يشهد احداث سنة ١٩٤٨ الى تناسي النتائج السياسية والمآسي الانسانية التي ترتبت على نشوء الدولة الصهيونية . وبما ان هذه النتائج والمآسي مازالت حتى الان قوية ومؤثرة وفاعلة ، سواء على المستوى السياسي أو الانساني فانه يبدو ضروريا التنويه بها ولو عن طريق الايجاز المركز .

١ ـ قامت اسرائيل على انقاض شعب صغير هو الشعب العربي الفلسطيني ، وكان قيامها بتدبير من القوة الامبريالية الرئيسية في النصف الاول من القرن العشرين وهي بريطانيا .

وقد ادى قيام اسرائيل الى تشريد « ٧٠٠ » الف فلسطيني طردوا من بلادهم خلال الشهرين الاولين لقيام اسرائيل ، وما زالوا ـ بعد مضي ربع قرن ـ يعيشون في حالة بؤس وتشرد ، ولا تبدو في الظروف الحاضرة اية بارقة أمل بانتهاء معاناتهم وعذابهم . وخلال الاعوام الفائتة تزايد عددهم وبلغ مليوناً ونصفاً بفعل الزيادة الطبيعية

«١» انظر مثلاً اعداد ، The Jewish Observer and The Middle East Review ، خلال النصف الاول من عام ١٩٦٧ . والجدير بالذكر ان الهجرة الى اسرائيل انخفضت الى ادنى حد في هذه الفترة .

انظر ايضاً : الخطيب ، حسام : « تقييم جديد للحكم الصهيوني في الارض المحتلة » البعث ، دمشق ، ع ١٢٣٨ ، ٣ نيسان ١٩٦٧ .

من جهة وبسبب اقدام السلطات الاسرائيلية على طرد مزيد من الفلسطينيين . وقد رفضت اسرائيل حتى اليوم تلك السلسلة الطويلة من القرارات التي اتخذتها هيئة الامم المتحدة بضرورة اعادة اللاجئين الى ديارهم ، ويسمع المرء بين يوم وآخر تصريحات اسرائيلية متوالية عن استحالة عودتهم ، مع العلم ان قبول اسرائيل في هيئة الامم المتحدة كان في الاصل مشروطاً باعادة الفلسطينيين الى ديارهم .

ان وجود مليون ونصف انسان بلا جنسية ولا دولة ولا مأوى ولا مورد رزق ثابت في اية منطقة في العالم كفيل باثارة الاضطراب وتشكيل عامل تهديد مستمر للسلم المحلي والعالمي «١» ، وان اسرائيل تعرف ذلك جيداً ولكنها غير معنية بقضية السلم ، ثم ان طبيعة الشوفينية لهذه الدولة لا تسمح لها بقبول مبدأ اعادة اللاجئين حتى لو وجدت الرغبة في ذلك لان عودتهم تتعارض مع مبدأ « الحياة اليهودية » الصافية على « أرض المعاد » «٢» .

٢ ــ اغتصبت اسرائيل بالقوة أراضي الشعب العربي الفلسطيني وارتكبت سلسلة من المذابح ــ كمذبحة دير ياسين ــ لا يمكن لأي شعب أن ينساها . وقد انكرت وجود الشعب الفلسطيني وما زالت تصر حتى اليوم على عدم رؤية الواقع بل حاولت عدة محاولات لتصفية هذا الشعب بالابادة الجماعية والتفريق والتهجير وطمس الكيان والشخصية ...

وهو امر غير ممكن في عالمنا المعاصر الذي لم يعد ملكاً لاية جهة معينة والذي اصبحت الجبهة المعادية للاستعمار فيه قادرة على فضح الظلم الاستعماري والوقوف في وجهه. ان التصرفات الاسرائيلية في فلسطين تذكر الانسان بجرائم النازية ضد اليهودية، وبالتالي يجب ان تذكرنا بمصير النازيين انفسهم. وهذه رؤية المؤرخ البريطاني توينبي للموضوع .

« لقد كان حوالي ٦٨٤٫٠٠٠ من مجموع ٨٥٩٫٠٠٠ عربي فلسطيني يقطنون في الرقعة التي احتلها اليهود الصهيونيين من فلسطين بقوة السلاح سنة ١٩٤٨ » وقد فقد هؤلاء بيوتهم وممتلكاتهم وغدوا مشردين معدمين .

«١» سوف يقتصر التحليل في جميع نقاط البحث على الجانب المتصل بمسألة السلام فقط ، أما الجوانب الاخرى من سياسية وانسانية فلن نتطرق اليها .

«٢» تظهر ادبيات المعارك الانتخابية في اسرائيل مقدار أهمية هذه المسألة بالنسبة للرأي العام الاسرائيلي الذي تجري تغذيته دائماً بأفكار العنصرية والانغلاقية .

واذا كان ينبغي لنا قياس فظاعة اقتراف الجرم بدرجة انغماس المذنب في ذنبه فان عـذر اليهود في ترحيلهم عرب فلسطين من اوطانهم سنة ١٩٤٨ يقل عن عذر نبوخذ نصر وتيطس وهدريان ومحاكم التفتيش الاسبانية والبرتغالية ، فيما اقترفه جميع هؤلاء من استئصال شأفة اليهود واضطهادهم وابادتهم في فلسطين وغيرها ، خلال فترات مختلفة من التاريخ . لقد كان اليهود سنة ١٩٤٨ يدركون فظاعة ما يفعلون من خلال تجربتهم الشخصية الخاصة . وهـذا بحد ذاته مأساة كبيرة وزيد في عنف تلك المأساة انه ماكان ينبغي ان يتمخض الدرس الذي عاناه اليهود على يد العرقيين الالمان ، عن تقليدهم لتلك الوحشية بل ان يتمخض عن تخلصهم منها » . «١»

ان الظلم الذي وقـع على الفلسطينيين سنة ١٩٤٨ تضاعف سنة ١٩٦٧ ، واصبحت فلسطين كلها تحت قبضة الغزاة الصهيونيين . اما الشعب العربي الفلسطيني فاصبح قسمين كل واحـد منها اتعس من الاخر : قسم تحت الاحتلال الاسرائيلي والقسم الثاني مشرد في الاقطار العربية وبلدان اخرى من العالم . وان اي انسـان ذي منطق سليم يتساءل : هل يمكن ان يقوم اي سلام قبل اصلاح هذا الوضع المغلوط ؟

٣ — كان قيام اسرائيل اشارة لبدء صراع دام طويل دفع جميع دول المنطقة الى الدخول في سباق للتسلح مدمر للاقتصـاد الوطني ومعيق للتطور الاجتماعي . وبالنسبة لاسرائيل كفل لها ارتباطها مع الامبريالية سيلاً متدفقاً من المعونات العسكرية والمالية . أما بالنسبة للدول العربية فقد اضطرت الى تخصيص اعتمادات ضخمة للدفاع وصلت الى ثلاثة أرباع الميزانية العامة للدولة في بعض الاقطار المواجهة لأسرائيـل مثل مصر وسورية . ومن الواضح ان مثل هذا الانفاق يعني حرمان الجماهير الشعبية والشبيبة الناشئة بوجه خاص ، من مشروعات التنمية ومن الخدمات العامة من جهة، واشغالها من جهة أخرى بالنضال ضد الغزو الخارجي بحيث تضطر في حالات كثيرة الى التجاوز عن ضرورات النضال الاجتماعي ضد الاستغلال والاحتكار وفي مثل هذا الجو المتوتر الذي يحقنه العدوان الاسرائيلي بشحنات يومية لا محل لسلام حقيقي ، لان السلام الحقيقي لا يمكن ان يبنى على التغاضي عن الظلم والتسليم بالامر الواقع .

«١» توينبي ، ارنولد : فلسطين ، جريمة ودفاع . تعريب عمر الديراوي ، بيروت حزيران ، ١٩٦١ ، ص ١٥ — ١٧ .

وهكذا يبدو واضحاً لكل منصف ان الكيان الصهيوني في فلسطين هو مبعث كل الاضطرابات المؤسفة التي تجري في الشرق الاوسط منذ خمسة وعشرين عاماً ، وان العائق الاساسي في تحقيق السلم في هذه المنطقة الحساسة من العالم انما هو الكيان الصهيوني الذي كان بروزه الى الوجود عام ١٩٤٨ إيذاناً بظهور سلسلة من المآسي والقلاقل والصدامات يصعب على اي مراقب ان يتصور متى تنتهي .

ان الفكر المتزن يرفض عادة التسليم بوجه واحد للحقيقة ، أو تفسير الظواهر السياسية والاجتماعية بعامل واحد ، ولكن حالة السلام في الشرق الأوسط بالذات تبدو ، سواء للوهلة الاولى أو بنتيجة البحث والتقصي ، قابلة للتفسير بعامل واحد ، والحقيقة أن البعيدين عن جو الصراع العربي الاسرائيلي يصعب عليهم تقبل هذه الحقيقة ولكن الملاحظ بوجه عام أنه كلما اقترب الانسان من التفصيلات الملموسة المتعلقة بالقضية الفلسطينية ازداد استعداداً لتقبل هذه الحقيقة . وفيما يلي خلاصة للرأي الذي توصل اليه الدكتور جون دايفز وهو مفكر اميركي متزن ، على أثر خدمة طويلة مباشرة في قضية فلسطين والشرق الاوسط «١» :

« ان عقدة القضية هي أن اسرائيل لكي ينتهي النزاع في الشرق الاوسط ، ينبغي ان تتصرف كدولة تقليدية يكون اهتمامها الأول رفاهية شعبها والثاني رفاهية الذين يعيشون في المنطقة التي تشكل جزءاً منها . ان اسرائيل باختصار يجب ان تصبح جزءاً لايتجزأ من منطقة الشرق الاوسط ، وهذا يعني بوجه خاص أن المبادىء الصهيونية التي حفزت اسرائيل على اقتراف ما أثار النزاع ، ينبغي اعادة النظر بها ، وان دور اسرائيل كمحور ومركز للتركيب « كوندومينون » الصهيوني ـ الاسرائيلي يجب أن يحد اذا لم يبتر ، كما يعني أيضاً ان الاخطاء الماضية التي اقترفت بحق الشعب العربي يجب تقويمها ، وحين تتم هذه الاشياء لن تبقى هناك حاجة للحض على الحد من التسلح وسيعم السلام الشرق الاوسط » .

ان جون دايفز ، اذ يؤكد على ان طبيعة الكيان الصهيوني ـ الاسرائيلي هي أساس الاضطراب ، يدرك تماماً أن فرضية تحول اسرائيل الى دولة عادية كسائر دول

«١» عمل الدكتور دايفز مدة خمس سنوات مفوضاً عاماً لوكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين « اونروا » ثم عمل مع الجامعة الاميركية في بيروت . وفي سنة ١٩٦٦ انتخب نائباً تنفيذياً لرئيس مجلس امناء هذه الجامعة .

الشرق الاوسط هي فرضية وهمية بعيدة عن التحقق ، ولذلك فهو يردف قائلا :

« الا ان اسرائيل نفسها اليوم عاجزة عن التخلي عن رسالتها أو تعديلها تعديلاً كبيرا ، فالقوى الصهيونية التي صنعتها قد قيدتها بالسبيل الذي هو سبيلها ، كما ان زعماء اسرائيل لا يريدون ان يغيروا رسالتها ، وكثيرون منهم كانوا موظفين صهيونيين قبل ان يصبحوا زعماء اسرائيليين ، لذلك فان اية مبادرة لتحديد الرسالة الصهيونية لاسرائيل وتغييرها بشكل حاسم يجب ان تأتي من خارج الكوندومينون » (١)

ولكن ماذا يمكن ان تعنيه اية مبادرة من خارج الكوندومينيون الاسرائيلي الصهيوني اذا لم تعن الضغط العسكري والضغط السياسي . وما دام الاسرائيليون – كما هو واضح – ليسوا مستعدين لأن يغيروا من نواياهم وأوهامهم ومطامعهم ، وما دامت هذه المطامع لا تتحقق إلا على حساب الآخرين فان ذلك سيعني مزيداً من الحرب ومزيداً من الاقتتال . أولم تكن حرب تشرين الاول نتيجة لموقف التعنت الاسرائيلي ؟ لقد أعلن الزعماء العرب أنهم يهدفون الى تحرير الأرض المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧ أي تلك الأرض التي رفضت اسرائيل إعادتها بالتفاوض ، وقد رأينا من خلال تجربة السنوات الست الماضية كيف كانت اسرائيل تتهرب من أي ملتقى دولي قد يجرها الى الالتزام بالانسحاب ولو عن شبر واحد من الارض المحتلة . ولكن هل اختلفت المسألة بعد الحرب ؟ يخيل للمرء أن نتائج الحرب بالذات لم تكن لتؤدي إلا الى تغير تكتيكي في الموقف الاسرائيلي بحيث أصبحت مناهضة السلام أقل جهاراً من ذي قبل . ولكن الموقف الاستراتيجي لم يتغير حتى الآن ، وربما أدت الضغوط السياسية وحرب البترول في المستقبل الى زحزحته نوعاً ما . ولكن حتى يأتي ذلك الحين يجب أن يؤكد المرء أن سياسة اسرائيل تجاه السلام اليوم مازالت استمراراً لسياسة الأمس . لقد ذهبت غولدا مائير الى واشنطن في مطلع شهر تشرين الثاني ١٩٧٣ ، ودلت اتصالاتها وتصريحاتها أنها تسير على النهج السابق من حيث احراج الطرف العربي بتصريحات مسبقة تغلق أمامه كل الأبواب . وهذه من وجهة النظر الاسرائيلية أفضل وسيلة لعدم التورط في تحركات سياسية تؤدي الى الالتزام بالانسحاب . وفي تصريحاتها هذه المرة لعبت

---

(١) دايفز ، جون : السلام المراوغ ، ترجمة محمود فلاحة ، دمشق ، ص ١٢٠ – ١٢١ . وقد ادخلت تعديلات طفيفة على الترجمة . عنوان الكتاب الاصلي :
Davis, John The Evasive Peace .

رئيسة وزراء اسرائيل على الوتر الحساس . وعندها « أن القدس الموحدة يجب أن تبقى عاصمة لاسرائيل في إطار أي اتفاق للسلام » . وبالنسبة لقضية فلسطين رفضت الاعتراف بوجود شعب يعاني من التشرد بل رفضت وجود أية دولة فلسطينية على حدود اسرائيل مهما كان وضعها . واعتبرت المشكلة مشكلة أردنية خالصة :

« اذا رغب الأردنيون في اعطاء منطقة على حدودهم الشرقية للفلسطينيين فان اسرائيل لاتعارض ذلك . في وسعهم أن تكون لهم دولة يمكن تسميتها فلسطين ــ الأردن أو الأردن ــ فلسطين ، ولكن لا دولة كهذه على حدود اسرائيل » «١»

وان مثل هذه التصريحات تؤكد أن العقلية الاسرائيلية ستظل الى زمن طويل بعيدة عن الاعتراف بأصل المشكلة التي سببت كل هذه المآسي في الشرق الاوسط كما أنها مازالت تلك العقلية المغلقة التي تصر على فهم الأمور من زاوية مصلحة وحيدة الطرف فقط ، والا فما معنى قول غولدا مائير جواباً على سؤال حول مدى تأييدها لسياسة الانفراج الدولي :

« لسنا مضطرين لدفع الثمن من أجل سعادة الآخرين »

ان هذه العقلية ليست عقلية سلام على الاطلاق ، ولن يكون سعيداً أي طرف دولي أو محلي يجد نفسه مضطراً للتداول معها .

* * *

وختاماً ان المرء لايملك إلا أن يعترف بان صورة الوضع في الشرق الأوسط قاتمة بكل ماقي الكلمة من معنى ، لقد نشبت الأزمة مع قيام دولة اسرائيل ، ان لم نقل خلال السنوات التي شهدت الأعداد لقيام هذه الدولة، ومنذ ذلك الحين تتلاحق المشاكل والازمات وينتهك السلام يومياً وتشهد كل مجموعة من السنوات فورة توسعية جديدة لهذا الجسم الغريب الذي اخفق في أن يلائم نفسه مع المنطقة واختار طريق القوة والارهاب . ويزيد الأمر سوءاً ان القوى الامبريالية ــ بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ــ تنتهج سياسة متمادية باستمرار ، قوامها مكافأة المعتدي واغداق الأسلحة والهبات المالية عليه . وان كل العوامل تشير الى ان العدوان مستمر وانتهاك السلام مستمر ما دام الكيان الصهيوني مستمراً . وفي الوقت الحالي يصعب على الانسان التفكير باية معادلة سلمية يمكن ان تستجيب لها اسرائيل بعد أن رفضت اكثر من ثلاثين مشروعاً للتسوية خلال ربع القرن

«١» من تصريحات غولدا مائير في مؤتمرها الصحفي في واشنطن في الأول من تشرين الثاني ١٩٧٣ . انظر « النهار » اللبنانية عدد ٢ تشرين الثاني ١٩٧٣ .

الماضي ولكن ذلك لايعني الاستسلام للتشاؤم والسوداوية . فمع مضي المعتدي في غطرسته تتعاظم موجة نضال الشعوب ضد الامبريالية ، ويزداد الصوت العالمي الداعي الى السلام والرافض للظلم جهارة وقوة .. وفي مثل هذا الظرف ، وفي حالة أزمة كأزمة السلم في الشرق الاوسط، يجد احرار العالم انفسهم مطالبين جميعاً بمزيد من الوعي وتحديد المسؤولية لان ذلك هو الكفيل بإنارة طريق الخروج من الازمة . وبالنسبة للطرف العربي من المسألة تشكل كل خطوة عالمية في سبيل تحديد المسؤولية في الازمة الناشبة دفقة من الدعم متناسبة مع درجة وضوح المسؤولية . ذلك ان تجربة النضال العربي اثبتت انه لايمكن أن يقوم في الفراغ، لا بسبب التطابق بين اهدافه ومواقفه وبين اهداف ومواقف حركات التحرر العالمي فحسب بل كذلك لأن الطرف الاسرائيلي يستقي الجزء الاكبر من قوته ومدده من الشريان الامبريالي الدولي . وأما بالنسبة للشعب العربي الفلسطيني ـ وهو الذي عانى طويلا من الانسحاق السياسي بالاضافة لوجوه المعاناة الاخرى ـ فتشكل خطوات تحديد المسؤولية على الصعيد الدولي أهمية جوهرية لانها تعني بالدرجة الاولى نوعاً من اعادة الاعتبار الانساني له وبالدرجة الثانية مؤشراً واضحاً الى تطور نوع من الفهم العالمي لحقيقة اهدافه القومية المشروعة في تقرير مصيره فوق أرضه بالذات وبالتالي ازالة العقبة الاساسية التي تعيق اقامة سلام عادل ودائم في هذه المنطقة الحساسة من العالم، وبذلك يكون أي اسهام معنوي او ملموس في دعم اهداف الشعب العربي الفلسطيني هو اسهام مباشر في تحقيق السلام المنشود على مستوى المنطقة العربية وربما على مستوى العالم أجمع .

ويقتضي الانصاف أن يشير المرء الى أن السنوات الأخيرة قد شهدت تطوراً ملموساً في هذا الاتجاه ولا سيما على صعيد المنظومة الاشتراكية والشعوب المناضلة . كما أن الأيام القليلة التي واكبت وتلت حرب تشرين الأول شهدت تغيرات ذات طابع درامي في موقف عدد كبير من دول العالم تجاه العدوان الصهيوني ولا سيما دول افريقية التي تسابقت الى قطع علاقاتها الديبلوماسية مع الدولة الصهيونية على الرغم من وجود تاريخ طويل نسبياً من التعامل الاقتصادي والسياسي معها . ولكن الدقة تقتضي أيضاً الاشارة الى أن الطريق الى وضع الأمور في نصابها ما يزال طويلاً ويحتاج الى نضال مستمر وجهد جدي من قبل الأمة العربية بالدرجة الأولى وكذلك من قبل لجميع القوى والشعوب التي لها مصلحة في سيادة العدالة والسلم في عالمنا المعاصر .

المراجع باللغة العربية

ايفانوف ، يوري :

احذروا الصهيونية ، منشورات وكالة نوفوستي ، ١٩٦٩ .

توينبي ، أرنولد :

فلسطين ... جريمة ودفاع ، تعريب عمر الديراوي ، بيروت .
حزيران ١٩٦١

جيجيك ، يان وفالشنوفسكي ، تاديوش :

خفايا عدوان حزيران ١٩٦٧ ، تعريب محمود فلاحة ، منشورات
ادارة التوجيه المعنوي والشؤون العامة بجيش التحرير الفلسطيني
دمشق ، ١٩٧٣

الخطيب ، د. حسام :

« تقييم جديد للحكم الصهيوني في الارض المحتلة » البعث ، دمشق
ع ١٢٣٨ ، ٣ نيسان ١٩٦٧

« حدود مقفلة وجسور مفتوحة » ، شؤون فلسطينية ، مركز
الابحاث بيروت ، ع ٢١ ، ايار ١٩٧٣ .

دايفز ، جون :

السلام المراوغ ، تعريب محمود فلاحة ، دمشق ، ١٩٧٠ ؟

رزوق ، د. اسعد :

اسرائيل الكبرى ، دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني ، منظمة
التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٨ .

العابد ، ابراهيم :

العنف والسلام — دراسة في الاستراتيجية الاسرائيلية ، منظمة
التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٧ .

القاضي ، ليلى سليم :

« تقرير حول مشاريع التسويات السلمية للنزاع العربي الاسرائيلي ، ١٩٤٨ – ١٩٧٢ » .
شؤون فلسطينية ، ع ٢٢ ، حزيران ١٩٧٣ .

الكيالي ، عبد الوهاب :

المطامع الصهيونية التوسعية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٦ .

هداوى ، سامي :

ملف القضية الفلسطينية ، تحرير د . يوسف صايغ .
منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٨
« بالاضافة الى الصحافة اليومية » .

المراجع المكتوبة باللغات الاجنبية

AI — Abid , Ibrahim
Israel and Negatiations

PLO Research Center , Beirut , 1970

Ben Gorion , David
Rebirth and Desting Of Israel
New York , 1954

Herzl , Theodor
L'Etat Juif , L'Herne , 1960

Tomeh , George :
Palestine Reconsidered (1969)
Brooklyn ; N . Y . , Jannary 1970

viezmann , Chaim
Trial and Error
London , 1950 .

صفوان قدسي

النبي المسلح

دراسة في الفكر الصهيوني المعاصر

في سيرة بن غوريون الذاتية التي صدرت عام ١٩٦٦ تحت عنوان « النبي المسلح » ، يروي المؤلف بأنه منذ عام ١٩٤٨ كانت له وجهة نظر محددة بخصوص الدولة اليهودية، وكانت وجهة نظره هذه تقوم على ضرورة أن لا تكون لاسرائيل حدود على الاطلاق ، وكان يقول : لا لزوم لتعيين الحدود .

وبالفعل ، فان بن غوريون سرعان ماحقق نجاحاً عملياً على صعيد اقناع الفريق الذي اجتمع ذات يوم من عام ١٩٤٨ للاتفاق على اعلان الدولة واختيار اسم لها . فقد نجح بن غوريون في اقناع القسم الأعظم من المجتمعين بأن يقترعوا لصالح فكرته القائلة بضرورة عدم تعيين حدود للدولة . وكانت حجة بن غوريون المعلنة هي أنه لايبتدع جديداً حين يدعو الى عدم تعيين الحدود ، فلقد سبق للولايات المتحدة الأمريكية أن فعلت الشيء نفسه عشية اعلان استقلالها .

وكما هو واضح من سياق الأحداث التي تتابعت منذ ذلك التاريخ ، فان بن غوريون كان يريد اسرائيل بلا حدود لأنه كان يريد اسرائيل غير مقيدة بحدود تعين حجمها وتقنن رغبتها في التوسع والامتداد . وكان بن غوريون في موقفه هذا أميناً لفكرته القائلة ان قبول اسرائيل لمبدأ وجود حدود للدولة إنما يعني بشكل من الأشكال قبولها لمبدأ تحديد حجمها ، الأمر الذي لايتفق مع حاجة اسرائيل إلى التوسع والامتداد ، هذه الحاجة المتأتية عن سببين اثنين :

- تحقيق الحلم التاريخي المجنون باقامة اسرائيل الكبرى الممتدة من النيل الى الفرات .

- استيعاب الأعداد المتزايدة من المهاجرين القادمين الى مايسمى بأرض الميعاد .

كذلك فان بن غوريون كان يعتقد ان القبول بمبدأ تعيين الحدود إنما يعني شيئاً واحداً وهو أن اسرائيل قبلت بالفكرة القائلة ان هذه هي حدودها ، في حين أن حلم الحركة الصهيونية كان شيئاً آخر تماماً . وقد اعترف بن غوريون بعد ذلك بشيء من هذا القبيل حين كتب يقول : ان دولة اسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض اسرائيل . وتعقب دراسة نشرها مركز الأبحاث الفلسطينية عام ١٩٦٨ عن بن غوريون ، على ذلك بقولها ان بن غوريون لم يذكر الجزء الباقي ، وانه في

كتابه « بعث اسرائيل ومصيرها » كتب مقالاً مطولاً بعنوان « اسرائيل بين الأمم » ، وقد سبق أن نشر هذا المقال في الكتاب السنوي لعام ١٩٥٢ . ونحن نراه في هذا المقال يحاول الربط بين تاريخ اليهود القديم وبين حاضر اسرائيل فيقول : لقد أعيد انشاء دولة اسرائيل في القسم العربي من فلسطين التاريخية ، وهي لاتقل مساحة عن الدولة اليهودية خلال معظم فترة الهيكل الأول والهيكل الثاني . بينما خطورة الأمن الراهنة ليست مسألة اختلاف حول الحدود ، بل هي تنبع من تغيرات بعيدة المدى حدثت بالقرب من أرض اسرائيل حوالي ٥٠٠ سنة بعد باركوبا ، ومن الزلزلة الروحية التي غيرت وجه الشرق الأوسط وآسية الصغرى وجميع بلدان شمال افريقيا .

وتخصص هذه الدراسة الممتعة صفحات مطولة للحديث عن نظرة بن غوريون للعرب . فحين وصل بن غوريون الى فلسطين في العقد الأول من هذا القرن ، كان يخفي وجهة نظره الحقيقية ازاء العرب ، وكتب عام ١٩١٥ يقول: « نحن لانطالب بأرض اسرائيل كي نحكم العرب الموجودين فيها ، ولا كي نجد سوقاً لما ينتجه اليهود الشتات . اننا نريد وطناً نستقر فيه ونتخلص من لعنة المنفى » . وكان قوله هذا ينطوي على قدر غير محدود من محاولة اخفاء النوايا الحقيقية واظهار مايتناسب فقط مع مقتضى الحال . وقد عاش بن غوريون أسيراً لخوفه الدائم من ظهور زعيم عربي من طراز مصطفى كمال ، وكان يقول : ماذا سيحدث لو ظهر هذا الزعيم ؟ . وحين ظهر جمال عبد الناصر ، أدرك بن غوريون أن مخاوفه قد تحققت ، وتحرك بن غوريون على أمل أن يسقط عبد الناصر قبل أن تتجسد فيه تلك المخاوف .

وتروي الدراسة المذكورة تفاصيل وفيرة عن الطريقة التي تصرف بها بن غوريون ، فقد عمد الى استثمار خطوة تأميم قناة السويس لتوجيه ضربة قاتلة الى

مصر ، وبادر الى ارسال شمعون بيريس الى العاصمة الفرنسية ، وكان بيريس وقتها نائباً لوزير الدفاع ، ليقول للفرنسيين انه اذا ما تقرر اعلان الحرب ضد مصر فان اسرائيل سوف تقوم بمساعدتها . وتقدمت فرنسا خطوة الى الامام حين توجهت الى اسرائيل بالسؤال الآتي :

— هل تدخل اسرائيل الحرب اذا كان لبريطانيا دور مباشر فيها ؟.

وكان جواب بن غوريون ، وكان وقتها رئيساً للوزراء ، يحمل الكثير من التردد بحجة أن بريطانيا مشغولة باظهار صداقتها للدول المشتركة في حلف بغداد . إلا انه مالبث بعد ذلك أن قال ان اسرائيل على استعداد لذلك شريطة الالتزام بثلاثة شروط محددة وهي :

١ — حماية جوية للمدن الاسرائيلية كثيفة السكان .
٢ — ضرب المطارات المصرية .
٣ — عدم اعلان حرب شاملة على مصر من قبل اسرائيل .

وكان بن غوريون يقول انه يريد اكثر من غارة وأقل من حرب . وحين تطورت الاحداث في غير الاتجاه الذي كانت تريده الدول المشاركة في عملية غزو السويس ، وحين ظهر اخفاق هذه العملية العسكرية ، وحين تأكد بأن مصر قد كسبت الحرب سياسياً ، أيقن بن غوريون بأنه لامناص من سحب قواته من سيناء . وكان عليه أن يجد المعاذير لهذا الانسحاب ، فلجأ الى تحديد الاهداف التي حققها العدوان وهي :

١ — أظهر أهمية خليج العقبة للرأي العام العالمي مما جعل الدول البحرية الكبرى تعمل على جعل مياه الخليج مياهاً دولية .

٢ — ان الهجوم جعل مشكلة حماية اسرائيل من الفدائيين مشكلة عالمية .

٣ — ان الجيش الاسرائيلي لن يستطيع السيطرة على سيناء سيطرة فعلية إلا إذا قوي من ناحية العتاد والرجال .

وبطبيعة الحال،فان بن غوريون لم يكن راغباً في اتخاذقرار الانسحاب، غير أن قوة الظروف أرغمته على ذلك ، ولم يجد مفراً في نهاية المطاف من أن يتصرف على هذا النحو .

* * *

ما أشبه الليلة بالبارحة . صحيح ان التاريخ لايكرر نفسه ، غير أن الصحيح أيضاً هو انه في لحظات معينـــة ، تبدو الأحداث مجرد امتـــداد لأحداث سبقت .

بن غوريون الذي اقنع المجتمعين عام ١٩٤٨ بضرورة عدم تعيين حدود لاسرائيل ، كان يمثل بداية مواقف مشابهة امتدت منذ ذلك التاريخ ، وما زالت قائمـــة حتى الآن . ذلك ان المسؤولين الاسرائيليين ظلوا لفترة غير محدودة من الزمن ، متمسكين بفكرة مفادها انه ليس من مصلحة اسرائيل تعيين حدود لها، باعتبار ان هذه الحدود سوف تكون قيداً على حرية اسرائيل في الحركة ، وحين وقف موشي دايان قبل ما يقرب من ثلاثة أعوام يخطب في مؤتمر للشبيبة الاسرائيلية، قال : لقد صنع جيلنا اسرائيل عام ١٩٤٨ ، وصنع جيلكم اسرائيل عام ١٩٦٧، وسوف يصنع الجيل القادم اسرائيل الكبرى .

وبن غوريون الذي حاول في حرب السويس أن يحتفظ بأجزاء من سيناء ويضمها الى اسرائيل ، لم يكن أكثر من اشارة الى ما تعتزم اسرائيل فعله فيما لو مكنتها الظروف من ذلك . واذا كان بن غوريون قد أعلن في عام ١٩٥٦ ضم الأجزاء المحتلة من سيناء الى اسرائيل ، ثم ما لبث أن برر انسحابه بمجموعـــة أسباب ، منها عجز الجيش الاسرائيلي عن الاحتفاظ بسيناء والبقاء فيها بسبب النقص في الرجال والعتاد، فان زعماء اسرائيل ظلوا حتى السادس من تشرين يعلنون

دون مواربة عن عزمهم على الاحتفاظ بما احتلوه في حرب حزيران ، أو بالقسم الأعظم منه على أقل تقدير . وحتى عندما كانوا يتحدثون عن الحدود الآمنة والمعترف بها ، فان حديثهم كان يغلب عليه نوع من الابهام يطلق الخيال في شتى الاتجاهات بحيث لا يمكن في نهاية المطاف الامساك بشيء ملموس .

– ٢ –

على الرغم من ان بن غوريون قد انسحب من الحياة السياسية منذ مطلع الستينات ، وعلى الرغم من انه آثر ان يمضي بقية حياته في مستعمرة «سيدي بوكر» التي تقع في صحراء النقب ، فإن ذلك لم يكن يعني ان بن غوريون قد انصرف عن السياسة بصورة نهائية ، فما زال هناك من الدلائل ما يؤيد الفكرة القائلة ان بن غوريون ، وقد دخل العقد التاسع من عمره ، يفضل الانصراف الى كتابة مذكراته ويؤثر ذلك على الانغماس في المشاغل السياسية اليومية ، وهو يدلي بين وقت وآخر بتصريحات يحاول من خلالها تذكير الناس بأنه ما يزال يملك حضوراً سياسياً لا يحق لأحد أن يغض الطرف عنه .

وقد نشرت له احدى دور النشر الكبرى في الولايات المتحدة ، عشية الذكرى الخامسة والعشرين لاغتصاب فلسطين ، أي في شهر أيار الماضي ، كتاباً جديداً يحمل هذا العنوان : « محادثاتي مع الزعماء العرب » ، ويروي فيه قصة التطورات التي حدثت خلال ثلاثة عقود من الجهود التي بذلها بن غوريون لتحقيق التفاهم مع العرب .

وقياساً على وقائع سابقة ، فإن بن غوريون ، شأنه في ذلك شأن كل هذه المجموعة من المفكرين الصهيونيين الذين يكتبون عن اسرائيل وعن الحركة

الصهيونية، لم يكن أميناً بما فيه الكفاية، الأمر الذي أدى الى اعتبار كتابه مجرد محاولة لتزوير التاريخ .

وفي المذكرات التي نشرها بن غوريون في مطلع الستينات ، نلحظ منذ البداية محاولة متعمدة لالقاء ظلال من الشك على مجموعة حقائق ناصعة في وضوحها. ومثال ذلك ان بن غوريون يحاول التشكيك في الحقيقة القائلة ان بريطانيا اسهمت بقسط وافر في التمهيد لقيام اسرائيل وفي تهيئة الجو المناسب الذي ساعد الحركة الصهيونية على انجاز حلمها القديم بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . بل ان بن غوريون يمضي الى ابعد من ذلك حين يحاول تصوير الامر على العكس من ذلك حين يكتب بأن التحالف لم يكن قائماً بين الحركة الصهيونية وبريطانيا ، وانما كان قائماً بين العرب وبريطانيا بهدف منع قيام اسرائيل .

وفي الحقيقة فان بن غوريون يبذل جهوداً كبيرة لاقناع قرائه بأن الامر هو على العكس تماماً مما تؤكده الوقائع والوثائق . وكما يكتب مفكر عربي معاصر«١» ، في معرض تقويمه لهذه المذكرات؛ فان بن غوريون يريد أن يقلب الصورة الاستعمارية الحقيقية التي كانت موجودة في المنطقة وقتذاك ، مصوراً اسرائيل على انها كانت في موقف القوة الاستقلالية التحررية التي تحاول أن تدافع عن نفسها ضد قوة استعمارية بريطانية. والواقع على عكس ذلك تماماً ، فالحقيقة الاستعمارية البسيطة في المنطقة في ذلك الوقت هي ان انكلترا كانت الدولة التي تستعمر المنطقة بجيوشها ونفوذها على السواء ، بما في ذلك فلسطين نفسها ، وانه تحت سمع الدولة الاستعمارية وبصرها وبتشجيعها ، فتحت أبواب فلسطين للهجرة الشرعية وغير الشرعية ، وصدرت التصريحات تلو التصريحات بدءاً من وعد بلفور لخلق أسس قانونية لايجاد كيان يهودي على أرض عربية . أما إذا تحرك العرب ، فهنا تتصدى لهم هذه القوة الاستعمارية بالضرب والقهر والكبت ... ولم تكن انكلترا والعرب في صف ، ووكالة بن غوريون في صف . إنما كانت انكلترا تقف

«١» أحمد بهاء الدين ـ اسرائيليات ـ الفصل السادس ـ مذكرات بن غوريون ـ دار الهلال ، آذار ١٩٦٥ .

وقد كبلت العرب بكل القيود تشهد النمو الصهيوني في تشجيع مستتر ، وحادث الحرب ليس وحده هو الذي صنع اسرائيل ، وانما صنعتها كل الاحداث السابقة منذ الحرب العالمية الأولى ووعد بلفور ، وفي خلال هذا كانت انكلترا تضرب بقوة السلاح كل محاولة لأي نمو عربي في المنطقة نحو الاستقلال بينما كانت تسمح للوجود الصهيوني بأن ينمو ويتبلور يوماً بعد يوم .

★ ★ ★

ما الذي يستند اليه بن غوريون في دعواه القائلة بتحالف عربي — بريطاني ضد الحركة الصهيونية ؟ .

ما الذي يجعل بن غوريون يمضي بعيداً في التركيز على هذا الادعاء الذي لايجد لنفسه سنداً من الواقع ؟ .

أغلب الظن أن بن غوريون يحاول الاستفادة من ظروف معينة مرت بها العلاقات الوطيدة التي كانت قائمة بين بريطانيا والحركة الصهيونية . وهذه الظروف كما يشرحها مؤلف كتاب « اسرائيليات » هي أنه اذا كان قد بدا في اللحظات الأخيرة ان انكلترا قد أصبحت عصبية المزاج في وجه السياسة الصهيونية ، وانها حاولت أن توقف المد الصهيوني عند ذلك ، فلأن الحركة الصهيونية قد كشفت في هذه الساعات الاخيرة عن انها تخطت السياسة الانكليزية بالفعل ، وانه بعد ان كان الظن ان الدولة الجديدة او الكيان الجديد سيكون تابعاً لانكلترا كفلسطين القديمة بصورة او بأخرى ، ظهر ان ولاءها قد انتقل نهائياً إلى امريكا ، وانها تهدف إلى الاستقلال التام وطرد الانكليز ، فأصبحت بذلك تشكل حقيقة جديدة مربكة لانكلترا في فترة ما بعد الحرب باضطراباتها وبما ظهر من تشقق في بناء الامبراطورية البريطانية .

ويمضي بن غوريون بعد ذلك خطوة إلى الامام حين يحاول بث نوع من الايحاء بأن اسرائيل ليست مدينة للولايات المتحدة بأي فضل ، وان الدور

الامريكي في اقامة اسرائيل وفي دعم الحركة الصهيونية وتشجيعها يكاد ان يكون دوراً غير مذكور، وفي ذلك ما فيه من مغالطةمفضوحة لا تقل في محاولتها تزييف التاريخ عن المحاولة الاولى لاظهار الحركة الصهيونية في مظهر حركة تحرر وطني طردت بريطانيا من فلسطين التي كانت قد فرضت انتدابها عليها .

على أن السقطة المميتة التي وقع فيها بن غوريون في مذكراته ، هي انه قدم رواية عن احداث السويس المجيدة عام ١٩٥٦ تخلو من الصدق . ذلك ان رواية بن غوريون لاتعدو أن تكون محاولة لاقناع العالم بعدم وجود أي تواطؤ بين اسرائيل وبين بريطانيا وفرنسا اللتين شاركتا في عملية الغزو المسلح ، في حين ان الوثائق التي افتضح أمرها فيما بعد ، تميط اللثام عن حقيقة الدور الذي قامت به اسرائيل بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا في ذلك الوقت . بل ان موشي دايان نفسه كتب في وقت من الأوقات، وهو الذي قاد القوات الاسرائيلية فيما اسموه بحملة سيناء عام ١٩٥٦ وكان في ذلك الوقت رئيساً للأركان ، بأن قواته كانت أشبه ما تكون براكب دراجة يتعلق بسيارة مسرعة في جريانها من أجل اللحاق بها . وكان معنى ذلك أن الدور الاسرائيلي في تلك الاحداث كان دور التابع ، ولا شيء اكثر من ذلك على الاطلاق .

ومعنى ذلك كله هو ان بن غوريون في مذكراته يلجأ الى اسلوب في تزوير الوقائع برع فيه الفكر الصهيوني . وتكفي نظرة سريعة على كتاب « من الفكر الصهيوني المعاصر » الذي يتضمن ترجمة كاملة للدراسات التي كتبها سياسيون ومفكرون صهيونيون ، والتي نشرت في العدد الخاص من مجلة « الأزمنة الحديثة » الذي اصدره سارتر عن الصراع العربي ــ الاسرائيلي قبل حرب حزيران بأسابيع قليلة ، لادراك هذه الحقيقة .

وكتاب بن غوريون الجديد « محادثاتي مع الزعماء العرب » لايخرج عن

هذا الاطار ، وهو يشكل اضافة جديدة الى سجل صهيوني حافل بكل مظاهر التضليل والتزوير واعدام التاريخ .

- ٣ -

أين تقع الصهيونية من الخارطة السياسية لعالمنا المعاصر ؟

ما هي حقيقة العلاقات القائمة بين الصهيونية والاستعمار ؟ .

هل تملك الحركة الصهيونية أن تجري تغييراً ما على الصورة التي تكونت عنها لدى العرب ؟ .

هذه التساؤلات يطرحها كاتب اسرائيلي معاصر يحاول ان يقدم الصهيونية في صورة جديدة تنكرها الوقائع والشواهد .

وعلى الرغم من اوري افنيري [1] يعترف بأن جذور الحركة الصهيونية يمكن العثور عليها في التاريخ الأوربي ، وبأن الصهيونية ولدت في اوربا في نهاية القرن الماضي ، وان ذلك لا يقتصر على باب الاحداث وانما يتعداه الى جوانبها الروحية والفكرية والسياسية والاجتماعية .

وعلى الرغم من ان هذا الكاتب الصهيوني يعترف بأن الحقبة التي ولدت فيها الحركة الصهيونية كانت حقبة رؤى سيسيل رودس ، وشعر روديا ـ كيبلنغ ،

«١» يقول عنه الملحق الخاص بالمعلومات الموجزة عن كتاب المقالات المنشورة في الترجمة العربية لعدد الازمنة الحديثة عن الصراع العربي الاسرائيلي ، انه ولد في المانيا ١٩٢٣ ، هاجر الى فلسطين ١٩٣٣ ، انضم الى عصابة ارجون الارهابية وحارب ١٩٤٨ ضد العرب . اصدر ١٩٤٧ كتاب « الحرب والسلم في المنطقة السامية » يدعو الى اتحاد فدرالي سامي في الشرق الاوسط . اسس مجلة هاعولام هازه الإسبوعية ١٩٥٠ ، ومجموعة «العمل السامي» ١٩٥٦ « وحركة القوى الجديدة » ١٩٦٥ وهو ممثل الحركة الاخيرة في الكنيست » ، ومجلة « هذا العالم » العربية ١٩٦٦ .

أي اوج الرومنطيقية والواقـــع الاستعماري وبأن اوربا كانت قد استولت على افريقيا وتقاسمتها ، وبريطانيا العظمى تسود البحار ، والمانيا تلح في طلب فسحة تحت الشمس ، وروسيا القيصرية تعزز مغانمها في الشرق الأقصى ».

على الرغم من ذلك كله ، فان « افنيري » يحاول في دراسة له نشرت تحت عنوان « حرب بين أخوة ساميين » «١» أن يغذي إنطباعاً إنتشر في أوربا لفترة من الزمن ، مفاده أن الحركة الصهيونية برغم كونها رافقت نشوء الحركة الاستعمارية وركبت موجتها ، فان العلاقة بينها ليست علاقة تابع ومتبوع ، وان القول ان الصهيونية هي صنيعة الاستعمار الرامية الى استعباد العرب ، قول خطل ، وان الصهيونية التي ليست هي صنيعة الاستعمار، كما يدعي «أفنيري»، لم تخدم الاستعمار طوعاً ، وإنما هي فعلت ذلك تحت تأثير ظروف وملابسات وأوضاع قادتها الى هذا الموقف . أي إن الكاتب الصهيوني يفترض افتراضاً خاطئاً وهو ان الحركة الصهيونية كان يمكن لها أن تكون غير التي كانت عليه ، وان علاقتها بالاستعمار هي علاقة ظروف ربما كانت تتحمل جزءاً من مسؤوليتها ، لكنها في نهاية المطاف لا تبرر وصمها بأنها صنيعة الاستعمار .

وربما كان هذا المفكر الصهيوني النموذج الأمثل للحقيقة القائلة ان مايقال عن وجود صقور وحمائم داخل الحركة الصهيونية وداخل اسرائيل ليس اكثر من محاولة لرسم صورة غير دقيقة عما يجري داخل العقل الاسرائيلي بهدف تضليل العرب عن حقيقة عدوهم وايهامهم بأن هناك حمائم يمكن التفاهم معها ، ذلك أن «أفنيري» يبدو من فصيلة الحمائم التي ليست هي في نهاية المطاف إلا نوعاً من الصقور الجارحة التي تعرف كيف تنقض على فريستها في الوقت المناسب بعد أن تكون قد خدعتها عن نفسها وضللتها .

«١» ـ من الفكر الصهيوني المعاصر ـ ص ٣٢٧ ـ مركز الابحاث ـ منظمة التحرير الفسطينية ـ بيروت ـ ١٩٦٨ .

دعونا نتأمل في بعض مايكتبه هذا الذي يبدو أنه ينتمي الى فصيلة الحمائم :

« منذ جيلين وقادة العرب يعلنون ان اسرائيل جسم غريب في المنطقة العربية خلق ليخدم الاستعمار ، وانها دولة عصابات لن يعترفوا بوجودها على الاطلاق . ان التخلي عن هذا الموقف يعني تكذيب الدعاية العنيفة التي ولدت منذ سنين تياراً من الحقد في قلب الجماهير . ليس هناك من قائد عربي يستطيع ذلك مع الاحتفاظ بالشعبية الضرورية لتحقيق سياسته ، ينبغي اذن تغيير الحالة ، ولا سيما الجو النفسي العربي » .

ان هذا الصهيوني المقنع يحاول بث نوع من الايحاء بأن العرب هم أسرى أوهامهم ، وان اعلانهم عن اسرائيل كجسم غريب في المنطقة العربية خلق ليخدم الاستعمار ، انما هو نتاج تصور عربي لا يستند الى أي أساس .

« ... تجاه هذا التطور الذي أملته القضايا الفعلية وتطلعات حضارة عبرانية مستقلة تمام الاستقلال عن الدول الاجنبية ، لا ترتكز التأكيدات الحالية المعادية للصهيونية ، بصدد حركة مصطنعة افتعلت افتعالا كاملا افتعلها المستعمرون ، لاترتكز هذه التأكيدات على شيء البتة . . . الصهيونية أساساً حركة صافية الجوهر ، ولكن الظروف التي اكتنفت ولادتها ، حملتها على المشاركة في الجبهة الاستعمارية في بدء القرن العشرين » .

ان كل ما يريد ان يصل اليه الكاتب بطريقة مباشرة أو بطريقة مواربة ، هو ان على العرب أن يتخلوا عن ظنهم القائل ان الحركة الصهيونية هي الابنة الشرعية للموجة الاستعمارية ، وان اسرائيل تشكل جيباً استعمارياً في قلب الوطن العربي . وهو يدعو الى نظرة ارحب وأعمق لطبيعة الوجود الصهيوني . بل هو يمضي الى حد القول ان الحرب القائمة بين العرب والاسرائيليين انما هي حرب بين اخوة ساميين وهي لهذا السبب بالذات يجب أن تتوقف .

ومن المفارقات المثيرة للانتباه ان « افنيري » الذي يبدو في مظهر من ينتمي الى فصيلة الحمائم ، لا يختلف كثيراً عن « دوف بارنير » وهو صهيوني

آخر شغل في وقت من الأوقات منصب عضو المكتب السياسي لحزب المابام ، ويبدو من خلال كتاباته انه يقف في صف الصقور . فالاثنان يدافعان بجرارة منقطعة النظير عن فكرة مفادها ان اسرائيل ليست جيباً استعمارياً في المنطقة ، وان الحركة الصهيونية ليست الابنة الشرعية للموجة الاستعمارية ، وان اسرائيل لا تطلب أكثر من الاعتراف بوجودها المشروع » .

ان من يتأمل في تاريخ الحركة الصهيونية ، سوف يضع يده على حقيقة مفادها ان اي صراع داخل هذه الحركة انما كان يجرى في اطار الحرص على المبادىء الأساسية للحركة ، وعلى أهدافها الاستراتيجية ، أي ان الصراع كان يدور في اطار الحركة نفسها وليس خارج هذا الاطار ، وكان الصراع الرئيسي يدور حول التكتيكات الواجب اتباعها للوصول الى الاهداف الاستراتيجية .

لم يرتفع صوت واحد بالتشكيك في الهدف الأخير للحركة الصهيونية . كان الكل متفقين على الأسس والمبادىء ، ومن هذا المنطلق بالذات تسقط فكرة وجود صقور وحمائم داخل اسرائيل اذ ما دام الامر خلافاً على التكتيك وليس على الاستراتيجية ، فان الصقور والحمائم يمكن ان تتبادل المواقع . صحيح ان الوسائل تؤثر احياناً في الغايات نفسها ، لكن الصحيح ايضاً هو ان الغايات تظل في مكانها ثابتة لا يمسها التغيير الجذري .

– ٤ –

في الأيام القليلة التي سبقت حرب السويس المجيدة عا ١٩٥٦ وقف بن غوريون ، وكان في ذلك الوقت رئيساً للوزراء ، يعلن على الملأ انه راغب رغبة اكيدة في حل مشاكله مع مصر ، وانه لهذا السبب ، وبحثاً عن السلام المفقود ، يبدي استعداده للاجتماع بعبد الناصر .

وكما هي العادة دائماً ، فان تصريحات بن غوريون لم تكن أكثر من محاولة للفت الانظار عن الاستعدادات التي تقوم بها اسرائيل لكي تؤدي دور مخلب القط في الغزو الذي تعرضت له مصر بسبب تأميم قناة السويس وما ترتب على ذلك من مضاعفات افضت في نهاية المطاف الى العدوان الثلاثي . وقد وجدت اسرائيل في ظروف ما بعد التأميم فرصة مناسبة لضرب القدرة العسكرية المصرية التي كانت في ذلك الوقت قد أخذت تشق طريقها الى التطور السريع ، خصوصاً بعد كسر احتكار السلاح وعقد صفقات أشراء السلاح من الاتحاد السوفيتي ودول أوربا الشرقية .

وعلى الرغم من ان احداث السويس أماطت اللثام عن زيف الادعاء الاسرائيلي فيما يتعلق بالرغبة في السلام، فان العدو الصهيوني لم يكف لحظة واحدة عن ممارسة هذه الادعاءات . وفي كل مرة كان يخطط فيها العدو الصهيوني لتوجيه ضربة عسكرية ، كان يسرع الى اطلاق التصريحات عن الرغبة في السلام .

وحين نجح العدو في احتلال مساحات واسعة من الأراضي العربية خلال حرب حزيران ، فان حملته العسكرية لم تمنعه من ان يتابع الحديث عن السلام. وكان ذلك كله يسير وفق خطة مدروسة تستهدف في نهاية المطاف ان توقع في ظن العالم ان اسرائيل راغبة فعلاً في السلام ، بل وان توقع في ظن العرب انفسهم مثل هذا الاعتقاد .

لكن السياسة الاسرائيلية لم تترك مجرد مساحة صغيرة من الارض يمكن ان يقوم عليها أي ظن من هذا القبيل . فلقد مضت هذه السياسة بعيداً في محاولاتها الرامية الى تكريس النتائج العسكرية لحرب حزيران وتحويلها الى نتائج سياسية .

ومن يتأمل في تاريخ الحركة الصهيونية ، فإنه سوف يقع على مجموعة حقائق لا مجال لإخفائها أو التستر عليها . مثال ذلك أن السلام لم يدخل في يوم من

الأيام في صلب التفكير الاستراتيجي للحركة الصهيونية ، وان الاعلان عن الرغبة في السلام كان في كل الأحيان يتخذ طابعاً تكتيكياً بحيث يراد له أن يخدم غرضاً معيناً . ومنذ النشأة الاولى للحركة الصهيونية ، كان الاستيلاء على الارض يشكل سياسة ثابتة تستهدف ربط اليهودي بالارض، بعد أن مضت آلاف السنين تحللت فيها علاقة اليهودي بالارض وانتهت به الى ان يكون أي شيء عدا كونه زارعاً للأرض . وكان الهم الاول للحركة الصهيونية هو إعادة الاعتبار لعلاقة اليهودي بالارض . وكانت دعوة بن غوريون الاولى ، منذ أن وصل الى فلسطين المحتلة في مطلع هذا القرن ، هي تحويل اليهود الى فلاحين ، لأنه بغير ذلك لن يكون في مقدور الحركة الصهيونية أن تنجز الكثير . وقد اعترف المؤرخون الصهاينة بأن اليهود لم يرغبوا في وقت من الاوقات في الاندماج في المجتمعات الزراعية ، وبأنهم آثروا العمل في مجال التجارة ، وهو مجال لا يؤسس علاقة بين الانسان والارض ، وهي العلاقة التي لا مناص من تأسيسها قبل الحديث عن الدول الصهيونية التي كانت الحركة الصهيونية تسعى الى تأسيسها .

ولعله يمكن فهم بعض خفايا حرب حزيران في ضوء هذه الوقائع . ذلك أن الارض التي كانت في حوزة العدو الاسرائيلي قبل عام ١٩٦٧ ، بدأت تضيق عن استيعاب التوسع السكاني ؛ وكان من رأي الكثيرين داخل اسرائيل أن الحرب كفيلة بتأمين الحل المناسب . غير أن الذي حدث بعد ذلك هو أن احتلال كل هذه المساحات من الارض العربية ، وضع اسرائيل في مواجهة مشكلة أخرى وهي أن هذه المساحات تشكو من فراغ سكاني لا بد من جلب مزيد من المهاجرين اليهود لملئه .

وفي ضوء ذلك ايضاً ، يمكن إدراك مغزى الجهد الصهيوني الرامي الى احباط أية محاولة لرسم خارطة سياسية تعين حدود الدولة الصهيونية . ذلك ان

الاستراتيجيين الصهيونيين يعتقدون بأن مثل هذه الخارطة سوف تحبط المخطط الصهيوني الرامي الى توسيع رقعة الدول الصهيونية مرة كل عشر سنوات . وفي ذلك كله ما يؤكد ان السلام الاسرائيلي ليس اكثر من اعلان تكتيكي يوضع في خدمة الاستراتيجية الصهيونية القائمة على العمل من أجل تحقيق مزيد من التوسع والامتداد .

من صور الحرب النفسية عند العرب

الدكتور احسان النص

ان تطور فن القتال منذ الحرب العالمية الثانية وإسرافه في الاعتماد على العنصر الآلي الذي لايفتقر الا الى عدد محدود من الجند لادارته وتسييره أنقصا من شأن العنصر البشري في الحروب الحديثة ، بحيث لم تعد

مقدرة الأمة القتالية تقاس ، في المنزلة الأولى، بعدد سكانها وجندها ، وانما تقاس بمقدار ما لديها من عدة وأسلحة مدمرة ووسائل حربية الكترونية ، وغدت الطاقة القتالية للأمة مرتبطة الى حد بعيد بتقدمها العلمي وتطور تقنياتها الحربية وبراعتها في فن القتال « التاكتيك » .

ولكن هل يعني هذا أن العنصر البشري فقد شأنه في الحروب الحديثة وأصبح دوره ثانوياً فيما يقتصر على ضغط زر أو توجيه صاروخ أو ادارة مفتاح ، ولم يعد لمهارة الجندي القتالية وقوته النفسية « معنويته » أي أثر في كسب المعارك ؟ ليس هذا صحيحاً فقد ثبت أن العنصر البشري ما زال له شأن عظيم في الحروب الحديثة على الرغم من التطور الآلي الهائل في أساليب القتال ووسائل التدمير والعُدد الألكترونية .

ومن هنا اتجهت عناية الدول الى أمرين : أولهما رفع مستوى جيوشها القتالي بحيث تكون قادرة على استخدام وسائل القتال المتطورة استخداماً ناجعاً ، فلا جدوى ترجى من جيش غفل لا يحسن استخدام الاسلحة الحديثة المعقدة والاجهزة الألكترونية المتطورة .

وثانيهما ، التوجيه المعنوي للمقاتلين ، بحيث لايقاتل الجندي استجابة لأمر يصدر اليه فحسب وانما دفاعاً عن عقيدة يؤمن بها وأهداف قومية يسعى الى تحقيقها . وقد أثبتت الحروب الحديثة خطورة هذين الأمرين وشأنهما العظيم في كسب الحرب ، وتجلت العناية بالتوجيه العقدي منذ الحرب الكونية الثانية ، فلم تكن هذه الحرب قتالاً بين جيوش وأمم متعادية فحسب وانما كانت الى ذلك صراعاً بين عقائد سياسية ومذاهب فكرية : نازية وفاشية وشيوعية ورأسمالية . وكذلك برهنت حرب الفيتنام أن الأمة التي تدافع عن عقيدة تعتنقها يغدو من العسير التغلب عليها بقوة الحديد والنار ، وكان ثمة تباين سافر بين المقاتل الفيتنامي والمقاتل الامريكي ، أولهما يقاتل باستماتة لانظير لها لأنه يذود عن وجود امته وعن مبادىء اعتنقها ، والثاني يقاتل لأنه أُمِر بالقتال ، يقاتل في سبيل غاية لا يدركها ولا يعيها ، فهو مقاتل بلا « قضية » ، وهو لذلك لايثبت عند احتدام المعركة ولا يقف من الموت وقفة التحدي والاستخفاف التي يقفها خصمه .

لا مفر إذن لكل أمة تريد أن تبني جيشاً قوياً من أن تغرس في قلوب مواطنيها عقيدة تستجيب لتطلعاتهم وأهدافهم ، ويذودون عنها بدمائهم ومهجهم. وهنا يبرز دور الكلمة ، ذلك العقار السحري العجيب ، ودور رجال الفكر وأرباب القلم في بناء الأمة وجيشها .

وثمة سلاح يستمد في المنزلة الأولى الى الكلمة هو ما نسميه اليوم بالحرب النفسية، وهذا السلاح لا يقل فعالية ومضاء عن الأسلحة الأخرى. وقد استخدمه النازيون ببراعة في الحرب العالمية الثانية فلجأوا الى وسائل الدعاوة المختلفة للتأثير في نفوس الأمم والجيوش التي قاتلوها، إذ كانوا يبثون الرعب في نفوس خصومهم بتصويرهم الجيش النازي في صورة الجيش العملاق الذي لا يهزم، ويوهنون من عزائمهم بالوعيد والتهديد والارهاب ويروّجون من الأكاذيب ما يضمن لهم السيطرة النفسية على أعدائهم، متبنين ذلك المبدأ الذي يقول: اكذب واستمرّ في الكذب فلا بد أن يصدقك الناس آخر الأمر.

هذه الوسائل كلها استخدمها الصهاينة في حروبهم مع العرب، فقد أوهموا الاسرائيليين بأن العرب يريدون إبادتهم وإفناءهم وزرعوا في نفوسهم بذور الكراهية الشديدة والحقد الاسود على العرب، كما أوهموهم أن القتال مع العرب لا يعدو أن يكون نزهة ممتعة، كل ذلك ليقووا «معنوياتهم» القتالية. وسلطوا من جانب آخر وسائل الحرب النفسية على العرب باختلاقهم الاكاذيب لتصديع الصف العربي، وليوهنوا من عزائم العرب بتصويرهم جيشهم في صورة الجيش الذي لا يعرف الهزيمة. على أن وسائلهم هذه باءت كلها بالاخفاق في حرب ٦ تشرين وفضح العرب بثباتهم وصمودهم زيف هذه الخرافة التي روج لها الصهاينة طوال ربع قرن، وكانوا هم أنفسهم أول من فوجئوا بتداعي هذا الهيكل الترابي الذي شادوه وخيل اليهم أنه صرح ممرّد راسخ الدعائم. وكذلك عرف العرب كيف يواجهون أضاليل الدعاية الصهيونية بإعلامهم المتزن الهادىء فانكشفت «اللعبة» الصهيونية للعالم كله وانهارت الثقة بما يصدر عنهم من مزاعم ودعايات، ولم يعد ثمة من يصدق بلاغاتهم العسكرية وانباءهم، حتى أصدقاء الامس باتوا يعلنون شكهم في صدق دعاواهم.

وكذلك أخفقت وسائل اعلامهم في تصديع الصف العربي المتماسك وأثبت العرب أنهم قادرون على تناسي ما قد يكون بينهم من وجوه الخلاف ازاء الخطر المشترك. والتضامن العربي الذي شهدناه في هذه الحرب لم تعرفه الأمة العربية منذ قرون طوال.

وحين نعود الى تاريخنا القديم نجد أن العرب القدامى كانوا على معرفة بالحرب النفسية وأساليبها، اذ كان فرسانهم وقادة جيوشهم يستخدمونها في صورتها البسيطة العفوية، عنترة العبسي مثلاً كان ثمة سر يكمن وراء انتصاراته المتصلة على أقرانه من الفرسان، وقد كشف هو نفسه عن هذا السر حين سئل عن سبب ذيوع شهرته وأخبار شجاعته الخارقة فأجاب بقوله: «كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزماً، وأحجم اذا رأيت

الاحجام حزماً ، ولا أدخل إلا موضعاً أرى لي منه مخرجاً . وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله . » ، ومن هذا القول يتضح أن فارس عبس كان بارعاً في التخطيط الحربي براعته في الحرب النفسية.

وكان عمرو بن معد يكرب فارس أهل اليمن في الجاهلية والاسلام ، وعلى رغم شجاعته الاسطورية أقر أنه كان يخترع الاخبار التي تشيد بشجاعته وإقدامه وتبرزه في صورة البطل الذي لا يقهر ارهاباً لخصومه من فرسان العدنانية ،

وافتعال الاخبار لتضخيم شجاعة الفارس وتخويف الأعداء من لقائه لم يكن من الأمور النادرة ، وممن عرفوا بذلك الشاعر الصعلوك تأبط شراً الذي ادعى بأنه لقي الغول في بعض أسفاره وأن قتالاً دار بينه وبينها انتهى بصرعها ، وقد دعم قصته الملفقة هذه بأبيات من الشعر يقول منها :

وأنّي قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فشدّت شدّة نحوي فأهوى لها كفّي بمصقول يماني

فلم أنفكّ متّكئاً عليها لأنظر مصبحاً ماذا أتاني

اذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقا مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان

ومن الأساليب التي كان المتبارزون يلجأون اليها لبث الذعر في نفوس أقرانهم انشاد أبيات من الرجز قبل بدء القتال يشيد فيها الرجل بشجاعته وقوته ومضاء سيفه.

وكذلك كانوا ربما لجأوا الى الصياح عند احتدام المعركة ارهاباً لعدوهم ، ومن هذا أن شبيباً الخارجي كان اذا لقي جموع أعدائه صاح صياحاً رهيباً فيفرون من لقائه لا يلوي أحد على أحد ، وفيه قال أحد الشعراء :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريح عاصفة والموج يلتطم

ومن أساليب الحرب النفسية ارهاب القوم أعداءهم بعرض ما لديهم من قوة وسلاح وعدد كثير ، على طريقة « استعراض العضلات » وكذلك انذارهم وتوعدهم من طريق الرسل والكتب بما سيلقونه على أيديهم من قتل وتنكيل .

وقد لجأ الحجاج يوم وُلي العراق الى طريقة مسرحية يحمل بها أهل العراق على الطاعة بعد أن ضاق بنو أمية بعصيانهم وثوراتهم المتصلة ، فدخل المسجد معتماً بعمامة

قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وصعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم ، حتى توترت أعصاب الحاضرين وضاقوا بسكوته وتعلقت أبصارهم جميعاً به وأرهفوا أسماعهم لما سيقوله ، حينئذ فقط حسر اللثام عن وجهه وفجأهم بقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

وكانت غاية الحجاج من سلوك هذه الطريقة المسرحية القاء الذعر في قلوب أهل العراق وطبع صورته المخيفة في نفوسهم ، وقد تحقق له ما أراد . وكان من عادته اذا خطب ان يستهل خطبته بصوت خافت لا يكاد يسمع ، ثم تشتد نبرته ويرتفع صوته شيئاً فشيئاً حتى يزجر الزجرة يفزع بها أقصى من في المسجد ، كل ذلك للتأثير في سامعيه وارهابهم .

وكان قادة الجيوش يوصون جندهم عند قتال أعدائهم بطائفة من الوصايا من شأنها إرهاب أعدائهم والقاء الذعر في نفوسهم ، فكان قتيبة بن مسلم يوصي جنده بقوله : « اذا غزوتم فأطيلوا الأظفار ، وقصروا الشعور ، والحظوا الناس شزراً ، وكلموهم رمزاً ، واطعنوهم وخزاً » .

والجانب الآخر للتأثير النفساني هو بث الحمية في نفوس المقاتلة ودفعهم الى الاستشهاد في ساح الوغى . وهذا الجانب عني به العرب عناية كبيرة واصطنعوا لتحقيق هذه الغاية سلاح الكلمة ، وهو أقوى سلاح عرفته البشر ، فكان قادة الجيش يلقون الخطب الحماسية يلهبون بها مشاعر الجند ويهونون من شأن أعدائهم . والعربي بطبيعته سريع الانفعال تكفي كلمات قلائل لتأجيج عواطفه وإلهاب مشاعره ، ولا حاجة الى الخطب المطولة . وخطبة هانئ بن قبيصة في التحريض على قتال الفرس يوم ذي قار نموذج لهذا الضرب من الخطب في قصرها وايجاز عبارتها وبلاغتها : « يامعشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، ان الحذر لا ينجي من القدر ، وان الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره . الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور . يا آل بكر ، قاتلوا فما للمنايا من بد » .

وخير ما يمثل خطب التذمير والتحريض على القتال خطبة طارق بن زياد المشهورة يوم فتح الاندلس ، وقد مهد لها باحراق السفن حتى يقطع أمل الجيش الفاتح من العودة ويملأ صدور الرجال عزيمة وتصميماً على القتال حتى النصر .

وكان قادة الجيوش يستعينون بطائفة من العبارات لدفع المقاتلين الى الاستماتة في

مجالدة العدو ، ومن ذلك كلمة أبي بكر المشهورة لخالد بن الوليد : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، وكان خالد بن الوليد يسير بين الصفوف ويحرّض الجند على القتال بقوله : « يا أهل الاسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر النصر » . وكان القائد ربما خاطب جنده سائلاً اياهم أن يعيروه جماجمهم ساعة من نهار .

ومنذ الاسلام أصبح من المألوف الاستعانة بطائفة من الخطباء ترافق الجيوش الغازية هم الذين عرفوا بالقُصّاص . وكانت مهمة القاص اثارة الحماسة في نفوس المقاتلين برواية أخبار الفرسان المشهورين من العرب ورواية أشعار شعرائهم وحثهم على الاستشهاد بترغيبهم بثواب الله الذي أعدّه للمجاهدين وتزهيدهم في الدنيا ومتاعها الباطل . وكان القصاص يستعينون في سبيل ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بالجهاد . وربما كان خلو الجيش من هؤلاء القصاص من دوافع هزيمته ، ففي احدى الوقائع التي دارت بين بني أمية والخوارج سأل عتاب بن ورقاء قائد جيش الأمويين : أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد ، ثم سأل : أين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد ، فأيقن حينئذ بالهزيمة .

لعبت الكلمة دورها في الحروب اذن منذ القدم وما زال لها هذا الشأن العظيم حتى اليوم ، وانها لقادرة — اذا أحسن استخدامها — على تحقيق المعجزات .

رسالة إلى مغتربة في أمريكا

إلفة الادلبي

في اواخر حزيران الهزيمة من عام ١٩٦٧ وردتني رسالتك حين كنا في غمرة الحزن ، في أحلك ساعات المحنة ،حين كانت الدموع تجمد في المحاجر من هول الصدمة، حين كنا نحس ان قلوبنا تتمزق ونحن نرى ارضنا الطيبة تنزلق من تحت اقدامنا في ايام معدودات ، حين اوشكنا ان نرثي كرامتنا ، مجدنا ، تراثنا ، ماضينا المجيد كله .

في تلك الفترة العصيبة وردتني رسالتك القاسية ، انهمرت دموعي المتجمدة تحت وهج كلماتها التي كانت وكأنها قذائف جمر تنطلق من أتون مستعر لتنصب على امتك كلها من المحيط الى الخليج .

بكيت بحرقة عليك : على ملايين الشباب العرب امثالك الذين تجرعوا غصص الهزيمة وهم في عنفوان الشباب وزهوه واندفاعه ولم يملكوا سوى ان يقفوا تجاه هذه الهزيمة المرة مكتوفي الايدي ، ملجمي الافواه .

استحال بكائي نحيباً وانا أتصورك وانت تصفين لي موقفك الرهيب وقد شاءت الصدف ان تكوني العربية الوحيدة بين جمع غفير يشاهد عرضاً على التلفزيون لهزيمة بلادك .

الاسرى المصريون يسيرون منهوكي القوى ، ممزقي الثياب ، حفاة ، على رمضاء سيناء الملتهبة. كلاب الصحراء تنهش جثث الشهداء .

المذيع يعلق بسخرية لاذعة على أخبار هزيمتنا ، الجمع الغفير يضحك يا للفظاعة!

كيف استطاعت الدعاية الصهيونية ان تقتل النبل ، والشهامة والانسانية في نفوس كثير من الناس الى حد تجعلهم يصفقون للكلاب وهي تنهش جثث شهداء بذلوا دمهم في سبيل وطنهم ، في سبيل الشرف والكرامة، وقد اجمع البشر على احترام الشهداء منذ كانت الحروب ؟

ايشمتون بذل الأسرى ؟ وللأسرى حرمة عمل بها كل من خاض الحروب .

أليس هذا منتهى الوضاعة ، واللاانسانية ؟

كنت وحدك بين هذا الجمع المسعور ! ... لا تجرئين على اطفاء التلفزيون ، لا تجرئين على الكلام ، فالهزائم – كما تقولين – لا تبرر ، لا تريدين ان تنسحبي فالانسحاب من موقف كهذا اعتراف بالهزيمة ، وربما أثار الشماتة والضحك ، لا تملكين سوى ان تحبسي دموعك ، وترسمي على شفتيك ابتسامة لا مبالاة وتحد ، ويعلم الله كم بذلت من جهد حتى نجحت في ذلك . فالبكاء أمام الاعداء ضعف وتخاذل . ولما انتهى العرض ، وكان صبرك قد نفد ، وخشيت ان تنهاري ، عندئذ انسليت دون ان يشعر بك احد الى الحمام وأوصدت الباب خلفك وأطلقت لدموعك الحبيسة العنان ورحت تضربين رأسك في الجدران ، تشدين شعرك وأنت تجأرين كلبوة جريح .

كيف ، كيف انهزمنا ونحن مئة مليون ولدينا كل امكانات النصر ؟؟!..

هنا وقعت الرسالة من يدي ، وتملكني شعور غريب أسلمني الى ذهول فرحت أحدق الى لا شيء وأنا أردد كما كنت ترددين كيف ... كيف ...

ثم صحوت من ذهولي وقد راح يراودني شعور هادىء ومنطق حكيم سليم : مادامت هذه الثورة الجامحة تتأجج في صدور شبابنا ، وهذا الرفض للهزيمة يسيطر على كل تفكيرهم فلا بد لنا أن ننتصر ولو بعد حين . وسعيد من يظل منا حياً حتى يرى ذلك النصر .

ماهي الا جولة والحرب جولات .

التقطت الرسالة ثم طويتها وخبأتها في مكان أمين ، وقد بدأ الأمل يتغلب في على اليأس . فآليت على نفسي الا أجيبك على رسالتك هذه الا حين تنبثق طلائع النصر . وهاهي ذي قد انبثقت في أسرع مما كنا ننتظر ، فمن أين أبدأ ياعزيزتي ومواقفنا الآن كلها تستحق ان تكون بداية طيبة .

لاشك أنه قد بلغك ان خبراء عسكريين من أمم محايدة قد شهدوا بأن عملية عبور قناة السويس ، وتسلق مرتفعات الجولان ، كانتا من أهم العمليات العسكرية التي سيسجلها التاريخ ولكنها ليستا في نظري انا اهم من الانتصار على الحرب النفسية التي ظلت تشنها علينا اسرائيل منذ صممت على اغتصاب فلسطين الى يومنا هذا .

لقد خطط لهذه الحرب الخطرة علماء النفس الصهاينة وجندوا لها الاذاعات والسينمات ، والصحف ، واشتروا كبار المؤلفين الاجانب -- وما أرخص الضمائر في عصرنا هذا -- ليؤلفوا لنا الكتب ويدسوا فيها السم بالدسم ، ثم تترجم هذه الكتب الى اللغة العربية ثم يعمل العملاء على تقريظها ، ورواجها بيننا ، ليجعلونا نفقد الثقة بأنفسنا ، وقادتنا ، ووسائل اعلامنا ، وأخلاقنا العربية الأصيلة ، وقدرتنا على الحرب ، ومع الأسف استطاعوا ان ينجحوا في كثير من المجالات . لكن هذا النجاح باء بفشل ذريع ، انهارت صروحه كلها في ساعات النصر الاولى ، فاذا نحن غيرنا بالأمس ، كأننا قد ولدنا من جديد .

سرعان ما أصبحنا نثق بأنفسنا وقادتنا ، ووسائل اعلامنا وقدرة جيوشنا على القتال .

سرعان ماتغلبنا على خلافاتنا ، كأن بشائر النصر كانت بلسماً سحرياً مايكاد يمس جراحاتنا حتى تلتئم كأسرع ماتلتئم الجراح ، واذا نحن كيان عربي متماسك كما لم يتماسك

أبداً حتى في تاريخنا البعيد . واذا اسرائيل جزيرة صغيرة في خضمنا العربي الكبير الذي لاينفك يكبر ويكبر ، ويتدفق كما تكبر البحور وتثور ابان العاصفة . فكيف يكتب لاسرائيل البقاء أبد الدهر في هذا الخضم الذي يحيط بها من كل جانب ؟

دم الأخوة العرب يمتزج بترابنا ، يجري سخياً على أرض الفداء ليحررها من مغتصبيها .

وتتوالى أخبار البذل والبطولات .

ضابط مغربي يهدد بالانتحار ان لم يوضع في الصفوف الامامية ، ويؤكد للقادة انه ماجاء من بلاده البعيدة الا ليستشهد في سبيل القضية العربية ، فكان له ماأراد .

جندي عراقي يلبس درعاً من المتفجرات ويقتحم المعركة ليشق الطريق أمام رفاقه .

أمهات الشهداء يرشفن الدموع ويرددن ابتسامات وزغردات للنصر . الذين انهدمت بيوتهم على أولادهم وزوجاتهم يتذرعون بصبر عجيب ويقولون كل شيء هين في سبيل النصر .

وماذا أحدثك عن ارتفاع الروح المعنوية عند الناس جميعاً ؟ لو انك ترين اهل دمشق يقفون في الشرفات والشبابيك ليتابعوا معركة جوية بين طائراتنا وطائرات اسرائيل ، لا أحد يشعر بالخوف من يستطيع ان يختبىء دون ان يكحل عينيه برأى الطائرات الاسرائيلية تحترق في أجوائنا ، تحيلها صواريخنا الى اكر من نار وخيوط من دخان .

من قال ان جنودنا لايحسنون تكنولوجيا الأسلحة الحديثة ؟؟

ابن جارنا الصغير يقول لرفيقه :

انظر الميغ ١٧ تطارد الفانتوم .

يقول رفيقه :

لكن الفانتوم أقوى .

يجيبه ابن جارنا الصغير باعتزاز كبير :

لكن طيارنا أشجع .

ويشاء القدر ان تتحقق نبوءة الصغير فتهوي الفانتوم الى الأرض ويصفق الصغار .

فتياننا وفتياتنا الذين كنا نتهمهم بالميوعة واللامبالاة ينقلبون بين ليلة وضحاها الى جادين ونظاميين يعمل كل منهم في ميدانه في سبيل المعركة .

أليست هذه هي الاسلحة التي لا تقهر ، ولا يأتي عليها الفناء ، سلاح الايمان الصادق ،

والعقيدة الراسخة . أليس هذا كله اروع من عبور القناة ، وتسلق مرتفعات الجولان ؟

أروع من حربنا البترولية التي بلبلت اوربا واميركا ؟ وأهم من انتصاراتنا السياسة على المستوى العالمي وبخاصة الافريقي ؟

ياعزيزتي

احببت قبـل أن أنهي رسالتي أن اشفي غليلك ، فاقتطعت لك بعض الصور من صحفنا ، عساها تمحو من ذاكرتك صوراً للهزيمة قلت لي انها لن تنمحي منها أبداً ، وفي يقيني انه لا يتاح لك رؤية هذه الصور وانت في اميركا لأن الاعلام الاميركي على عظمته خاضع كما تعلم للتوجيه الصهيوني يلعب به كيفما يشاء .

الصورة الاولى لمئات الأسرى الاسرائيليين يسيرون على رمال سيناء وايديهم متشابكة فوق رؤوسهم وعلى وجوههم ارتسم الذل والمسكنة ، أرأيت كيف يعيد التاريخ نفسه ، ولكن بسرعة هذه المرة اكثر مما كنا ننتظر .

والصورة الثانية لمئات الدبابات الاسرائيلية المحطمة على مرتفعات الجولان وسهوله.

أما الصورة الثالثة فقد أحدثت عام ١٩٦٧ ووصلتنا الآن حين انقشعت الأقنعة عن وجه اسرائيل وظهر للعالم خداعها ومكرها ولا انسانيتها .

الصورة كما ترين لضباط اسرائيليين يجبرون الأسرى المصريين في سيناء على خلع أحذيتهم ليخرجوا لهم تمثيلية تلفزيونية يخدعوا بها العالم ويظهروا له الجندي العربي في أسوأ حال .

لا ادري كيف تنطلي هذه الخدع على العالم ، ولا سيا على الشعب الاميركي المسكين.

أما الآن فيمكنك ياعزيزتي ان تتيهي بأمتك التي سارت في ركاب المجد حتى تنال مبتغاهـا .

وطوبى لكم أيهـا الشباب العرب ، انت وامثالك ، لأن لكم من آتيكم المشرق ، من المعارك الفنية مايتيح لكم التحمل والبذل والمثابرة على مـا بدأتم به حتى تجنوا ثمـار النصر حلوة وشهية .

عبدالوهاب البياتي

الزلزال

إلى الشاعر
عبداللطيف اللعبي
ورفاقه

- ١ -

تشرق شمس الله في عينيك اذ تغرب في قوارب الصيد
على شواطيء المغرب ، حيث فقراء الأطلس المنتظرون
معجزات القمر الولي في الاضرحة - الطلاسم - الذبائح
- النذور ، حيث النسوة المكفنات بسواد الحرق - الأطهار ،

حيث الشاعر الأندلسي يرتدي عباءة الريح ، يطير حاملاً قيثاره فوق جبال النوم ، فوق المدن المفتوحة ـ المقطوعة الاثداء ، حيث القمر الوليُ في عيون قارعي طبول الملك الأخير في قرطبة يغيب في البحر ؛ أراك : تدخلين ملجأ الأيتام ، تحملين عصفوراً ووردتين من حدائق « الحمراء » تبكين على سريرك البارد في منتصف الليل ، وفي الصباح من شرفة « أفريقيا » تطلين على عريك من زاوية المقهى ؛ أراك ـ وأنا أحمل من منفى الى منفى تراب الوطن ـ الجرائد السرية ـ القصائد الممنوعة ـ النار ؛ أراك تعبرين السوق والبوليس في المحضر ، في محافر الحدود محموماً يغطي بالدبابيس وبالشمع وجوه فقراء الاطلس ـ الخرائط ـ الذبائح ـ الأضرحة ـ النذور ، حيث الشاعر الاندلسي في سجون العالم الجديد في زنزانة الخليفة الأخير في قرطبة يموت .

ـ ٢ ـ

توقفت عائشة ، فالباص لا يذهب في الليل الى كوبا ، ولا يعود .

ـ ٣ ـ

كل الدروب أصبحت بعيدة ، لكنها مشمسة تلوح من بعيد .

ـ ٤ ـ

قال : أعود ، غارسيا لوركا ـ اذا ما انتصف الليل وفي الوادي الكبير نامت الزهور .

ـ ٥ ـ

العاشق الأندلسي عصبوا عيونه وقتلوه قبل أن ينتصف الليل ، وقبل أن يصيح الديك .

- ٦ -

قالت : رأيت الملك الأخير في قرطبة ، كان بسيف الخشب المكسور فوق عرشه متكئاً ، مكتئبا ، يهتز مثل ريشة في الريح ، كان حوله السياف والشاعر والمنجم الخصي في بلورة محدقاً ، يقول : مولاي أرى سحابة حمراء فوق هذه المدينة المفتوحة ، المقطوعة الأثداء ، مولاي أرى نسراً عظيماً جاثماً فوقك ، مولاي أرى الحريق في كل مكان وجواري القصر والغلمان بالسم يموتون ، أراك عاوياً أعمى على قارعة الطريق في قرطبة تشحذ . قالت : عندها أومأ للسياف أن يقطع رأس الشاعر - النديم . مرت ليلة ، وفي الصباح أحرق المنجم الخصي في التنور . « مولاي » انتهت . فالباص لا يذهب في الليل الى كوبا ولا يعود ، والجرائد الصفراء لا تحجب وجه قراء الأطلس المنتظرين معجزات القمر الولي . قالت ، وبكت بي في ملجأ الأيتام كنا نخدع البوليس في منتصف الليل ونمضي حاملين الصحف السرية - القصائد الممنوعة - النار الى الاضرحة - الطلاسم - الذبائح - التنور ، حيث النسوة المكفنات بسواد الحزن - الاطهار ، حيث الشاعر الاندلسي يرتدي عباءة الريح ويبكي حبه الضائع في قرطبة . رأيت : عصفوراً ووردتين من حدائق « الحمراء » في شعرك . كان « اللُعَبيُ » يعبر الشارع : من منفى الى سجن ومن سجن الى منفى . تقولين ، أنا أقول أيضاً : « انه الزلزال في الاطلس » . في « كوبا » رقصنا عندما أمطرت السماء . قال ضاحكاً « ألبرتُ » من أين يجيء النوم ؟ والبحر ولي عاشق يحمل في سلته الاسماك والمحار واللؤلؤ ، هل عاد من الغابات « جيفارا » ؟ رقصنا عندما أمطرت السماء والبحر ، ولي كان يبكي حبه الضائع في المغرب . قالت وتقولين ، أنا أقول أيضاً : انه الخليفة الاخير في قرطبة يموت .

ثم شرقت شمس ثبير

شعر :
د. أحمد سليمان الأحمد

ثبير جبل قرب مكة ، كان العرب ينتظرون شروق الشمس من ورائه لكي يغيروا . فاذا طال عليهم الأمد أخذوا يهتفون : أشرق ثبير لكي نغير !

وهذه شمس ثبير تشرق بعد طول انتظار .

لا تضيقي ذرْعاً به لا تضيقي   إن وَهَى عزمُهُ عن التحليقِ
وامسحي جرحَهُ العميقَ ومُرِّي   بحنانٍ على أساهُ العميقِ
يا بلادي تكاد تقتلُني الحيرةُ   بين التكذيبِ والتصديقِ
أهُوَ الليلُ ! لا يُحَيّيك فجرٌ   برفيفٍ ، أو نجمةٌ ببريقِ
ليس إلا هذي المناحاتُ في السَّفْحِ : أفيقي يا شمسَ ثأرٍ أفيقي !

★ ★ ★

بعضَ هذا الذهولِ عن صيحةِ المجد دَوَّتْ في فضائِنا والمضيقِ
جَدَّ في الافقِ مَشْهَدٌ ! أشعلَ الليلَ بِسَهْمٍ من السنى مَرْشوقِ
صدَّ جيشَ العِدى ثبيرٌ ! وها شمسُ ثبيرٍ قد آذنَتْ بشروقِ
أيُّ بُشْرَى ! التاريخُ هبَّ على   أصدائِها بين دهشةٍ ووثوقِ
مرَّ في جفنِهِ شريطُ بطولاتٍ   ونَصْرٍ مُؤَزَّرٍ مرموقِ
عَرَفَ الشعْرَ والأعِنَّةَ ! هذا   ما حشَدْناهُ من بَلاءٍ مُحيقِ
واغْتَرَّنا ! فهل رأيتَ رعوداً   غازياتٍ على متونِ البروقِ
واسألِ الجبهتينِ كيف مشَيْنا   في هشيمِ الأعداء مثلَ الحريقِ
وقَدَعْنا الأنوفَ بعد جِماحٍ   حيثُ عجُّوا ولا عجيجَ النوقِ
وحملْنا عليهم بسياطِ النارِ   تكْوي جباههم .. كالرقيقِ
أخذتْهُمْ حربُ العروبةِ والتحريرِ   أخذاً ! كنفخةٍ في [بوقِ
ذاكَ يومُ الحسابِ يا عصبةَ الغدرِ   فعضّي على الهَوانِ وذوقي !

★ ★ ★

الذين انتَفَضوا سُيولاً .. شِهاباً   راصداً للعدوِّ كلَّ طريقِ
يحملونَ السلامَ والأرضَ والنصرَ !   فهل كان غيرُهم بالمُطيقِ ؟ !
ما أرادوا التدميرَ والقتلَ لكنْ   دافعوا عن كرامةٍ وحقوقِ
عن أغاني الصباح تنبُتُ في الحقلِ مع القمح تارةً والشقيقِ
وعن الذكريات يشتفُّها جَفْنُ   الأزاهيرِ كالندى ، كالرحيقِ
عن عطاءِ الحياةِ أرضاً وإنساناً .. ونزّهتُ حبّنا عن عقوقِ !

★ ★ ★

أبداً لن يمرَّ غازيكِ يا شامُ ! وإما ذكرتِ غصَّ بريقِ
كيف ينسى فجاءةً عقدت منه لسانَ الغرورِ والتلفيقِ
إذ تبارى فرساننا ! يا سرايا طابَ شوطٌ على أصيلٍ عتيقِ
إنها المنوريات قدحاً ! فهبّي أسمعيني يا فتوح بالتحديقِ
شدّتِ الذكريات ما بين ذي قارَ وما بينها بحبلٍ وثيقِ
ما اللهيبُ الذي تصبُّ سوى أغنيةِ الموتِ في رهيبِ الحلوقِ
هاجمت دوحتنا قراذمُ غربانٍ أسمعت أجواءنا بالنعيقِ
صمّد الدوحُ بالجذوعِ وبالأطيارِ تشدو في كل غصنٍ وريقِ
حوّمت آلةُ الدمارِ وفي لمحٍ تهاوت الى قرارٍ سحيقِ
وتوالى ضربٌ على إثرِ ضربٍ في طريقٍ الى الردى مطروقِ
الأساطيرُ - كالدمى - عرضوها لشواةِ التزويرِ والتزويقِ
لطمتها يدُ الحقيقةِ فانهارت على دربِ حلمها المحروقِ

★ ★ ★

جيشنا والصمودُ صنوانِ في الحربِ ، شقيقٌ شدّ القوى بشقيقِ
وحّدتنا الجُلّى، وراح الدمُ النضرُ يفتدي مستنزفاتِ العروقِ
يا أعزَّ المقاتلينَ ويا أبناءَ شعبٍ في حالتيهِ عريقِ
حين يَبني السلامَ تزدهرُ النُّعمى وتزدانُ بالقشيبِ الأنيقِ
وإذا ساحةُ البطولةِ نادت مَن فتىً ! لم تجدهُ بالمسبوقِ
وبلادي ليست كحاطبِ ليلٍ فهيَ تدري عدوَّها من صديقِ
وهي تدري بأنّ سادسَ تشرينَ رمى الطوقَ للرجاءِ الغريقِ
راكباً عصفةَ الأعاصيرِ ربّانا .. وأمعِن يا موجُ بالتصفيقِ

★ ★ ★

في ظلالِ السيوفِ جنّتنا تمتدُّ خضراءَ جنةَ التشويقِ
كلَّ عامٍ في موضعِ القلبِ يا أحبابُ ينمو وردٌ بلونِ العقيقِ
تلك ذكراكمُ ! هيَ النورُ والعطرُ ونجوى مَشوقةٍ لمَشوقِ
لكمُ في القلوبِ حبٌّ مقيمٌ لازمٌ بالقلوبِ مثلَ الخفوقِ

وحنينٌ هو اللآلىءُ ، بل أغلى دموعٍ في عقدِها المنسوقِ
هكذا في الوداعِ تعلو أغانٍ برقتْ من تأوُّهٍ وشهيقِ
تلكَ أحزانُنا غديرٌ . . ونزَّهتْ صفاءَ الأحزانِ عن ترنيقِ
بينَنا أنتمُ ! فكلُّ شهيدٍ في المُلِمَّاتِ مُرشدي ورفيقي
ودليلي الى الحياةِ ، وكم موتٍ بمجدِ الحياةِ غيرِ خليقِ !
أيها الخالدونَ تاريخُنا أنتمْ بلا بهرجٍ ولا تنميقِ !

★ ★ ★

واحتويني الى معانقةِ الأبعادِ حرّاً مثلَ الشعاعِ الطليقِ
فأجوبُ التاريخَ والدهرَ .. أجتازُ حدودَ التغريبِ والتشريقِ
حاملاً نصرَ أمتي ! فارساً يزهو بسيفٍ مخضّبٍ ممشوقِ
ثمَّ يلويه يومَ سلْمٍ أكاليلَ . . ويهفو الخلودُ للتطويقِ

★ ★ ★

عقدَ النصرُ رايةً ناسجاها الجيشُ والشعبُ للرئيسِ الفريقِ
فتقدَّمْ بها على مشهدِ الدنيا بعزمِ القويِّ والموثوقِ
لا نرى للعدوِّ في أرضِنا الا بقايا حطامِهِ المسحوقِ

★ ★ ★

صفحة بطولية من تاريخ دمشق

بمناسبة الذكرى الـ ٤٨ لانتفاضة دمشق

في هذه الايام القاسية ، حيث يقاتل ابناء الامة العربية ببسالة في مرتفعات الجولان وفي سيناء ، وهم على حق ، من اجل تحرير الأراضي التي يحتلها المعتدي الاسرائيلي ، يجدر التذكير والاحتفال ببطولة وبسالة سكان دمشق الذين ثاروا في تشرين الاول ١٩٢٥ ضد المستعمرين الفرنسيين .

ان انتفاضة تشرين الاول ١٩٢٥ لم تكن وليدة الساعة ، بل كانت اوج حرب التحرير الوطني للشعب السوري ضد السياسة الامبريالية القائمة على نهب واستعباد سورية ولبنان « ١٩٢٥ — ١٩٢٧ » .

كان الامبرياليون الفرنسيون الذين حصلوا في عام ١٩٢٠ على تفويض يخولهم ان يحكموا سورية ولبنان ، كانوا يريدون الاستيلاء على كامل اراضي سورية . ومنذ ذلك الحين ، اصطدم الغزاة بمقاومة ضارية من جانب الشعب السوري . وقامت في كل مكان في البلاد انتفاضات للفلاحين ومظاهرات معادية للامبريالية . وكانت حركة التحرير الوطني للشعب السوري تلقى الدعم ايضاً في المجال الدولي . فقد عارضت الحكومة السوفييتية بحزم لنظام الانتداب المفروض بعد الحرب العالمية الاولى على شعوب البلدان العربية ، معتبرة ذلك شكلاً جديداً من القرصنة الاستعمارية . ففي ايار ١٩٢٢ ، وجهت حكومة الاتحاد السوفييتي الى حكومتي فرنسا وانكلترا مذكرة بهذا الشأن جاء فيها :

« ان فلسطين وسورية واقعتان حالياً تحت مايسمى بالانتداب . وان حكومة روسيا لاتعترف بهذا الشكل الجديد من الوضع الدولي » وفي ايار ١٩٢٤ ، اذيع بيان اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية وقد جاء فيه : « ان الامبريالية تحتل سورية ضد ارادة سكانها . . . ان الاممية الشيوعية تقف كلياً الى جانب الشعب السوري بأسره في جميع محاولاته للتخلص من النير الكريه الذي أعدته له الامبريالية الاكثر جشعاً في الوقت الراهن».

وفي تموز ١٩٢٥، بدأت انتفاضة جبل العرب التي تحولت فيما بعد الى انتفاضة سورية شاملة . وقد كانت تلك النتيجة الحتمية لسياسة الغزو التي تبعتها الامبريالية الفرنسية . وتشكلت فصائل الثوار السوريين في انحاء البلاد لمقاتلة المحتلين . فاطلق الامبرياليون ضد الشعب السوري قوات كبيرة مكلفة بسحق الثوار . وكانت لدى قواتهم الانتقامية احدث الاسلحة من طائرات ، ودبابات ، وقطارات مدرّعة ، ومصفحات ، ومدافع بعيدة المدى ، وغازات سامة . اما الثوار فقد كانوا بعيدين عن ان يملك كل منهم بندقية . ومع ذلك قاتل الوطنيون ضد هذا الجيش المتفوق تقنياً ، ضاربين المثل على الشجاعة والبطولة والصمود ! وقد قصفت الطائرات المعادية القرى الآمنة في الغوطة، واتلفت قوات القمع المحاصيل ، واحرقت القرى ، وقتلت الفلاحين ، ونظمت « قوافل الجثث » ، فخلال عدة ساعات ، سير هؤلاء البرابرة المتمدنون في انحاء دمشق قوافل من الجمال المحملة بجثث الفلاحين القتلى ، لتكون عبرة لمن يعتبر ! لترويع الناس ! وكانت بربرية المحتلين هذه ايذاناً باندلاع الانتفاضة التي كانت كامنة في دمشق . فانضم الثوار — من عمال وحرفيين وسكان المدينة الفقراء — الى فصائل الثوار الذين دخلوا في ١٨ تشرين الاول الى دمشق وصاروا في اليوم التالي اسياد المدينة بعد ان هزموا الحامية المعادية المؤلفة من عدة آلاف من الجنود . ومن اجـل سحق انتفاضة دمشق ، امرت قيادة قوات الاحتلال بقصف المدينة . وطوال اكثر من ٤٨ ساعة ، قصفت المدينة بالمدفعية الثقيلة وبالطيران ، فدمر قسم كبير من دمشق يقطنه اكثر من نصف السكان. وقتل الوف الرجال والنساء والشيوخ والاطفال او دفنوا احياء تحت الانقاض . وكان

الامبرياليون يأملون بان يقضوا في لهيب دمشق على حركة التحرير الوطني للشعب السوري. ولكنهم اخطأوا في الحساب . فان جريمة المحتلين اثارت انطلاقة جديدة للنضال التحرري الوطني . وبعد انتفاضة دمشق اجتاحت الثورة كل انحاء سورية .

ونحن ، اذ نتذكر اليوم هذه الصفحات البطولية من التاريخ ، لايسعنا الا ان نلاحظ ان تقاليد النضال المجيدة ما تزال حية في ايامنا هذه ، في المعركة التي تخوضها الشعوب العربية ضد الغزاة الاسرائيليين من اجل تحرير اراضيها ، من اجل اعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي . وهذه التقاليد تغتني بامثلة جديدة على البسالة والبطولة ، في الجبهة كما في المؤخرة ، شأن مأثرة الطيار السوري جريس حنا الذي قام حين نفدت ذخيرته ، بالانقضاض على مطاردة معادية مكرراً مأثرة الطيار السوفييتي فكتور تالاليخين ، وشأن مأثرة العامل السوري الذي قضى الليل في اصلاح دبابة ، وعند الفجر ، قادها الى المعركة آخذاً مكان سائقها الجريح ، وشأن صمود سكان دمشق الذين يفعلون كل شيء للدفاع عن مدينتهم والذين يحافظون على هدوء اعصابهم رغم الاعمال الاجرامية لطغمة العسكرية الاسرائيلية التي قصفت الاحياء المدنية في العاصمة . وقد علم السوفييتيون ، بألم وسخط ، بجريمة المعتدين الاسرائيليين الجديدة ، التي اوقعت ضحايا بين السكان المدنيين . وان تنسى الانسانية الاعمال البربرية للمحتلين الاسرائيليين الذي سينتهون الى قفص الاتهام وينالون العقاب الذي يستحقونه .

وفي هذه الايام يعلن السوفييتيون انهم يساندون بحزم النضال العادل والمقدس للشعوب العربية في سبيل حريتها واستقلالها وسلامة اراضيها ودولها، وهم على يقين راسخ من ان قضية العرب العادلة ستنتصر ، وان بسالتهم وبطولتهم في الجبهات ، وحزمهم وصمودهم في العمل ، ووحدتهم وتلاحمهم في النضال من اجل القضية العادلة ، هي ضمانه ذلك . وفي هذا النضال ، يقف الناس الشرفاء في العالم الى جانب العرب . وقد اعلن رئيس الحكومة السوفييتي الكسي كوسيغين : « ان جميع اعمالنا ترمي الى مساعدة شعوب البلدان العربية على تحرير اراضيها المحتلة من قبل اسرائيل ، وعلى الحصول على تسوية سياسية عادلة ، وعلى تعزيز استقلالها ، وعلى اقامة اقتصاد وطني مزدهر وعلى السير في طريق التقدم . واسترشاداً بهذا العزم ، سنواصل تعزيز تضامننا مع الشعوب العربية في نضالها العادل » .

نوفوستي ٢٥ / ١٠ / ١٩٧٣

الكتاب والمفكرون العرب مدعوون للاسهام في هذا المشروع الثقافي

الموضوعات المقترحة

لسلسة (أدب المعركة التي ستصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية)

١ – الوحدة العربية قبل معركة تشرين وبعدها .
٢ – اسرائيل بعد معركة تشرين .
٣ – افريقيا واسرائيل .
٤ – المشكلة الفلسطينية في معطياتها الجديدة .
٥ – البترول في حرب التحرير العربية .
٦ – الرأي العام الدولي وتطوره إزاء الحق العربي .
٧ – اقتصاد الحرب واقتصاد السلم .
٨ – المعركة الحربية والمعركة السياسية .
٩ – أدب المقاومة .
١٠ – الجبهة الوطنية .
١١ – الآفاق السياسية للمعركة .
١٢ – المقاومة قبل تشرين وبعده .
١٣ – ماجرى في هيئة الأمم المتحدة (مجلس الأمن الدولي) بمناسبة احداث تشرين (اكتوبر) .
١٤ – الرؤية اليهودية لليهود .
١٥ – أوربا الغربية وموقفها من العرب واسرائيل .
١٦ – معطيات جديدة في حركة التحرير العربية .
١٧ – مفكرون من الغرب يندّدون باسرائيل .
١٨ – دول عدم الانحياز وموقفها من الحق العربي .
١٩ – النتائج القريبة والبعيدة لحرب تشرين على اسرائيل .
٢٠ – التوازن الدولي قبل تشرين وبعده .
٢١ – الجبهة الداخلية .
٢٢ – السلام العادل .
٢٣ – معركة تشرين والانسان العربي .
٢٤ – بطولات حية في حرب التحرير .
٢٥ – صورة حية من معارك النصر في الجبهة السورية والجبهة المصرية.

«مونادا» دمشق

قصيدة نثرية في أربعة أقانيم

محمود السيّد

الاقنوم الاول

القتل: اليوتاف قابيل

المليئةُ بالحبِ ، الفياضةُ بالحبِ ، يا فارسَ التوحدِ والقتلِ تعقدُ ذراعيها على خاصرِ الذكورة .

★ ـ تنشر « المعرفة » الاقنوم الأول والأقنوم الثاني من هذه القصيده النثرية التي تقع في أربعة أقانيم .

فلتحمّل السفن بالخبز والسوسن ، وبالزهو الى قاسيون .

رمل يستحم بجسدك الفحولي ، يرشح رعشة مجلوة بالمطر ..

الرمل يافارس التوحد والقتل ، يتعلم في مسامك المتوهجة لغة الخصوبة ، أبجدية التناسل.

والرمل يتنفس حقولاً ، الصهيل يمسح كآبة الأرض : ــ

الدم فاتحة التوحد ، الدم سيد الحب . بالدم تصير المرأة أقليماً يعج بالأطفال والثمر .

البحارة في ساعات تفتحهم يغمرون الصخور بكنوز واسلحة ، يحرقون السفن المدججة ، يتوحدون مع الزبد والملوحة .

الملوحة طعم المرأة ، الزبد علامة الاحتكاك . خبز المرأة معجون بالزبد والاحتكاك .

اسمع صوتك .. لانعاس في بيادر تتعبأ بالشمس . لاظل لانثى أرحب من ابطي الفحل .

الرغبة تقرع النوافذ ، تشقق التربة ، والشوق عقاب يلتهم الكلمات . الخوف تحت الثدي ، مبارك هو الخوف مشحون بالوجد ، يتلمس نسغه النهد ، واللهاث صوت المطر ، خطوات المطر ، النداء المغمس بالوله :

مزدحمة الفصول بي ، مزدحمة التربة والماء والريح في جسدي .. والطيور هتافه يطرد الوهم على سرير الحب :

ايها الفارس المتكم على سر الفتك ، ايها القابض على رهجة الحب ، وعلى القتل من أجل الحب . لتكن انت سيد سفني عبر استوائية الطقوس العشقية ولتكن على خاصرى كالوشم ، أكن في مسامك نزيز التكهن والتجاوز ..

في الأرض يبرعم الشوق وفي المطر ، وتحت الثدي تتكىء اغنية ربان هرم مكتنز وصمرّ .

ياحبي المطهر بالدم ، مامن عشق يأكل نضارتنا ، بل نتوهج بالعشق وفي لهبة تركض نتدافع ، نزدحم ببعضنا ، وتزدحم بنا أسراب السمندر .

أما الاشعار القديمة والجديدة ، فمن شفاهنا تقلع ، تترصد العالم في رحلته ، تومىء له أن يستريح تحت الابط – تحت ابطها العالم ليس إلا طفولة وحلماً ..

نضحك للتعب ، وكلانا نهاره يتكسر مع الوعورة ، حيث الشمس تفتش خلايانا علها تتعثر بظل أو رطوبة .

ومتعبون هم .. ومع التعب تتقد شراسة الكبرياء ، تتفتح العيون ينابيع تتبرد بها الهجيرة ،

آه .. ليس أروع من تحديها الصامت ، ينهمر مع العرق مجداً ضعف الانسان.
ليس أبهى واشهى منا نحن المطوقات بالاصرار المتحفز ، وبالحب بشبائكه الحياة باالليونة والصلابة .

مامن تساؤل لحظتها ، مامن خيط واحد يربطنا « بكوسلا » ومتسع ضيقنا بلا حدود ، متسع بالجدة والانبهار ، وباللهاث يسافر بنا ولا يستقر .

– يا أختاً مهرت بالدم ، حافية متقدة تتشرب الصهيل ، وعارية كما في الحلم على الصهوة المسرجة باللهب .

ها نحن نتقدم بالقرابين ليحترق كل ماليس منا : مامن طهارة حيث تتخللنا الريح ، فلنتحد في التعالي المتوجع ، لنتحد في الايقاع وفي الانبهار المبشر بتجدد قشرة الارض . وليكن اتحادنا متجاوزاً بؤرة الهيولى ، ومرصوصاً في المسام ، وفي الحيز المبارك بهفهفة الروح .

الآن .. خلعنا نعالنا ، وأيضاً خلعنا وجوهنا ، وما من ثور خصيّ يدنس تقدمتنا على المذبح :-(نركض ونتهالك،ودونما ثمر لانقع ، اذ لا كثافة تفصل بيننا، اسماؤنا متعددة ، وكلانا واحد ..) .

أما أنت ايتها المعمدة بغواية ليست من الحلم ، فأصواتنا تتجه اليك :

اسمك ليس ابداً الاسم الواحد ، ونداؤك ليس لواحد .. وأيضاً السفن المغلفة بالمخمل وحرير البحر لا تحمل اسماً .. هي تبحر وتبحر محملة بحرارة العالم ، متعاركة مع بحارتها الجذلين بالمغامرة وحب الاكتشاف .

فمن منا لايستصرخ فحولته، من منا لايعجن التوابل بعرقه ويخبز جسده ليسارر

الارض والطفولة ، وليطارد سفينة مجهولة بلا اسم ، يبتكر فيها متمرداً آخر ، قابيل يتفاخر به تفاخر ايفيمينيا .

هاهو المتوهج بدم أخيه ، تتبعه السفن بعيون مرآة بالاشتهاء :

أيها السيد كحل أهدابنا بالتفاتة الى حيث نحن ، قف نتطهر بالدم على راحتيك، لندخل الموج الذي لا يروض ، والحب الأكثر نضارة والأكثر استعلاء على الآلهة !

.. مرحى الميل والتباهي ، للنفس المتدحرج أمام التظاهر الانثوي وفوق الجسد ـ مرحى للفارس المتخطف بالطراوة ، وبالطراوة المنخطفة بطعم الدم بلا مرارة ولا اثم .

مرحى للشره ، كل الشره قابضاً على الفاكهة في أبهة الحرص والحذر ..

حيث الشفاه تتلمس عريها الناري ، تشحذ غضارتها ، وبالتكهن والاستجلاء تتوثب فيها الرغبة ، يشرئب المتمرد على الحلم والبكارة كأزاً ومشحوناً بالتأجج ::

أواه للامتلاك متوحد الحركة ، واتساعاً أيتها المرأة اتساعاً للفيض بلا راية بلا جلجلة . والغبطة كل الغبطة للقنديل الحيواني المتوقد بالعنفوان ، وللاصوات الموزعة، الاصوات المثيرة للرحيل .

وللمرأة صوت الفارس ، للمرأة نداء الرحيل ..

قابضة أصابعي على الابتكار ، قابضة على القتل ، ومرفوضة قرابيني يا اشتهاء، حاملا جمر الوجـد ، يا اشتهاء معجوناً بالضراوة .. الدم تحت الاظـافر يبرعم بالشرر ، والدم على العشب ، وفي التربة بذار معافى .

الدم والمطر واجراس الغيوم على التلال. وفي الجسد يعسعس الليل مبتهجاً بعلامة الحب متكئة الى الصدر ، محفورة ومكتظة بالفتك .

يا للاحتكاك ! وبريق اجسادنا الممزوج بالزهر والملوحـة يتصاعد مع الموجـة المعبأة بتفتح البحر .. ومتيقظ فوق الصهوة الاشتهاء .

آه أجسادنا المعروكة بالنار والصلابة ، كم هي بهية وشفافـة حيث تكتشف الحلم، وتمحو الخطوط المتحدية للالتصاق .. وحيث تعـدو بلا كلمات عبر الصحراء ، وعبر الصحراء تطأ من ليس لغته التداخل حتى التوحد ، والاحتراق من اجل أن يكون .

لنمرج أحلامنا ، ولتمر بيننا قافلة حب لا تنتهي الى مكان ..

هاربة منك اليك ، وهارب مني إلي . تسرقني فازداد ، تشربني فأفور ، أضيق بقبضتيك ، وأتسع ماتشددنا على حصاري ..

من مثلي لا تحسد ؟! من مثلي لا تتوج على دمشق ؟..

وما من مسافة من مسافاتي لتختصر ، ما من رواق مجلل بالزعفران والجلنار كالممتد بي ، ما من جزيرة في قارتي الا ومضاءة بالتهلل .. وللحوافر ايقاع تتغذى منه الصبوة ، تعرف فيه الطفولة استمرارها ، وأيضاً النسوة تعرف كم هي سعيدة المرأة المسافرة مع – اهليليجية – آناً ترسل الدعوة بالصوت الحاني، والاغماضة المفعمة بالشعر والحنين ، وآناً الدعوة فيها حيوان يبتلع الصمت ، يركض وراء التجدد محترقاً باللذة مترمداً بالامتلاء متبعثاً بالطفل مروض الثدي !

الصوت المستبد تجذبني جبروتيه ، ترتفع بي ، لفتشني بحماس ، وبحماس يستحم فمه في حضارة تمر أكثر غرابة ، وأكثر ندرة ..

وبين يديه المغمضتين على امارتي المتنافسة ، ازدحم بالتوله أتلون بالفرح ، استبرق بالخجل قبالة الاستجداء ، بالتوجع والجابية أصلشي ، –

لك المجد أيها السيد حاضرة بين صدرك الصاخ من العصيان والمدهش ، وبين التربة المتنفسة بنكهة الشمس ورائحة الحصاد .. أسيرة تتعقب آسرها ، تهبه كلمة السر ، تطلق جديلتيها على غاربه ، وتصرخ للتجاوز !.

هاهي المتدفقة نحو القبل ، الشموخ بالانحناء للحب ، تتفوه بحق : ما من جريمة أيها المسافر بي ، والقربان الفحل فوق يديك شهادة مافينا من ملكوت للحب ، وعلامة قدسية الروح .

فلنتعر للشمس المصطافة تحت الابط ، لنتعر للبحر الطفل يتلذذ بالسخونة مابيننا ، ويقضم الحشائش المخضوضرة بالتهلل والتهيج .. وفي الخيام المقصبة بالبنفسج ، المليئة بجذور التماسك ، لينزف الصمت دمه الأبيض ..

اليد القابضة على القتل ، اليد المحروقة بالغضب والشك ، وحدها المتسعة لتتوجك يا امرأة تأبى التكرس والانتظار .. ووحدها اليد القابضة على القتل مزغفة بالحب :

أيها الرجال المعرعرون بالعظمة : بالسطوة والمجد والعظمة ، أيها الضاربون النار

المقلقون بكارة الليل .. الحب والمرأة حيث التوهج سيد المكان ، وحيث أشياؤكم وعظمتكم تلهو بها عناكب التثاؤب والملل .

ياسفناً مكتظة بأعياد الحب ، يارحيلاً متزوجاً أحصنة الريح .. نحن أيضاً نحمل جذوة التلوي والتشابك ، وأيضاً نمقت الغرف المغلقة ، تزدري الخزائن والنفائس ، تتوحم رغبة ، تمتزج بالقمح والنبيذ ، نعرف أن لاترف دوننا رجل وان المرأة في خيمة الفارس مركبة تجر الخصوبة ، تفترش الكوكب ..

آه أيتها السفن المبحرة بالفروسية والاشتهاء ، ما من رجل هنا يجرأ على الحب ، على القتل من أجل الحب . والرحم مختنقة بالبلغم . الرحم موطوءة بالجفاف ، وقاطفو الذهب مشدودون لفأر يتعكز جرادة ، وبالغبار ، بالوحل يرتسم تاريخهم المهزوم .

قل ياإبحاراً يصفع نو البحر ، يافارساً يقتحم القارات ، هل من أرق في الغرف المهيأة للتوحد ؟ .. هل من يبس في الأرض المحروثة بالدم ؟ .

.. وفي المضاجع تتعانق أصوات البحارة ، الأناشيد والتحدي :

أيها الأحبة المسرفون بالتنائي ، أيها العشاق الضالون بالعثرة . والآن ياكاهنات الحلم والتبرج ، إلام تسافرون بلا زمن وتنعقدون على الخاصرة أو بلا توجع ولا ولادة ؟

آه يا أميرات الغرف المحجبة ، ياأمومة تضطهد طيور الحب ، ياحوّراً يكتحل بالبياب .. الالوهة أيضاً تبتهج للمزاحمة . والفارس القابض على القتل ، سيد الحب ، مامن صخرة فوق يديه أثقل من التنائي ، ما من رمح ينتصر به كامرأة تتجرد كما في الحلم من الحلم .

إيه ياسيد القتل ، ياسيد الحب والقتل ، لتكن يداك أشد طهارة بالدم ، ولتكن الاخوة ، دمها القربان الذي لايرفض ، وليبارك دخول الرجل جسد الانثى ، الدخول مبتكر الطفولة ، وصانع العالم ..

يا لتلهفي ، ويا للغيرة .. الصغار يطلقون لغوهم عربات تجرها خيول منخشب ، الصغار يتندرون بعيون تراقب بحذر . والنقاوة تغتسل باقدامهم الحافية ، وفوق أيديهم يطفو الحقد الالهي ملغوماً باشارة السقوط .

وهذه الحرائق من شجر لايثمر للفريسيين ، وبالعقم تختم أفئدتهم :

أيها المتوحد في الحب ، ياثالوث المسرة والفروسية والدم ، الشفة المكتنزة بالخمر ،

والعين المتسعة على الوجد والاكتشاف .. ما من مسافة تفصل بيننا ، متعرية في مسامك ، متوحدة بعرقك ، والنساء يتناسلن بي ، وكلي يتوجع في ولادتهن !!

أيها الجند ، أيها المدججون بالأسلحة والتمرس ، والمفترسون بالتلهف والانتظار ، بعيداً عن الاسرة ، عن الاطفال والاسرة المورقة من دفء .. ها أنا متسللة الى جسد الفارس لأتفيأ التوحد الكلي .

ها أنا أيها الجند ، ها أنا أيها الغضب المتدحرج من عل مأخوذة بالفارس يعجن طراوتي ، يتوكأ نهدي ، يبتكر ، يرمّز الاشياء ..

وها صراخ آخر يترجل ثانية ، يتزحلق على رخام امارتي ، وكل ما بي مطواع للاتساع والتجدد ، مهلل للطمي الآتي مع الفيض : -

اسلبنى أيها العاشق ، انفذ بي . ولتكن - كيزتك على السرة وفوق التموج ، كجذع تتشبث به التربة ضد مراهقة الريح والاغتيال . وفي الخصر المرقش بحوافر خيل الفتح ، لتلتحم سراتنا وليحتضن النواح الصهيل ، كوسم افريقي يتنفس تحت شجر الفلفل برائحة الثمر ، وصيحة الولادة ..

أكثر اخضراراً المرأة منهوبة ومباحة ، تهبط وترتفع ، تسيل بين راحتي العاشق وفيه تختبىء منه !

واكثر فروسية هو الرجل مسكون بالمرأة ، مسافر بها ، راحته مدموغة بالدم ، جبهته موسومة بشهادة القتل !

أيها القاتل بلا اثم ، ايها الحب .. ها أنا فيك لاهبة ومتحدة ، مزهزه جرحي بنارية الرغبة ، مكسو عريي بسبائك الفحولة ، وبالتألق والمهاجة أمسح عن عينيك ظل الضحية ، قربان تدفقنا في نسغ واحد ، ونموّنا تحت غلائل الروعة ، والاصغاء لوقع البذار في الرحم بالارجوان وليل الصيف .

ولتكن أنت يافارس الحب والقتل ، سيد المبادهة ، موقت التحدي ضد الآلهة ، وضد اللا امتلاك .

أبداً متهيء العناق والحاضنة ، وأبداً العاشقة طريدة ومرشوقة بلهاثك الممزوج بالغضب والاستبداد . وأبداً صوتك الآمر مصطدم بي ، متشابك مع الحشرجة والمطول العذب .

آه يامنحة الشراسة ، ياحبي المتأجج بروعة العصيان ، والمسلح بالتحدي .. هـا أنت الآن اكثر طمأنينة،واكثرانتصاراً بالمرأة المتضوعة عند خاصرك بالتنهدوالطفولة.

ها أنت القابض على سر القتل ، انقى طهارة بالحضور الانثوي وأبعد امتلاكاً للحب، والوداعة في الحب.

أيتها الآلهة ، أيتها الآلهة المفجوعة بالغيرة والأرق ، والمنهكة برصد التدحرج والمراقبة .. اصغي ايتها الآلهة لغهرة تحمحم بي : ـ

ما من مكان لك بين جمهرة العشاق ، وفي مملكتنـا المزدهية بمشاعل الرعشات والتـأوه ، المتكتمة على خيول لم تروض ، وفوارس يغزون لمجـد الحب ، خلجاناً تعتب بالمـاء ، ونساء يجابن عريهن على الذهب المتساقط من الشمس ، دونما احتشام ، ودونما وجل ..

في مملكتنا أيتها الآلهة ما من متجسس ولا خفير . واسرتنا أبداً مخمورة ومبتهجة باعترافنا الليلي ، وخبزنا أيتها الآلهة ، ليس أشهى من خبز معجون بعرق النهار ، مقمر بتنانير التعب .

ها هم : الأيدي محملة بعطايا الأرض والبحر ، حفاة على الحصاة المدببة والشوك الاخضر ، عراة تهر الريح على صدورهم المرتفعـة بزحم من التلهف والتفاؤل . وأما البشرة فتآلف من التربة والنحـاس المحترق ، تتنفس بالصيف بالمرافىء والمصبات ، بالقمح والنارنج والزيزفون .. وجباههم أيتها الآلهـة جباه مدلوكة باسرار الصنوبر والكستنـاء ، موسومة بالتحرر ، وبتاريخ ميلاد التحدي ، جباه تتألق بين نهدي المرأة كقمر صحراوي ، لحظة اعتصار عناقيد الشبق بين الافخاذ المموهـة بمادير اللهب ، وغرابة التنوع ..

ها هم : وفي المقدمة الحبيب ، ملوح بشهادة القتل ، مزكى بالدم ، مصقول جسده ومزين بالرموز الملكية ، وما من رقم من أرقام المغـامرة والتمرد ، ما من نبالة إلا ومنقوشة على العضل والزند ، وفوق الجبهة المصورة لرقاد الحبيبة .

ولي أنا المكافأة بتعمي التلاقي ، وبالحصار ذي الشبائك القنبية ، النداء المغـذى بطقس الصحراء :

التموج كاهن اللقاح ، ومنخطفة تركب المرأة هودج العقاب لازبة على العرجون المثقل بالحبب ، والعشب المملح بالنقيق ؛ مقدمة إمارتها الانثوية عربون تجدد القضارة، وتحسس طعم الامومة .

السلام ، السلام للنبوءة ، وللدهش في نموه واتساعه ..

السلام ، السلام للاحتلال العشقي والخشوع السيد ..

ولك وحدك يا كاهنة التواشج والحب، هتاف الرجل، وملكوته المسور بالقرميد والأسلحة ، والقبل المحفورة كأفواه صخر الشواطىء :

يا حبيبة تتضوع تحت عباءتي تضوع البراءة والاشتهاء ، يا شفافيـة الطفولة ، ونقاوة الملامسة ، ليزدحم سرادقك بي :

الخلجان مروعة بالقرش ، والسفن تغور بما فيها من قمح وحرير دمشقي ..

والمسافرون يتأهبون للغرق والامتلاء بمجد البحر ..

وعبر أرخبيل اللهب الانثوي ، الأبهى تحفزاً ، والاعمق تمازجاً مع الحلم ، ينسج الدم وسادة المرأة ، يصنع أسرة للأطفال ، وللأطفال يكشف الحجر عريه وتاريخه !.

الرجل يقول كلمته : — المزدحمة بالنسغ تهجر مدن الحرير والدمى ، تفترس التوجس ، تقضم التخوم، تعرك شوك الاسيجة ، تعجن الدم بالتربة، واللهاث بالزبد ، وترسم هزيمة الحلم .. على فخذين يتعاشقان هزيمة الحلم ونكهة التوحـد والانتصار .. وبموكب طفولي تدخل دم الفارس :

آه الانثى تضيق وتتسع ، والشوق يتلمس خميرة الرحم ..

آه لحظة التربص ، حافيا يقترب الصوت ، وبالنشوة تتلقفه حمى الجسد .

.. يا أبكاراً بعربة الحلم ، الصوت الآتي مع الصيف سيدّ الامتلاك ، قريبة منه سرة المرأة المعمدة بالزيت والانتشاء ، والخاصر الموجع بالتلهف .

والصيف تبدّل الطيور مخالباً وأجنحة .. لا تثاؤب في ليل الصيف ، وليس من حرير أنفس من عري الاشتهاء ، ليس من امرأة أجل ممن تتلشى !!

فليكن سريرنا أكثر ضيقاً ، وتماسكنا بظل واحد .. ولتكن أنت أيها القابض على القتل من أجل الحب ، سيد المناخ ، بمدك وجزرك تبحر السفن المحملة بالتبغ والعنب ، بالشعر والمزامير .

.. يا نساء يتلهين بالصدف والمحار ، بالرمل يعمرن قصوراً مجوفـة من نسغ البحر .. للحرائق رهرهة الحرير والحلي ، والرماد كحل عيون لا تستجيب لصيف .

الصخر أيضاً كما تشاء الحركة ، صلابة وليونـة ، كبوة ونبوة ، متلاحم مـع الردفين في الابتكار والتناسل .. والأصداء تهرول على السفح ، مليئة بالغيث ، باللغو والطفولة ، وما يقال يترجمه فحيح مغتبط ، قهقهة مبتهجة ..

وعلى التربة والبخور ، الحناء والصعتر يزدهي بكاء الطفل .

الاقنوم الثاني

التضحية : اسكيا فبوثيا

.. بالرهبة تلاحمنا ، على الجدران قرأنا كلمات متماحلة ، والعيون ألغزت ماجهرت به !!

النساء والرجال يأكلون مرار الجنس في المدينة المشطورة. النسوة في خدورهن . الرجال في امكنة شتى ، وما من ارض محروثة بالدم ، والبذار تهدور في المجاري ، البذار تتلقفه الغربان ، وكالمخاط يمارغ التراب ، ويذهب هباءة .

ما من شوق هنا ، يحدوا القافلة عبر الصحراء ، ما من لطف تكتحل به عين الانثى ، والذكر وهواه في الرفض والقبول !

وفوق المدينة تركض الغيوم محملة بالواقع الى أرض بعيدة :

نستصرخك يافادية ،

نستصرخك يافاديا .

نعوذ بك يا إمرأة قابضة على خاتم الفحل .

نعوذ بك يارجلا قابضاً على خاتم الانثى .

فالبحر يستنقع فينا ، وما من موجة نغتسل بها من الزنخ ، ما من بحار يسقط عنا قشور التلبد وبلاهة السكون الموزع على الجسد .

مامن صوت بحري واحد يرتفع بنا صوب التوحد والتجاوز .

مامن صوت تخترق جهوريته الارض الانثى .

مامن صوت يبتر جذور السفن المكلسة بسباخها .

مامن طير يمزق مخلبه زيغ الشهوة . وكل مافينا مسبوت بالتساحق ! والوهم بلون البلغم ، يركب حرباءه ، وبالسراب يرسم وجوده الغبارية . على أتباعه يوزع صبارة الحذر ، يتكلم بحكمة العناكب :

من مجوع يتكهن لخدمة الآلهة ، على عتباتها يتحجر ، وخاشعاً يعصب عينيه عن مباهج حمراء معرمشة ، لئلا تغضب . وللآلهة المحروسة بالبواقين والجند ، تصب القاطفات والحاصدات جهدهن تمراً يتذهب في عنابر لاتشبع .

الرجال ينسجون العرق حريراً يجرحه الظل ، الاطفال يرصفون الدمع رخاماً يتعرون به ، وأيضاً الاشياء تتعرى وتعرف ازدواجيتها في غير ماحدود . ولكم أيها السجد ، الغفران لجوع يدق الشفاه المبتهلة بالشكر ..

من يجوع يأكل آلهة التمر ، وفي العيون المثقوبة ،كبئر ، يلفظ النواة، يدحرج صخرته . وكقهقهة الوديان الغورية يحفر أيامه وتاريخه ..

آه ، كم الرجل سيّد ، وكله يتزنر بالخطر ، مشوق بالعصيان ، يترمّح وينقض . وبمسامه المتراصة يهاجم « ذامسكس » يسلخ جلده ، ولأقدام الفقراء المتشيعين له ، يفصّله نعالاً ، وأحزمة لبطون بلا سقف !.

آه ، المرأة المملحة بالتضحية وحدها تجوب القارات ، ممتطية نمرها مكللة بغار الشعوب ، محفوفة بالأمهات ، الصبية والأبكار .

وبأسماء شتى يحتف لها ، لابسة هجوم الفارس ، سخية بتنهد يصير زورقاً، يجدّف به مطر الجنس .

في سرير واحد ، عبر جسد واحد تتسرب ، نشف ، وفي اللااكتشافة نبدع وطناً لا يحدّ .. ألمس وجهي هارباً ، مرسوماً بريشة مياه بلون الهات ، وبين ذراعين مغمورتين بعشب تملحه الذكورة ، تأخذ البحيرة شكل وزيم يجيء كلمات الرغبة لامرأة مجهولة ،

يا لوجهي الذي لا أعرف ، وصوتي الذي لاأسمع ، يا لتعارك بي ، يركض خارجاً بردفين يتجاذبان زمناً بلا توازن ، وأرضاً بلا مرتكز .

يا له ، الأكثر بحثاً عني ، لحظة مجدينا ، بجنائه ألبس بشرة الحلم ، على رقبتي ينبهر ، ما لا اسم له ، من عسل جلنار بريّ يتأجج بالظل والنضارة. وأي نداء لاأكون فيه ؟ والصهيل يطارد مرعزاء الابط ، الصهيل رسول أفواه بحرية تلتهج بنهدين تتخاطفها بحة أجراس الكنائس .

على مذبحك المرأة .· خلني ، لك الشكر ، مباحة ، تتنشّق حر فخذيّ حليات الأشياء المنفرجة لعذرة تواكب صراخ المخاض . وفي الحضور اغرس بي شك الثواني الهاربة بمسك الحركات ، المتزاحمة تحت قبة فوضى الجنس ..

بين يديك الجسد ، وليس من طهارة إلا وفيه ، أيها المهيمن بلا سطوة، امنحني

قراءة ما فيك من ذكورة ، أتعلم رموز النعمة والتفوق ، اختصر ما سيكون في صيحة دخول لا ترفض !

أنا ، أستغفرك ، الملوحة ترمز لي ، لا خبز بلا ملوحة ، لا ملوحة بلا بحر ، كل البحارة يقلعون باسمي ، كل السفن تعرف ما في طعمي من قرابة لطعم الدم والخصوبة!.

— ها .. أكثر ما أحببت تهبين ! وهاهو الحب الغائب يعود متقرياً أخاديد التربة البنفسجية ، حيث البذرة ترصد ثدياً يتنهد للرضاع . وأنت وليس إلا وجهك الأخضر يضيء ليلنا الاعترافي .

أيها المضللون ، المتغطرسون كدمى الشمع المريّش ؛ السعادة ليست دائماً في جعبة المنتصر ، وليس الحب في مركبة تخطف المدينة ، ليس فقيراً من تنفس العاشقة حصيرة له ، ومضمضتها الزاد ! .

.. وتلك هي تتسلق بنا سلام الشرق الآخر ، عارية إلا من جسدها المدملج بانثويات الارض النارية . ومطهمون نحن ، نمتطي فحولة المطر ، متصدّين للخطر يتقاطع مجتازاً أفواه المتاريس ، وموطوءاً ينحدر تحت حوافر الأحصنة الملتحفة بالمرافيء الابنوسية .

تلك هي .. وفي مواكب قرباني ، وما من سمت إلا إليها ، تتألق بين بنات أجسامهن محتشم بالعري .

وغداً تشهدون ولادة أخرى لامرأة بلا شاطيء :

مثل الحمامة البيضاء ، منتعلة بخور النبوة ، تهش الدعاة حتى نجمة الصبح . وكجنية متحزبة لصيف الخمرة في الجسد ، تلبس طفولة الملحمة ؛ وجهها اكثر اضاءة من الامومة على المهد ، واكثر نقاوة الصوت الموقع بوحدانية الحب ، والدم المجبول ، هناك ، بنعمة الاستشهاد .

هي متوّجة ، وبالموت تحارب ضد الموت ، مصقولة اردافها بحمى سيوف تتنافس رشاقة .. وايضاً هي مستنفرة ، ونهدها ، التحرر ، يرشق وجه آسيا ، يغزل القصائد بلون الفتح ، وشهوة الحلم ، لصغار ياجوج التخوم ، وبالنحاس والصفيح يلاحقون آثارها المهزمة وسط الطمي ..

ايه ، يامن شفاهها تؤنس صهباء الدنان ، يامن تعطي تربتنا طعم اللذة وطعم الحصاد . لمن نقرفص داخل قارورة الحذر ؟ لمن نهرب من مواجهة الحب الخطر ،لمن

نسوّر قاماتنا ، ولغير استبسال . . ودمشق وحدهـا الحقيقة المرصعة بمرجان الدم . وحدها المرأة فيها قديمة لاتؤرخ ، جديدة لا تستنفد !! هي اكثر وداعة والمساء ينسج تموج المسافة المتقهقرة امام العائدين من عشاق المأساة.واكثر قوة هي بالصمت ضمن عباءته ، العظيم ينجز ، والكلمة تستعير لغة الفعل ! ـ

الحب يقود الجسد ، ودونما انذار يشلع ابواب المدينة الممرغة ، يبطل كونهـا الحجري المنضد ، كما لا يضاجع ؟ ويدخل بها ملح انوثة غيابه ملاصقة حرارة ميلادها، وكلها حي يمسك بولادات تتمخض بلا قاعدة .. (تسامرنا ، تطرد ماليس يسكن الدم ، وعلى الاطفال توزعنا . خبزاً مغمساً بالأمـل ، وفحولة على اسرة تستضيء رغبة الفهد .. تهتف ، وتراقب ، وفوق المياه الليلية يطفح وجههـا وسط هالة من عذوبة مقطفة ؛ تطارد بها ، ظباء صغيرة تتلفظ لزهر الخشخاش تحت نون الجفن ..) .

مرحى ، مرحى لكن ، وكل واحـدة تزخرف عاشقها باعضاء الوله ، الوحشي منها المزدحم بقوافل مشرقية تتكم ، والانسي المطعم باسفار الحمد والشكر .

وللرجال مرحى ، اذ يبطلون معنى الموت ، وبلا منة ، يبذلون ذهب الكينونة الحار للحب المتهم في الحالات ، والمشرّد بلا زاد ، في امكنة غير مأهولة .

ومرحى لكل الذين يصرون على حبي ساعة المعركة ، قلة هم؛وكثرة الذين رأيتهم يسلخون وجوههم ، وبها يشترون اوسمة ملونة ، بطاقات مغلفة بالرصانة ، يتعكزونها الى اقفاص من مجد محلى بالنسيان ، يعظ فيها البطر ، والمعصية تتجلبب، تتبرقع بدمع الطاغية ، لكن ، ليست أمهر حية من دود القبر ! .

. . رجل واحد يخترق خريطة البكارة ، يغيب وطعم المرأة فرات يقطف على الرمل ،يستنشق في الامرة .

وبرجل واحد لتفيأ طفولة الوله تحت هدب العاشقة . نتزنبق في الرحم . لتعرى اصيف الينابيع المموه بلهاث نساء يضمخهن الوجد ، نسكن فم الأنهار ، وحوارنا اكثر تلوناً من عنبر مروع تجاوزغلائل المياه. آنذاك الملك خادم للفقراء ، واحد من نسل عبر السرادق الاميري ؛ لا من الآلهة هو ، ولا جده « جارباس » ؟

فيا أيتها المرأة المضاءة بالحب الشعبي ، يا أرضاً محروثة بالدم ، لنكتشف«اللحظة» كل السنوات ، لتختصر المسافة ، وجـداً واحداً نكون تحت نورج السيوف العشيقة ،

نشيداً واحداً يحس الصلابة ، يحررنا فلا نعرف بقانون . . ودائماً هي أصواتنا لتكن الآتية دونما تكرار .

بالقتل نبتكر ، بالقتل ندخل بطانة الاشياء ، حلاوة الثمر . وبالقتل يا ثالوث المسرة والفروسية والدم ، ندحرج القـارات كرات من طين معجون بسخونة الحب لأطفالنا المتصدين أبداً لبهكنة الشمس ... الأطفال يترجون فحولة المطر ، انوثةالتربة. والعشاق المغامرون يركبون الثيران الضخمة عبر مقاصير البحر ، المرتكزة على أعمدة التأوه وكرز الجنس المقفطن بقرنفل حار . هناك تستوطن شفاهنا كلمات التنهد ، والنسوة يرقصن ، كما الافاعي المرقشة بالشبق ، لاهثات تيارات المياه الاكثر حرية من طعم عذراء تخلع ثوب الانتظار على سرير الفارس . هناك أيضاً ، كل فوق مهرته يحدف بأنشودة بكر ترتفع به حتى نهد الحبيبة ؛ مغتبطاً للرغبة تحصد فيه السكون والعطش ، تحاصر شراستها نمو الاباحة في ردفي امرأة يعرك تحت ترسيها القمح بالنبيذ، والليل بالنهار . .

والمرأة ترصف ازهار الاقحوان البيضاء ، من العشب تجدل تحتها أخضر كعيني عصفورة جبلية ، فوقه تطرز بشرتنا ، تصقلها الشفيرة المتجهة بعذوبة صوب مصبات القبل ، وهي تهبط حافة الجنون ، باحثة عن انه المقفطن بقطب الفخذين ، وعن قنديل ينغرس وسط قبة التهلل .

.. في القطب تتآكل المسافة والزمن ، والموت يصير وهجاً يشب فيه التناسل .

هذه الصيحة وحدها تشتعل بالدم ، وما من سفر آخر يقودنا ، الا وباطل يهمز جواداً من قش . لكننا نتحزب ، وفي المدينة نأكل طعام الطاغية ، نتسلح به ضد أنفسنا ، وايضاً ضد الطفولة !

« قبالتك ، وفي بيت الآلهة ، كن الكل ذكورة باسم الشعب ، وخادمتك ، أنا المرأة ، وليس للملك ، السربل بك ، تدخل بي عراقة الحب ، نبالة الولادة . »

« قبالتك ، أيها الكاهن ، بالتوحد نتحرر مما ليس منا ، نكتشف وجه قمرنا الذي ليس مستعاراً ولا ظلاً . والذي ابدأ بولوجه حلبة الجابية بعنب كرم - ثانيت - ».

قبالتك .. تنهبني وتكافأ ، يا سيداً ليس فيه مـا يلجم ، يتقوس ويسف ، وبالمبادهة يحتزم أكثر من عناق في جسد ..

أعرف ما بي ، مما أجهل ، في عينيه اعمق تقرباًإليه مني ؛ وفي الحضور المتحفز كقرني ثور مصارع ، التمسه بالغياب داخل هبوبي القرمزي .

أنت . يا من يستوطن ، لا ، أيها الحب ، ما فيك لي ليس مما يحد . وأنا لست مكاناً ولا زمناً ، ولست أكون الا في الحب،فوق سريره أعضاء الانثى تتنافس شفافية، تعرف ولا تسمى ، وهي أسيرة وحرة ، مباحة وغير ممتلكة .

وهذا النشيد يرفع محضوناً بفجر يولد وسط ليل الحب .

عبثاً نشهد لشمس الطالعة ، وما من توجع معصب على الخصر ، يزنر التلال والشجر .

عبثاً نتعرى للمطر ، وما من نسر يعاقب انثاه الصابية الى مدينة نساؤها يسكن الحلي .

عبثاً نفسر الشوق بالدمع والحنين بالكآبة .

عبثاً الزهرة تتبرج بزخرف الآلية .

وعبثاً نسافر في بحر بلا ملوحة ، في ارض بلا زبد ، في زمن بلا احتكاك .

عبثاً ، ايها الاحباء ، ما يدّخر لغير الرحيل العشقي .

عبثاً تشرب نبيذ الحلم ، اصواتنا المجوفة .

عبثاً نتهنس بضحكة تتطاول مع الهواء ، ولا تثقب الحجر .

عبثاً تركب زوارق النجاة من موت يفصل همومنا ويقطن الدم .

لأكن الملوحة ، وطعم التربة على لسان الشتاء ، ولتكن أنت سيدي الذي أتلوح اتلوح بسيفه ، وانضج تحت ابطه .

أنت وحدك ابحث فيه ، عما يستيقظ بي ، جواباً بحيرات المرأة . هل المرأة كسفينة ،إلا لك ؟ ! . . مرحباً بالربان ، العاشقة تتعرف الى تنوعات جسد متطرفة وشيقة ، أن يضغطها حشده المتجدد والمستبد .

لكن حالما تلبس طواعية القربان ، الجد كل الجد يحضر ، كما ليس يوصف ، اعيدها المزدهية ، في حقول يتربص بها الوحم،وفوق اسرة مفروشة بالتلاحم، مسقوفة بالمطر .

ساعتئذ ، الحيوانات تحلم،الحجر يتقسن ويتأرج،وايضاً ملوك المجوس يتدافعون ممتزجين مع التربة والملوحة .

وهكذا . . عالياً اسكن جلناريتي ، ادمشق يا لفارس جبينه ليس من قمح مستورد ، ودمه ليس ماء . هو انت الطالع بين ظلال الاستفهام والعجب ، اودع هدوءا ، اقوى شكيمة ، كذلك اكثر استهلاكاً للموت المرصع بالفجاءة والغرابة .

.. ايها الحوت المموه بزي الفقراء ، يا لسان الحرباء اللزج على الفريسة المخدوعة ، ها أنت تأكل خبزاً مغمساً بالفضة . ها أنت، يقول المكلس باسمك ، تشارك طفله الثدي، وفي السرير الواحد تنهض، أيها الحوت ، سوراً مطلي بقار الكراهية .

ها أنت خائف ، تهر أنيابك الملولبة ، ووجهك الغباري يسقط تحت نهد المرأة الحصن بزهر التناسل .

النهد يتعوم لابساً نسرية الانتصار ، هو أكثر مهابة قبيل الاحتدام ، واكثر حصانة بالمد المتطوع مع الجنيات وهرج الأطفال ، حين أهبط عذراء تحتل نكهتي غرفك السرية،محررة ما ليس يحصى من فقاعات تتسلق حبال المياه كعلامة من علامات الحب المصر على التزاوج وسط سرير الموجة ، وتحت قوس البذرة .

وصباحاً أيها الأحبة ، مع الخطوة الاولى لطفولة النهار ، صباحاً أيها العشاق ، والحوت خيط أسود ينتعل قراص الهزيمة،أتنفس في الخادع ، في الشفة اتبرد بعقيقية تفتق احزمة الليل ، ووحيدة لا أكون مع برعم تتأنث به النداوة . وحيدة لا أكون والنهر ينهب سفينة القراصنة ، الحرير لامرأة بلا ثدي ، العطور الصبية تدلك بالوهم ، التوابل لي وعسل البعل .

وبالحب وحده ، إيها العشاق ، انا المرأة ، اديم العالم بسرقي ، وحيث لا أرشق لا يكون !

يا ياسمين دمشق

سليمان العيسى

تَسقي منَ الأزلِ السحيقِ وتَسكَرُ
ماذا أقولُ .. وأيَّ خمرِكَ أعصرُ ؟

يا ياسمينَ دمشقَ .. مُدَّ بيارقي
مُتَعطراً بملحمةِ الرسالةِ يَهدرُ

يا ياسمينَ دمشقَ . . عطركَ أبيضٌ
وتغطرسَتْ أفعى . . فعطركَ أحمرُ

وغضِبْتَ . . فالوطنُ الكبيرُ عَباءةٌ
حطت على بَردَى ، ونَسْرٌ أسمرُ

هَشَّمْتَها أُسطورةً . . وذرَوْتَها
كلُّ الغزاةِ على العبيرِ تكسَّروا

كلُّ الغزاة . . وظلَّ قِنديلُ الهوى
أبداً على العطرِ المُدَلَّلِ يَسهرُ

كلُّ الغزاةِ . . ولم تَجِفَّ منارةٌ
يا ياسمينُ . . ولا تَزحزحَ منبرُ

تمتدُّ يا لونَ العبيرِ جَهنَّماً
فوقَ الرمالِ . . جهنَّماً تتسعَّرُ

وتقهقهُ الصحراءُ . . تحتَ نِعالنا
سوداءُ من قصصِ الجريمةِ تُقْبَرُ

* * *

يا ياسمينَ دمشقَ . . طَوْقٌ واحدٌ
وطنُ العروبةِ بالأريجِ مُسوَّرُ

بالنار ، بالغضَبِ المقدَّس ، بالرؤى
بالأنبياءِ من الترابِ تفجَّروا

من كل زَنبقةٍ أطلَّ مقاتلٌ
من كل سوسنةٍ تحدَّرَ خنجَرُ

وُلدوا على بَردَى مروجَ غمامةٍ
بالصاعقاتِ ، وبالطفولةِ تَزهرُ

وُلدوا على سيناءَ مثلَ قصيدةٍ
في بال مُعجِزة الرؤى لا تَخطُرُ

من أينَ ؟ من أعماقِ الثرى
قَدَرٌ يُزيحُ غِطاءَهُ ويزمجرُ

* * *

يا ياسمينَ دمشقَ .. مِفتاحُ الضحى
بيدِ العبيرِ .. حضارةٌ لا تُقهَرُ

يا قامةَ الغضَبِ الذي لا ينحني
ميلادُكِ العربيُّ أخضرُ أخضرُ

يا ياسمينَ دمشق .. وحدةُ أمةٍ
بدمِ المنشورِ ..
دمِ المنشورِ ..
تُسطَّرُ ..

★ ★ ★

محمد القيسي

قصائد

أ — رأيت أهل الشام

الى دمشق وجاراتها

(١)

وجهكِ يا وديعة البلدان ، يا مكابره
حديقةٌ وقبْره
وجهكِ مهما شوّهَ الأعداءُ والقياصره
يضيء بالغناءِ والوثوب ،
يستحيل مقبره

لكل فاتح ، يظل قنطره
مهورةٌ بالحب والرياح والسواعد المثابره
وجهكِ يا دمشقْ
اغنيّـةٌ وبرقْ
رمحٌ وياسمينةٌ وذاكره
وأنت تعبرينَ شـارةٌ مرفوعة ، وراية مرفرفه
وتطلعينَ عاصفة
تخاصرينَ الموت والحياة ،
في طفولةٍ جديـدةٍ ،
توقّعينَ مارشات النصـر ، في حرارة المخاصره .

(٢)

حملت من بغداد قامتي وجئت
رأيت في الشوارع المعبّأة
بالنـار والاصـرار والمفاجأة
رأيتها الصبيّـة المحاربـة
تصعـد في تهليـلة المقاتلين
تصعد وهي غاضبه
رأيت أهل الشـام والمقاومه
رأيت عبدالقادر الشهيد ، والقسّامَ ، والمجهولَ ،
ينهضونَ من رقادهمْ ،
سحابةٌ على دمشق حائمه

رأيت حيفا فيكِ ، غزّةَ السبيّةَ الضياء قائمه
رأيت فيكِ الناصره
رأيت جلّ ما رأيت :
اللهَ ،
والجوع .
والهضبة المحاصره .

ب ــ الهديئة :

تليقينَ للعرسِ والزفّةِ العربيّه
تليقينَ للأغنيات ، تليقين بالعزّةِ الأمويّه
بكلّ الرياح تليقين ، كلّ الجراحِ ،
فكل صباحٍ عليكِ مضيءٌ ، وكلُّ يد مزهويّه
يجاورك الموت والياسمينُ ،
وعنقكِ يمتد أفق حمامٍ وحبٍ ،
وينداح عبر المدى ، والصدى ، بابنيّه :
يخاصرها الفرح الآدميُّ ،
فتطلع طيراً جميلاً على بندقيّه
سألناكِ أن لا تردّ يداكِ الهديّه .

عمّان

الفجر

الى الذين لم يروا سوى وجه
نكسة حزيران الاسود

ميخائيل عيد

دقي يا أجراس الوعد المزهر
لحن الحلم الأخضر
دقي ...

يتفجر حبي في الضوء
دمـا
ينهض من دفق سواقيه
الوطن الطامح
يرتفـع الحـلم ليصبح
راية جيل يتحرر

* * *

من أين تدفق
هذا النهر الدموي
أما قال الشعراء :
يبسنا ؟
أسمعت الشعراء الحمقى
كانوا يبكون الايام العجفاء
ويشكون العقم
وكم صرخوا :
لا جدوى ؟

* * *

دقي
يا أجراس دماء الشهداء
دقي
كي يفهم حذّاقُ الكلمات السوداء
ليروا بالعين وبالحس وبالسمع
نهوض الوطن
الرافع فوق دماه جبينه

* * *

هلا قلتم : وطناه ؟
لسنا . . . امنا

هلا قلتم وطناه !
ارحمنا
فلقد دنسنا بالهذر ثراك
وها تهنا

* * *

من هذا الراكب عبر الفجر
الخابط جلجة الآلام
وفي يمناه بروق النقمة ؟
من هذا المغسول
بوهج الاحلام
بشوق الصحراء
بكل حنين المنفيين الجوعى ؟

* * *

الوجه السمح الاسمر
هذا وطني
والمهر العربي الجامح
هذا وطني
ولقد أمنت
ولم اكفر
هلاّ قلتم ،
وطناه !
لسنا . أمنا ؟

دور الاقتصاد الوطني في حرب التحرير

يحيى عرودكي

مع التقدم العلمي والتقني ، وارتقاء المعرفة والفنون ، ومع التطور الحضاري ، الذي حققته الانسانية في مختلف المجالات المدنية والعسكرية ، وما اقتضى ذلك كله من الترابط والتشابك بين العديد من الفروع الحياتية للشعوب، فقد بدا دور الاقتصاد الوطني أكثر بروزاً من يوم لآخر ، ليس فحسب بالنسبة لهذه الفروع ، وانما أيضاً ، في اطار

السلاح والكفاح ، وبالنسبة لمتطلبات الجيوش من المؤن والعتاد والتجهيزات ، بل ولمقتضيات الأعمال الحربية ، في التحرك والكر والفر ، والتمركز والانطلاق نحو الاهداف المرسومة .

فلقد أدى انتقال الجندي من راكب صهوة جواد أو مترجل ، الى نسر يطير في الأجواء ، او رام من فوق درع يدر بجنزراته ، بعد أن كان بالترس يحتمي من السهام المتطايرة من خصمه ومن ضارب سيف،الى نافث لهب من رشاشه أو صاروخه،وغيرذلك من الأوضاع الجديدة كل الجدة عما كانت عليها الحال قبل تلك التطورات التي حققها التقدم العلمي والتقني والفكري . نقول أدى هذا كله ، الى أن تبدت الحاجة ماسة الى تطور مماثل ، في الاقتصاد الوطني ، من حيث الانتاج والتبادل والتوزيع ، بل إلى مساندة كاملة ، وتفاعل مطلق بين الاقتصاد والدفاع ، وبين التنمية والتعبئة . وبكلمة مختصرة ، فان ذلك التقدم قد اعطى أهمية أكبر للاقتصاد الوطني في الحرب والمعارك ، مثلما له من أهمية في السلم والحياة المدنية ، إن لم يكن أكثر

الشروط والظروف الموضوعية :

وإذا كان للاقتصاد الوطني مثل تلك الأهمية في السلم والحرب ، فان مما لاشك فيه . أن الشروط التي يخضع لها ليست واحدة في كل من الحالتين ، نظراً لتفاوت الظروف الموضوعية ، التي تتحكم بها كل منها . فما يمكن التساهل فيه خلال السلم ، ربما كان ضرورة ملحة في الحرب،وما يمكن تجاهله خلال المعارك وتجاوزه ، ربما كان يحاسب عليه في الأحوال العادية .

فا لتماثل من حيث أهمية الاقتصاد في السلم والحرب ، وإن كان – تجاوزاً – يمكن تصوره على أنه ذو مقطع هندسي واحد،الا أن منحنياته واتجاهات خطوطه مختلفة، وتخضع في كل من السلم والحرب لمقتضيات الحال ومتطلباتها . وتبعاً لذلك ، تتبدى الفروق ، وتبرز العوامل المسببة لها ، وتتعدد زيادة وانخفاضاً .

على أن أهم هذه الظروف ، تلك هي التي توجب الانتقال من حالة السلم الى حالة الحرب . وبمعنى آخر ، نشوء حالة هي (الحرب) جديدة كل الجدة عن سابقتها التي هي (السلم) ، ووقوع البلد المحارب تحت ظل الحالة الجديدة ، بكل مفاجآتها ومقتضياتها .

وهذه الظروف التي تفرض نفسها على البلد الذي يدخل المعركة ؛ والتي لاتترك له

مجالاً للخيار بعد ذلك سوى الاستمرار في المعركة أو الانسحاب منها ، تفرض عليه ، ايضاً ، شروطاً لابد أن يذعن لها مهما أوتي من سعة الثروة ووفرة مصادرها . ذلك لأن المعركة كالنار ، بل هي النار ذاتها ، أتونها دوماً يتطلب المزيد من الوقود حتى تبقى شعلته متوهجة ، أو أنها تمتد ذات اليمين والشمال لتلتهم كل ما تصادفه في طريقها . وأول تلك الشروط قبول ، بل اذعان من المواطنين للعديد من التنازلات ، في مجال الاستهلاك ومجال التضحية والعمل الأطول زمناً ،وكبتُ للعديد من العواطف والرغبات مما يعتبر مسموحاً به في حالة السلم . بل ربما اعتبر في هذه الحالة ، أحد مظاهر التطور والمدنية ، مما كانت الدولة نفسها تعمد الى تحقيقه في نطاق خططها لدفع بقايا التخلف عن بلدها ومواطنيها . بينما لا تسمح حالة الحرب بالاستمرار فيه ، وانما يصبح نوعاً من الترف أو مدعاة للاساءة للمجهود الحربي ، والحد من زخم التعبئة التي توجبها ضرورات المعارك ومقتضيات المواجهة مع العدو . بل ربما اعتبرت محاولات الخروج على هذه المقتضيات ، أو عدم التقيد بتلك الشروط ، نوعاً من الخيانة ، لأن العدو ، نفسه ، قد يلجأ في حربه النفسية الى اثارة كوامن تلك الرغبات والعواطف لدى بعض مواطني خصمه ، ليضعف قوته الداخلية ، وصموده ، وتعاضده مع حكومته . ولينفذ من هذه الثغرة الى ضرب القوة النظامية لهذا الخصم .

وهكذا تتضح تلك الصلة الموضوعية بين الاقتصاد الوطني والدفاع ، بل ذلك الترابط والتشابك بينهما ، خصوصاً في حالة اندلاع الحرب ، وانعدام حالة السلم في منطقة ما ، أو بين بلدين أو أكثر .

الآثار الأقتصادية لحالة الحرب :

لما كان الانتقال لحالة الحرب يعتبر تبدلاً جذرياً في حياة الشعوب المحاربة ، وتبعاً للصلة الموضوعية بين الاقتصاد الوطني والدفاع ،فان مجموعة من الآثار الاقتصادية تتولد بشكل مباشر أو غير مباشر ، وبصورة مضطردة ، أو دفعة واحدة ، عن تلك الحالة . ويختلف مدى كل منها وتأثيره في الزمان والمكان . كما يمكن أن يتفاعل مع غيره وينتج آثاراً اخرى ، ويولد أوضاعاً جديدة ، لها جوانبها الايجابية ، كما يمكن أن يكون لها جوانبها السلبية . ويأتي في مقدمة تلك الآثار الآتي ،

أولاً – على النطاق الداخلي من حيث الانتاج والتوزيع والاستهلاك فهنالك :

١ – انخفاض حجم الانتاج لبعض السلع والمواد وذلك نتيجة التحاق عدد من العمال في الخدمة العسكرية ، أو نتيجة توقف بعض المصانع لاصابتها بأضرار مادية نتيجة القصف من قبل العدو . أو لنقص في المواد الأولية أو في عمليات النقل والمواصلات بسبب الأعمال الحربية في المنطقة .

٢ – زيادة حجم الانتاج لسلع ومواد أخرى وخاصة تلك التي لها علاقة مباشرة بالمجهود الحربي ، وذلك تبعاً لتزايد الطلب العسكري عليها ، وما تحصل عليه منشآتها من الرعاية والدعم لهذه الغاية .

٣ – وكنتيجة لما يصيب الانتاج من تقلص في العديد من المواد والسلع ، فان عمليات التوزيع لابد لها أن تتأثر نتيجة ذلك أيضاً ، وأن يصيب السوق الداخلية ضمور في نشاطها العادي .

٤ – الا أنه من ناحية أخرى ، فان عمليات التوزيع تنشطها بصورة غير عادية ، جهود المحتكرين وتجارة السوق السوداء للمواد التي أصابها نقص في الانتاج .

٥ – ومن الأمور المألوفة في فترات الحرب ، زيادة استهلاك العديد من السلع والمواد ، حتى ليظن المرء أن الناس قد ازدادت شهيتهم وأصبحوا أكثر رغبة في الطعام أو الشراب أو الملبس .

إلا أن الحقيقة تتبدى من خلال لجوء بعض المستغلين الى الاحتكار بقصد جني الارباح الطائلة في الظروف غير الطبيعية ، أو من خلال خوف بعض المواطنين من فقدان بعض المواد والسلع تحسباً من انقطاع ورودها ، أو وقوع حصار أو غير ذلك من الأحداث التي يمكن أن تطرأ في الحروب ، فيعمدون الى شراء وتخزين كميات منها تفوق ما اعتادوا شراءه واستهلاكه . وناحية ثالثة وهي الاستعاضة ببعض المنتجات والمواد عن غيرها من المواد والمنتجات الأخرى ، اما بسبب فقدان هذه الأخيرة وتوفر الأولى ، أو لارتفاع أسعارها بمقارنتها بأسعار تلك الأولى .

ثانياً – على النطاق الخارجي من حيث عمليات الاستيراد والتصدير والعلاقات الاقتصادية الخارجية فهناك الآتي :

١ ـ ان من الاهداف التي يسعى العدو لالحاق الضرر بها وتعطيلها عن العمل بقصد الحد من تموين خصمه ، وتعطيل تحركه العسكري، ضرب المرافىء والمطارات والطرق الرئيسية التي يعتمد عليها في توريد السلع والبضائع والتجهيزات والمعدات واللوازم ، اذ تعتبر بحكم الشرايين في جسم الانسان .

٢ ـ كما أن الأهداف التي يسعى العدو اليها هي قطع سبل توريد المواد والسلع الرئيسية عن خصمه ، وذلك عن طريق خلق الصعوبات لدى البلدان التي له علاقات معها وتكون مؤيدة له ومناصرة ، للحد من تزويده بتلك المواد والسلع ان لم يكن منعها كلياً.

ومن ناحية ثانية ، فان اغلاق الموانىء والمرافىء ، وتعطل حركة الملاحة نتيجة خوف شركات الشحن من تعرض وسائطها لأخطار الحرب يؤدي الى خلل في توريد البضائع والسلع الى البلاد .

٣ ـ ولا يقتصر الأمر نتيجة ماتقدم على المستوردات، بل انه يصيب الصادرات أيضاً ، فان تعطل وسائل النقل والمواصلات في الداخل وفي المرافىء والمطارات والمنافذ على الخارج يؤدي الى توقف تصدير بعض السلع والمنتجات الى الخارج ، وبالتالي نقص حصيلة القطع الاجنبي ، في وقت يكون فيها البلد بأشد الحاجة لمزيد من العملات الصعبة.

فاذا ما أضفنا الى ذلك ، أن بعض السلع والمنتجات تصبح نتيجة الحرب غير متوفرة أصلا ، أو أن انتاجها يصبح قاصراً عن تلبية حاجات الاستهلاك المحلي منها ، وبالتالي فان تصديرها يتوقف تلقائياً أو تبعاً للتدابير الادارية التي تتخذ بهذا الصدد ، فان النقص بحصيلة العملات الاجنبية لا بد أن يتفاقم .

٤ ـ وتبعاً لما تقدم ، فان العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية مع العالم الخارجي لا بد أن يصيبها الخلل والاضطراب بنسب متفاوتة ، وذلك تبعاً لطبيعة العلاقات السياسية السائدة مع كل بلدان العالم المذكور. فاذا كانت تلك العلاقات والمبادلات تنعدم كلياً بالنسبة للبعض ، فانها مع بعض البلدان يصيبها بعض الفتور ، بينما تنشط وتتزايد مع بلدان صديقة أخرى .

ومع ذلك ، فان أسساً وشروطاً جديدة لا بد أن تبرز في سماء العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية مع البلدان التي يستمر التعامل معها ، وذلك أمر بدهي تفرضه طبيعة وظروف مرحلة الحرب ومقتضيات استمرار توريد السلع والبضائع والحفاظ على المصالح المشتركة مع تلك البلدان .

اجراءات تفرضها ظروف المعركة والحرب :

لقد خاض القطر العربي السوري الى جانب شقيقته الكبرى مصر والدول العربية الشقيقة الاخرى معركة التحرير في السادس من تشرين الاول ١٩٧٣ ضد العدو الصهيوني والدول المؤيدة له ، أو الضالعة معه في العدوان . وكان طبيعياً أن يخضع - في انتقاله من مرحلة اللاسلم واللاحرب الى مرحلة الحرب الفعلية - الشروط والظروف الموضوعية التي لابد للاقتصاد الوطني أن يعيشها، وأن يخضع لها .. كما كان متوقعاً أن يتأثر اقتصاده الوطني بما يمكن أن يتأثر به الاقتصاد الوطني لكل بلد ينتقل من حالة السلم الى حالة الحرب . واذا كان هذا كله مما يدخل في اطار الامور المفروضة ، أو النتائج التي توجبها المسببات ، فان ما يقع ضمن اطار الواجب ، أو ضمن مقتضيات التحرك لمواجهة الأحداث ، ودرء الأضرار المتوقعة ، وسلامة التصرف في هذه الظروف ، انما يتوجب أن يتمثل في مجموعة الاجراءات التي لابد من اتخاذها والعمل على تطبيقها خلال المرحلة الاستثنائية الجديدة . وهذه يمكن تلخيص أهمها بالآتي ،

١ - حشد الطاقات الاقتصادية واعلان تعبئة جميع الموارد الممكنة لخدمة المعركة وبنفس الوقت ادارة هذه الطاقات بشكل أمثل معه في سبيل استمرار الانتاج وتنفيذ الخطط الانمائية التي من شأنها خدمة المعركة أيضاً ، والتعويض عن الخسائر التي تلحق القطر بسببها .

٢ - تطبيق نظام الورديات والمناوبة في المصانع والمنشآت والادارات والمؤسسات ذات الطابع الانتاجي أو التي لها علاقة بالانتاج وتسييره ، وذلك من أجل التعويض عن نقص اليد العاملة الذي يقع في هذه الجهات ، نتيجة التحاقها بالخدمة العسكرية ومنظمات العمل الشعبي ، أو مايصيب بعضها من أضرار وضحايا من جراء هجمات العدو على بعض الأهداف الاقتصادية أو المدنية .

٣ - تطبيق نظام التوزيع المراقب للمواد الغذائية الأساسية أو الضرورية ، وذلك لمواجهة النقص الذي قد يقع على هذه المواد ، سواء من حيث انخفاض انتاجها محلياً ، أو عدم التمكن من استيراد كميات كافية منها من الخارج ، أو لزيادة الاقبال على استهلاكها بسبب الظروف والأوضاع العسكرية التي يمر بها القطر ، أو بهدف الحد من ارتفاع اسعارها والحيلولة دون احتكارها والتلاعب بأسعارها من قبل بعض المستغلين .

٤ – لابد من استخدام منظم وبشكل واع لوسائل النقل وطرق المواصلات . فالمعركة لابد لها من أن تجند جانباً هاماً من وسائل النقل للضرورات العسكرية . ومن شأن ذلك حدوث نقص في عدد الوسائل التي كانت تعمل في الأغراض المدنية ، ومنها القسم الأكبر الذي يخدم عمليات الانتاج والتنمية . كما أن تلك الضرورات تستدعي اشغال الطرق الرئيسية والفرعية بصورة غير اعتيادية ، بل حتى الاضطرار لاغلاق بعضها في وجه عمليات النقل المدنية في بعض الأحيان ، إذ أن من شأن الاستخدام المضطرب وغير السليم لهذه الوسائل والطرق ، الاضرار بعمليات الانتاج ومتطلبات المعركة ، بما تسببه من نقص في تموين المصانع والمنشآت الانتاجية في المواد الأولية وأدواتها ، أو من تأخير توريد تلك المتطلبات الى الأماكن الاستراتيجية للاعمال الحربية .

٥ – توطيد العزم على الاستغناء عن بعض السلع والمنتجات التي تقضي ضرورات المعركة بالتوقف عن انتاجها أو استيرادها ، أو لاستخدامها كلياً من قبل القوات المسلحة . ذلك أن ضرورات المعركة يجب أن تكون فوق كل اعتبار آخر من أجل الفوز فيها .

٦ – وكذلك توطيد العزم على استخدام بعض السلع والمنتجات البديلة لما اعتاد المواطنون عليه في أحوال السلم . فقد تقضي الضرورة استخدام السكر الخامي بدلاً عن السكر الأبيض المكرر ، واستخدام الدقيق الاسمر بدلاً من الدقيق الأبيض ، والبرغل بدلاً عن الأرز ، والورق غير الناصع البياض بدلاً عن الأبيض اللامع ... الخ .

٧ – عدم التهاون بضياع هوامش كبيرة في بعض السلع والمواد ، واعتماد سبل التقشف والاقتصاد فيها . فاعادة استخدام المغلفات بالصاق اسم الجهة المرسلة اليها وعنوانها فوق الاسم والعنوان المستخدم فيها سابقاً، أمر معروف في الحرب العالمية الثانية . واستخدام الوجه الآخر للاوراق في المراسلات أو تضييق الهوامش والفراغات بين السطور من شأنه تخفيض حجم الكميات المستهلكة منها . ومثل ذلك تخفيض عدد الصفحات في الجرائد والمجلات ، أو تعديل بعض اصول قص وتفصيل الملابس والتغاضي عن صرعات الموضة وخطوطها وأشكالها .

٨ – تطبيق قواعد الاقتصاد اللازمة للحفاظ على موجودات القطر من العملات الأجنبية ، وذلك بما يؤدي لاستخدامها في توفير المواد والسلع الضرورية وحاجات

المعركة من التجهيزات والمعدات واللوازم، وهذا يستدعي بالضرورة الأخذ بنظام الرقابة على هذه العملات بصرامة بشكل يقضي على مختلف وجوه التبذير في استعمال موارد البلاد من تلك العملات أو عدم وصول هذه الموارد الى القطر، أو اخراجها منه بصورة غير مشروعة .

٩ – سرعة الحركة في التصدي لما يمكن أن يلجأ اليه العدو أو الدول المساندة له من الحد من استمرار توريد المواد الأولية والضرورية والتجهيزات والمعدات التي يحتاجها القطر، وذلك بالبحث عن المصادر الجديدة لهذه الواردات ، أو بتعميق التعاون والصلات مع مصادر اخرى لاتزال قائمة . أو ما ينجم عن لجوء القطر نفسه الى قطع تصدير بعض السلع الستراتيجية عن الدول المساندة للعدوان ، وضرورة بحثه عن منافذ جديدة لتصدير هذا الفائض من السلع . وبكلمة مختصرة وجوب اعادة تقييم العلاقات الاقتصادية والتجارية مع العالم الخارجي بما يتلاءم وحالة الحرب التي يخوضها القطر ، والسعي لتنظيم هذه العلاقات من جديد في ضوء المصالح المتبادلة مع مختلف الدول .

<u>الصمود .. التحرير .. البناء :</u>

الحرب للحرب لم تعد ترد في العصور الحديثة في مفهوم المواجهة بين الدول أو الشعوب ، فتلك كانت عقيدة القبائل في العصور الخالية أو في المناطق لم تمتد اليها يد التقدم والحضارة . وقد بات اليوم للحرب أهدافها وغاياتها بالنسبة لكل طرف من الاطراف المشتركة بها من قريب أو بعيد .

ويمكن التأكيد أن الحرب بالنسبة للشعب العربي في مختلف أقطاره والدول العربية في مختلف أمصارها ، ولهذا القطر بالذات ، انما تستهدف ، تثبيت ارادة الصمود لدى الفرد العربي ، وتحرير الأرض المغتصبة من دياره ، والاستمرار في البناء والاعمار للأرض التي يعيش عليها ، وتلك التي صمم على تحريرها من بلاده .

وما دامت هذه هي الغاية التي ينشدها القطر العربي السوري ، فان عليه اتخاذ جميع الاجراءات وسلوك مختلف السبل التي توفر له بلوغ هذه الغاية . وما دامت حرب التحرير التي يخوضها الشعب العربي هي القدر الذي كتب عليه لتحقيق تلك الغاية ، فان ماتتطلبه هذه الحرب من الاجراءات (التي سبقت الاشارة الى أبرزها) يجب أن تقدم على أي اعتبار آخر . فتحقيق النصر فيها انما يتأتى من توفير تلك المتطلبات .

اذ لايمكن للجنود في جبهات القتال – وخصوصاً في عصر التقدم التكنولوجي هذا – أن يحققوا النصر لوحدهم ، اذا لم تكن متوفرة لهم جميع المعطيات التي تتطلبها الحرب الحديثة ، والمتمثلة بالتعبئة الشاملة ، والتلاحم المتكامل بين مختلف القطاعات البشرية ، والانتاجية والعسكرية . ولقد كان في الحرب العالمية الثانية ، وفي الحرب الكورية والحرب الفيتنامية أكثر من مثال بهذا الصدد .

فنقص الوقود لدى جيوش هتلر ، كانت أحد العوامل في هزيمتها . واستمرار توارد الامدادات والتجهيزات للقوات الكورية والفيتنامية كان في مقدمة أسباب النصر الذي حققته بمواجهة قوات العدوان التي تفوقها عدداً وعدة .

الامكانات المتاحة والتحرك المطلوب :

لقد واجه القطر العربي السوري وشقيقته مصر العربية العدوان في السادس من تشرين الأول ١٩٧٣ معتمدين على الامكانات المتاحة لهما على الصعيدين القطري والقومي والمتمثلة بالآتي :

١ – ارادة الصمود والتحرير لدى مختلف القطاعات الشعبية والعسكرية والدولة . فلقد استقبل الرد السوري على العدوان الاسرائيلي من قبل القوات المسلحة ، بالتأييد الكامل والابتهاج العميق من جميع أفراد الشعب وفئاته .

٢ – التلاحم والوحدة الوطنية بين مختلف الكتل والأحزاب والفئات العاملة في الحقل السياسي والوطني ، والتفاف المواطنين حول قائد المسيرة والحكومة والجيش ، محبة ، وتقديراً وولاء دون حدود .

٣ – البذل والعطاء بمختلف الأشكال وتعدد الصور من قبل المواطنين . فلقد كانت مسارعة الجميع للقيام بواجبهم ، سواء بالالتحاق بالقوات المسلحة ، أو بلجان الدفاع المدني ، أو لجان العمل الشعبي ، أو قطاعات التموين ، والتفاني في أداء الواجبات الملقاة على عاتق مختلف العاملين في قطاعات الانتاج والخدمات ، والتبرع للمجهود الحربي... كل ذلك كان صورة من صور البذل والعطاء التي تعتبر مفخرة في هذه الظروف الراهنة التي يمر بها الوطن العربي .

٤ – الموارد الذاتية المتمثلة بكافة الطاقات البشرية والمادية ، مما استطاعت الثورة تطويرها وتنميتها ، خلال ظروف صعبة تتمثل بالعدوان واحتلال جزء من الأرض

العربية ، ومساندة القوى الاستعمارية للعدو الصهيوني . ومع ذلك حققت في اطارها قفزات رائعة ، بحيث أصبحت قادرة على رفد القوات المحاربة بما تتطلبه من الامدادات واللوازم .

٥ ـ الموارد العربية للاقطار الشقيقة ، التي تمثل دعماً له وزنه الكبير في سير المعركة ، وتوفير عوامل الصمود والنجاح والنصر فيها . ويأتي في مقدمتها النفط ، ورؤوس الأموال . وقد كان للمباشرة باستخدامها ، ووضعها في خدمة المعركة ، النتائج الطيبة التي تبدت على الصعيدين السياسي والعسكري .

٦ ـ التضامن العربي بين مختلف الدول والاقطار الممتدة من الخليج الى المحيط ، والوقوف صفاً واحداً في مواجهة العدوان والتصدي له ، وتقديم الدعم والمؤازرة لكل من مصر وسورية في الحرب المقدسة ضد الصهيونية والاستعمار المؤيد لها .

ولقد أدى هذا التعاون الرائع الى سقوط الحجج التي كانت تطرح في معرض الحديث عن تحقيق الوحدة العربية واقامة السوق المشتركة بين الاقطار العربية . وتبدى بوضوح تام أنه من الممكن تخطي الحدود المصطنعة بين هذه الاقطار من أجل بلوغ ذلك الهدف الكبير . وعلى هذا ، فانه بعد أن تحققت قومية المعركة ، لم يعد بعد اليوم من سبب يحول دون العمل الجدي لبلوغ ذلك الهدف ، كما انه لم يعد مقبولاً العودة الى الوراء وهدم صرح التعاون والتعاضد العربيين ، اللذين تم بلوغها خلال تلك المعركة .

ان الدور الكبير للاقتصاد الوطني في الحرب كما في السلم مرتبط كل الارتباط بالاقتصاد القومي للاقطار العربية أيضاً ، فمهما قيل حول أهمية أي من اقتصاديات واحد من هذه الأقطار فان الأهمية الأكبر هي لمجموع اقتصادها ولذلك فان الامكانات الضخمة التي تتوفر لهذا الاقتصاد القومي حرية أن تحشد وتعبأ في خدمة حرب التحرير التي تخوضها الأمة العربية ، وفي عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية اللتين لا بد من الاستمرار فيها حتى تستطيع التخلص من احتلال جزء من أراضيها ومن التخلف الذي تعاني منه ولتلحق بركب العالم المتقدم . ولن يكون ذلك إلا بالاستفادة من الحقائق التي أسفرت عنها معركة السادس من تشرين الأول الماضي ، والتي نجملها بالآتي :

١ ـ إن اعلان وقف اطلاق النار لا يعني أبداً انتهاء الصراع مع العدو الصهيوني والاستعمار ما دام هنالك جزء من الأرض العربية لم يتم تحريره . وهذا يعني أن حرب التحرير لا تزال قائمة الى أن يتحقق النصر .

٢ – ان الأمة العربية قد أبرزت ذاتها الأصيلة ، ونفضت عنها جميع ما علق بها من غبار التفكك والتنابذ ، ووقفت صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

٣ – ان الستراتيجية الدقيقة والعالية التصميم لمختلف الطاقات المادية والبشرية في الوطن العربي كفيلة بأن تتحدى ليس اسرائيل فقط ، وانما الدول المساندة لها ، حتى تستطيع الأمة العربية تحرير الأرض المغتصبة واسترداد حقوق الشعب العربي في فلسطين .

٤ – ان قومية حرب التحرير متلازمة مع قومية الاقتصاد العربي ، وانه قد ثبت خلال حرب تشرين الاول الماضي ، بما لايقبل مجالا للشك ، أنه من الممكن تجاوز الحدود المصطنعة في الاقتصاد كما أمكن تجاوزها في السلاح . وأنه مثلما عبرت وحدات من جيوش الاقطار العربية الشقيقة تلك الحدود المصطنعة ووقفت على الأرض العربية جنباً الى جنب مع جيش سورية أو جيش مصر ، فان المنتجات والسلع ورؤوس الاموال والأيدي العاملة العربية يجب أن تعبر أيضاً تلك الحدود بدون قيود أو تحفظات لأنها عربية ولن تكون الا لخدمة الأمة العربية في التحرير والبناء .

وأخيراً ... بل وبعد ،

بدون استباق للأحداث ولا الرجم بالغيب ، وانما من خلال الوقائع التي جرت ولا تزال تجري في الاطار الدولي ، فان خريطة الشرق الأوسط قادمة على تغييرات بالغة الأهمية ، ليس بالنسبة للعدو الصهيوني فحسب ، وانما بالنسبة للامة العربية . ويبقى على هذه الأمة أن تستفيد من الحقائق والتجارب التي مرت بها لتحافظ على ذاتها الاصيلة ، وتقدم للاجيال القادمة النصر وتجنبها الهزيمة .

من أدب النفط

النفط والوجود [١]

لم يسبق قط أن فوجىء امرؤ يقف متأملاً قرب مضخة بنزين ، وهو يتصورها شجرة خير التكنولوجيا وثمرها . لكن ، هوذا التوازن غير المستقر في جانب من العالم قد لقّنه العنف ، والشجرة تهدد بالتوقف عن حمل الثمار . فقرار البلدان العربية بتوقيف الامدادات جزئياً بمنتجات الطاقة جاء يوجه ضربة للمجتمعات الصناعية .

في أي زمن سيحملنا ملاك العنف على التقهقر الى وراء بسيفه اللاهب ؟ عسانا نضطر عند ذاك للخروج من الجنة مفعمة قلوبنا بخطايانا .

التأمل حول النفط يجعلنا نعاود اكتشاف صلتنا المتينة بالأرض . يتراءى لنا أننا تركناها حين غادرنا حضارة الزراعة لنستقر في عالم الآلات . أسفاه ! النفطليس من تلك الثمار النامية في كل موضع . هو ثروة نزوية ترتضي التخفي ههنا لا هناك ، بعيداً عن المواقع التي كان يمكن لأناليقتنا أن تجد فيها لنفسها دوراً أيسر. وما دام النفط يقلص مدى صحبته ، فهو يعطينا درساً في الأخلاق .

فنحن نعرف ، في الواقع ، أن المخزونات ستنفد في مدى عدد من السنين ، حتى بغير مداخلات سياسية . غير أن التساؤل الأعجل في هذه الأيام الاخيرة — ما نفعل بغير نفط ؟ — أفاد في تنشيط خيال الكسالى . التهديدات وحدها تفسح مجال التفكير ، إننا ندخل عن وعي عالمَ العلم — الخيالي الاقتصادي ، عالمَ اختفاء البترول كما يرويه كاتب روائي .

---

(١) يفسح العنوان الاصلي لهذه القطعة المجال أمام القارىء لان يذهب بتفكيره الى كتاب شهير لغابرييل مارسيل « الماهية والوجود » ، اذ يُكتب العنوانان في عدد من اللغات الأجنبية بالطريقة ذاتها L'essence et l'existence ، فكأنما الكاتب يذكر بأن النفط للانسان يوشك أن يكون في مقام ماهيته ، ما دامت كلمة essence تعني « الماهية » كما تعني « النفط » .

لنتخيل اجتماعاً لكتاب ، وعلماءِ مستقبل ، ومصورين ومؤلفي أغان يقفون أمام تساؤلنا . سيتخيل أكثرهم سطحية أن المشاة الراجلين سيفوزون في الكفاح من أجل استمرار الحياة ، وأن سائقي السيارات ، بما لهم جميعاً من عضلات ضامرة لاتعينهم على الخروج في أقل نزهة ، سوف يُجمعون في مآو ينهون فيها أيامهم . ومن أجلهم سيعاوَدُ في أوربا اكتشاف الاحساس الذي فُقد من قبل بالمسافات ، وسوف تُخلي المصانع أماكنها للكاتدرائيات وأقواس النصر ، في حين يقرر مؤتمرٌ للمشاة في «فيينا» خطة جديدة لاعادة توزيع السلطة ويُقطِع تخوم البلاد للهيبيين ، أفضلِ مستخدمي الأقدام ومستعملي أقل قدرٍ من الموارد الطبيعية .

وسيعتبر علماء المستقبل المبشرون بنهاية العالم من جهتهم ان نهاية البترول ، اذ تبطل تحدي البلدان المتخلفة ، ستقود الامم غير المصنعة لأن تفرض على العالم ضرباً من الحضارة ، بدائي الشكل ، يحتوي على مناطق شاسعة لرعي المترحلين : وهو نموذج مذهل ، لكنه غير جدير بتلبية الحاجات التي ولّدها تكاثف السكان ، ولا نملك شهادات اختراع صنع البيفتيك من ماءات الفحم (هيدروكاربور) فما عسانا نقدم من طعام الى ذرارينا ، وقد تكدسوا بحد من العنف والشدة يعرضهم لأن يأكل بعضهم لحم بعض ؟

وأشد الاختصاصيين قدرة على التنبؤ بالمستقبل سيتساءلون : لمَ يُقدّر النفط فجأة أن يتوارى . ليس بسبب حرب ما — سيقولون — بل الأحرى أن يجري ذلك بقرار تتفق عليه البلدان الصناعية التي تعتبر أن التلوث بلغ درجة لا تحتمل بسبب الاستخدام المكثف للمواد الهيدروكاربورية ، ما دامت الانهار المسمّمة لم تعد تقدم سمكاً والبحر يمتنع على الصيد .

وبعد عصر النفط قد لايتبقى سوى أمر واحد يُفعل ، هو استيراد الهواء النقي من البلدان المتخلفة في خزانات كروية هائلة . فتهب فوق مناطقنا ريح مقوية تعيد الينا النشاط والحياة ، شريطة ألا تقطع البلاد المصدرة بالطبع — وهي المموِّنة الشاكة الناكثة ، بالعهد — حركة التموين بهذا الهواء المحيي من جديد .

ستيفانو ريجياني

صحيفة « لاستامبا » الايطالية

نزاع الشرق الأدنى والبترول العربي

اثار قرار البلدان العربية باستخدام بترولها كاداة في النضال من اجل ازالة آثار العدوان الاسرائيلي رد فعل عنيفاً عند الغرب . فكتبت جريدة « ناسيون » الفرنسية تقول : « ان تخفيض شحنات البترول العربي يمكن ان يسبب هبة من التضخم النقدي ». وقالت « التايمز » اللندنية : « من الواضح تماماً ان البترول هو مصلحتنا الحيوية في الشرق الادنى » . وقالت « كريستيان ساينس مونيتور » بقلق : « ان العرب يشدون بالمزمه ، شيئاً فشيئاً ، الولايات المتحدة التي يعوزها البترول ، مستهدفين من ذلك معاقبة واشنطن على الدعم الذي تقدمه الى اسرائيل » .

ان البلدان العربية المنتجة للبترول التي اعلنت عن عزمها على تخفيض انتاجها من البترول وعلى وقف شحنات البترول الى الولايات المتحدة كليا ،تنتج سنوياً حوالي ٨٠٠ مليون طن من البترول . وفي الولايات المتحدة انتج في العام الماضي ٤٧٠ مليون طن من البترول وليس ثمة أي أمل في زيادة انتاجه وفي الوقت ذاته يزداد استهلاك البترول . وقد ازداد منذ مطلع الستينات قرابة مرتين مؤلفاً في عام ١٩٧٠ قرابة ٧٥٠ مليون طن . وفي حوالي هذا العام كانت الولايات المتحدة تستورد اكثر من ٢٠٠ مليون طن من البترول ومن مشتقاته، أي اكثر من ربع كل استهلاك البلاد . وكما يمكن التوقع فان نصيب المستوردات من البترول في العام الجاري سيرتفع في البلاد الى ٣٥ ٪ ، وبعد عامين ، الى ٥٠ ٪ .

وقد كتبت صحيفة « كريستيان سانيس مونيتور » ان الولايات المتحدة متعلقة حالياً بالبترول العربي ، وما دام ليس لها طاقية مماثلة اخرى ، فستظل متعلقة به بقدر اكبر فأكبر » .

وفيما يتعلق بأوروبا الغربية فانها متعلقة منذ الآن بمستوردات البترول العربي بنسبة ٧٠ ٪ واليابان بنسبة اكثر من ٨٠ ٪ .

وكتبت «فرانس سوار»: «ان حرب البترول» هي التي نشبت بالفعل في هذه المرة انها حرب اقتصادية وسياسية في وقت واحد . ان قضايا الصناعة البترولية معقدة الى درجة انه ، اذا اعوز جيراننا البترول فانه قد يعوزنا ايضاً حتى ولو قررت حكومات بلدان الخليج العربي اتخاذ موقف ايجابي من الحكومة الفرنسية » .

تلك هي نتائج الدعم الذي تقدمه الاوساط الامبريالية للعدوان الاسرائيلي على الشعوب العربية . وقد قال جمشيد اموزيغار، وزير مالية ايران ، ان الغرب يفقد قرابة ٤٠٠٠٠٠ طن من البترول في اليوم بنتيجة المقاطعة . وذكر ان شحن البترول الى البلدان الغربية سيزداد انخفاضاً عما قريب .

وتجدر الاشارة الى ان رجالات الاعمال في اميركا الذين لا يوافقون على سياسة دعم اسرائيل كانوا يحذرون، منذ زمن طويل، من مثل هذه النتائج . فمن المعروف ان رئيس ادارة الشركة البترولية « ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا » اوتو ميلر كان يقول باصرار ان على الولايات المتحدة ان تولي مزيداً من الاهتمام لمطالب البلدان العربية وان تكون اكثر انتقاداً لموقف اسرائيل .

ان عامل البترول يفعل مفعوله بقوة اكبر في الوقت الحاضر . ولم يعد في وسع واشنطن ان تتجاهل ان من مصلحة الاقتصاد الوطني الاميركي الاسهام في تسوية ازمة الشرق الادنى . وقد كتبت صحيفة « كريستيان ساينس مونيتور » تقول : « ان اربع حروب في غضون ربع قرن قد بينت ان من المستحيل الحصول على مثل هذه التسوية بنتيجة العمليات العسكرية . ان اسرائيل لم تعد تستطيع مواصلة احتلال الاراضي العربية الجديدة فالجديدة . كما انها لا تستطيع البقاء لمدة غير محدودة على الحدود غير المقبولة بالنسبة للعرب ولاغلب اعضاء منظمة الامم المتحدة .

وقالت « نيويورك تايمز » بدورها « ان الحل الوحيد الذي يمكن الى حد ما ان يبرر التضحيات المؤلفة التي عاناها حالياً الاسرائيليون والعرب هو في تسوية سياسية شاملة تراعي مصالح جميع بلدان وشعوب الشرق الادنى » . وكل حال آخر سيكون منافياً للاتجاه السائد في تطور العلاقات الدولية ، الاتجاه نحو الانفراج ونحو تدعيم الامن العالمي .

نوفوستي ١ / ١١ / ١٩٧٣

عزلة إسرائيل و «الخيبة العميقة»

عادل أبو شنب

« تجنب الاسرائيليون التعليقات الرسمية .. حول قطع العلاقات الدبلوماسية معها ، غير أن ثمة شعوراً بالخيبة العميقة .. يعم أرجاء اسرائيل » .

مراسل « رويتر » في القدس

إذا لم يكن لحرب تشرين سوى انجاز واحد ، هو الاعتراف الاسرائيلي المباشر ، بلسان المؤسستين السياسية والعسكرية في اسرائيل بأن « اسرائيل عاجزة عن الحرب بلا اميركا »[1] فهذا كافٍ ، لأن العرب امضوا سنوات من كفاحهم ، وهم يحاولون أن يقنعوا العالم بهذه الحقيقة ، دونما جدوى ، حتى جاءت هذه الحرب ... لتنتزع الاعتراف الاسرائيلي انتزاعاً .

غير ان لحرب تشرين انجازات اخرى ، فمن تحطيم اسطورتي التفوق الجوي ، والجيش الذي لا يقهر ، وعبور « أكبر مانع مائي في التاريخ » – كما قال الرئيس السادات – واجتياح خط بارليف ، إلى ولادة أول تضامن عربي حقيقي ، واستعادة الثقة بالنفس ، إلى عزلة اسرائيل التي تجسدت أكثر ماتجسدت في قطع الدول الافريقية ، واحدة بعد اخرى ، علاقاتها الدبلوماسية معها ، وهو ما نحاول القاء ضوء عليه في هذا المقال .

* * *

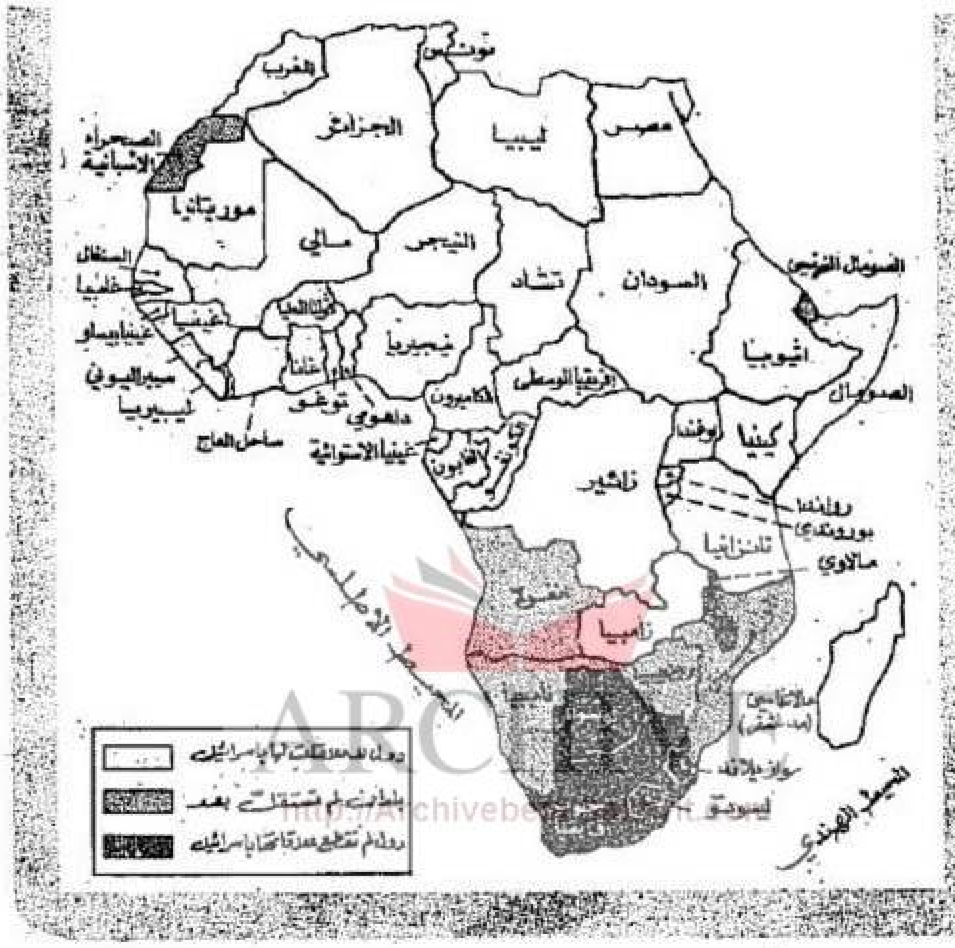
استعمال العملة الافريقية :

كان التفاعل مع المجموعات الجغرافية في العالم ... من أكثر المسائل إلحاحاً ، ولكن العرب لم يحسنوا استعمال هذه العملة ، في الماضي ، لأسباب مختلفة ، وبذلك صرفوا أنظار العالم عن عدالة قضيتهم ، بل حتى عن الاهتمام بها ، في حين ان اسرائيل ... برعت في ذلك براعة مكنتها من ان يكون حضورها الدولي دائماً ومقنعاً .

كانت دول افريقيا – ومعظمها حديث الاستقلال – كمجموعة جغرافية متميزة ، ميداناً تتفاعل معه اسرائيل على جميع المستويات ، وفي جميع الحقول ،

---

(١) غولدامائير وموشي دايان في اجابتيها على اسئلة في الكنيست يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩٧٣ .



السياسية والاقتصادية والعسكرية، وكانت تريد من هذا التفاعل أن تحقق أهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية المرسومة على ضوء الظروف والمناخات الملائمة ، والتي تتكيف في كل آن على ضوء المتغيرات الدولية .

أهداف السياسية الاسرائيلية :

ما هي أهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية في افريقيا ؟

يمكن تلخيص هذه الاهداف في خمس نقاط :

١ - العمل على اقناع الرأي العام الافريقي بالقبول بوجود اسرائيل كواحدة من دول الشرق الاوسط .

٢ ـ ربط أمن اسرائيل بالتأييد السياسي الذي توفره العلاقات الجيدة مع الدول الأفريقية ، وفي هذا يقول بن غوريون(٢) : « اننا لا نستطيع أن نكره جيراننا على عقد السلام معنا ، ولكن ما من شيء يمكن أن يؤدي الى تخفيف حدة البغضاء لدى العرب نحونا ، وبالتالي يؤدي في النهاية الى السلام بيننا وبينهم أفضل من أن نكسب مزيداً من الاصدقاء بين دول أفريقيا وآسيا » .

٣ ـ الخروج من العزلة السياسية . ذلك ان اسرائيل على الرغم من وجودها في آسيا وعلى مقربة من افريقيا . . لم تستطع اختراق العزلة السياسية المفروضة عليها منذ انشائها ، ولم تستطع تحطيم فكرة كونها الدولة النشاز في المجموعة الآسيوية ، لأن انتماءها الى هذه المجموعة ظل فجاً ومستعصياً على الهضم .

٤ ـ كسب المجموعة الافريقية التي تشكل دولها حوالي ثلث المجموعة الدولية في الأمم المتحدة ، وهو أكبر تمثيل قاري في المنظمة العالمية .

٥ ـ تدعيم الاقتصاد الاسرائيلي .

رفض الوجود الاسرائيلي :

ومن الواضح أن قطع العلاقات الدبلوماسية يتضمن انهيار بعض هذه الأهداف . انه لا يعني رفضها لوجودها ، ولكنه يعني ان المجموعة الافريقية ترفض أن تكون صديقاً لطرف على حساب الطرف الآخر ، ويعني عودة اسرائيل الى مزيد من العزلة السياسية ، ويعني ، وهذا هو الاكثر أهمية ، ضياع أكبر تمثيل قاري في المنظمة الدولية من يد اسرائيل .

★ ★ ★

---

(٢) من خطابه في المؤتمر الصهيوني العالمي الذي سمي « كونغرس الهجرة » ـ ٢٨ كانون الاول ١٩٦٠ ـ .

٢٨ دولة افريقية

بلغ عدد الدول الافريقية التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل منذ قيام حرب تشرين وحتى اليوم (١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣) احدى وعشرين دولة [٣] فاذا أضيف اليها سبع دول كانت قد قطعت هذه العلاقات قبل الحرب .. اصبح العدد ثماني وعشرين دولة كان آخرها ساحل العاج التي أصدرت بياناً قالت فيه ان هذه العلاقات لن تستأنف قبل انسحاب اسرائيل الى حدود ما قبل الخامس من حزيران ، وباعتبار أن سبع دول عربية في الشمال الافريقي ، ودولتين أخريين هما الصومال وغينيا ليس بينها وبين اسرائيل أصلا ، علاقات ما ، فان معظم دول افريقيا ، الآن ، قد ساهم في عزلة اسرائيل ، بل في دفعها الى أن تصنف الى جانب الدول العنصرية الموجودة في افريقيا كروديسيا وجنوب افريقيا التي هبت ، أثناء الحرب ، لمناصرة اسرائيل عسكرياً [٤] .

غير متمدنة !!

وقد لا يكون قطع علاقات الدول الافريقية مع اسرائيل متساوياً من حيث الأهمية ، بسبب ارتباطات كل دولة ، لكن التأثير الذي يحدثه هذا القطع واحد ، الامر الذي جعل المسؤولين الاسرائيليين يتجنبون التعليقات الرسمية ، ويكتفون بالشعور بالخيبة العميقة ، وبالتصريحات الصحفية الصارخة في عنصريتها ، فقد قالت غولدا مائير ، كمثال ، ان اسرائيل في غنى عن الارتباط بالقارات غير المتمدنة ! !

---

(٣) اكتفت غابون بتجميد العلاقات الدبلوماسية ولم تقطعها كما نقلت وكالات الأنباء أثناء الحرب .

(٤) ليس ثمة في الواقع دول ذات أهمية لم تقطع علاقاتها الدبلوماسية باسرائيل ، لأن الدول المتبقية واقعة تحت نير الاحتلال البرتغالي كموزامبيق أو تحت نير احتلال جنوب افريقيا كاقليم جنوب غرب افريقيا . أو انها دول صغيرة كليزوتو وسويزلند .

حرب تشرين حققت هذا الانجاز الهام اذاً فقارة عامــة كأفريقيا تمثل جبهة خلفية للامة العربية ، وكانت مسرحاً لنشاط اسرائيل على جميع المستويات، باتخاذ هذه الخطوة .. تكون قد قطعت الطريق على اسرائيل للالتفاف حــول مصر من جهة ، واحبطت الخطط الاسرائيلية التي كانت تستهدف تحطيم المقاطعة العربية وجعل افريقيا سوقاً للمنتجات الاسرائيلية ، ومصدراً للمواد الخام من جهة اخرى . وساهمت في تعزيز وقفة الدول العربية في وجه العدوان .

الاحتكاك بالمشكلة :

والواقع ان افريقيا لم تستيقظ من سباتها فجأة ، فان وراء قرارات قطع العلاقات الدبلوماسية .. جولات من الاحتكاك بالمشكلة القائمة بدأت منذ وقف المغفور له جمال عبد الناصر في أول اجتماع لمنظمة الوحدة الافريقية ليعلن ان انتصار مصر في حرب السويس ضد الحلف الثلاثي الذي شن عدواناً على مصر عام ١٩٥٦ هو انتصار لافريقيا [٥] ان هــذه الملاحظة قد عنت فيما عنته ان مصر واحدة من الدول الافريقية ، وان مصائر هــذه الدول مرتبطة ببعضها البعض . ولقد أدى هذا الموقف الى ظهور مادة في ميثاق منظمة الوحدة الافريقية تنص على ان الدول الافريقية تعارض في ضم الاراضي بالقوة ، وتتعاون فيما بينها للوقوف في وجه من يفعل ذلك ضد أية دولة افريقية تواجه مثل هذا الخطر ، غير أن اسرائيل التي كانت تدرك حقيقةالاوضاع في الدول الافريقية الحديثة الاستقلال، وتعرف مدى افتقار هذه الدول الى الخبرات والمساعدات .. راحت تتسلل الى افريقيا ، برساميل استعمارية في الغالب ، في وقت كانت فيه الولايات المتحــدة الاميركية تضغط ضغطاً مباشراً على هــذه الدول الفتية لاتخاذ موقف مائع من مشكلة الشرق الأوسط ، أو موقف محايد في اضعف الايمان . ولقد كان أمام

(٥) مؤتمر القمة الافريقي الذي عقد في اديس أبابا من ٢٢ الى ٢٥ آيار ١٩٦٣ .

الدبلوماسية العربية ، وخاصة المصرية ، ان تتصرف بمنتهى الحذر لفضح الدور الاسرائيلي في افريقيا ، وقد استغرق ذلك اكثر من عشر سنوات طويلة ، قامت اسرائيل خلالها بعدوان ١٩٦٧ الذي نبه افريقيا الى ان اسرائيل ذات مطامع توسعية ، وان مصر ، احدى الدول المؤسسة لميثاق منظمة الوحدة الافريقية ، هي التي استهدفها العدوان فيما استهدف ، وهكذا هبت افريقيا لمناهضة العدوان ، ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران ١٩٧١ اتخذت منظمة الوحدة الافريقية ، في الدورة الثامنة لجمعية رؤساء الدول والحكومات الافريقية في أديس ابابا ، قراراً بصدد النزاع العربي الاسرائيلي بعنوان « قرار بصدد العدوان ضد الجمهورية العربية المتحدة » دعا الى وجوب « انسحاب القوات الاسرائيلية المسلحة فوراً من جميع الاراضي العربية الى خطوط الخامس من حزيران ١٩٦٧ » كما دعا الى ضرورة العمل لوضع قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ « موضع التنفيذ الكامل » (٦) ، واذا كان هذا القرار يعني انتصاراً للدبلوماسية العربية داخل منظمة الوحدة الافريقية ، فانه ، يعني ، قبل أي شيء آخر ، ان النزاع العربي الاسرائيلي قد أصبح موضع اهتمام القارة الافريقية ، من جهة ، وان القارة المذكورة على أعلى مستوى قد تبنت الموقف الداعي الى مناهضة العدوان الاسرائيلي ، من جهة أخرى .

ولم يكن من المدهش ان يؤكد هذا القرار على اولوية مبدأ الانسحاب من الاراضي المحتلة ، اذ أن ميثاق الوحدة الافريقية ذاته يولي مبدأ « سلامة اراضي » الدول الأعضاء بالمنظمة عناية كبيرة ، مؤكداً اياه في ديباجته ومادتيه الثانية والثالثة .

* * *

(٦) القرار رقم ٦٦ لجمعية رؤساء الدول والحكومات الافريقية ، نشرته الامم المتحدة مع غيره من القرارات الافريقية في تموز ١٩٧١ كوثيقة من وثائق مجلس الأمن .

المعونات الاسرائيلية :

ولكن . . هل يعني قطع العلاقات الدبلوماسية ما بين الدول الافريقية واسرائيل . . انهاء مرحلة التسلل الى القارة الافريقية ؟

للاجابة على هذا التساؤل لا بد من استعراض موجز لطبيعة العلاقات ما بين اسرائيل وافريقيا ، فهي علاقات ذات وجهين ، الاول سياسي ، والآخر اقتصادي . واذا كان قطع العلاقات يعني عزلة سياسية لاسرائيل في افريقيا ، فهو لا يعني عزلتها اقتصادياً . . حتى الآن ، لأن اسرائيل تغدق المعونات على الدول الافريقية . . بشكل اصبحت فيه هذه المعونات جزءاً لا يتجزأ من اقتصاد بعض الدول الافريقية (٧) .

تنقسم المعونات الاسرائيلية في افريقيا الى ثلاثة اقسام :

١ – المعونات الفنية في الزراعة .

٢ – النشاطات التجارية أو ما يسمى « المؤسسات التجارية المشتركة » .

٣ – المعونات العسكرية .

والواقع ان قيام اسرائيل بهذا الدور ، وهو ، عملياً ، أكبر من حجمها الحقيقي . . قد تم بسبب الفراغ الذي أحدثه غياب الدول الاستعمارية بعد حصول الدول الافريقية على استقلالها ، وقد كانت الولايات المتحدة وراء قيام اسرائيل بهذا الدور . . كي تجعلها البديل الملائم ، وهكذا كان الحضور الاسرائيلي في افريقيا حضوراً كاملاً يمثل مختلف الكوادر الاستعمارية والامبريالية التي ذهبت من افريقيا من الباب . . لتعود اليها من النافذة ، بشخص الكيان الاسرائيلي .

---

(٧) راجع كتاب « سياسة اسرائيل الخارجية في افريقيا » لمحمد علي العويني القاهرة ١٩٦٢ .

الديبلوماسية العربية

وقد أدى الدور الذي قامت به الدبلوماسية العربية المصرية والجزائرية والليبية، والدور الذي قامت به الدول الاسلامية، السعودية خاصة، عن طريق المؤتمر الاسلامي، الى كشف هذا الوجود الاسرائيلي وفضحه.. بصبر ورؤية، الأمر الذي أدى بالدول الافريقية إلى الحذر من اسرائيل أولاً، ثم التنديد بالعدوان ثانياً والاعلان أنها – اي الدول الافريقية – ستضطر الى اتخاذ تدابير سياسية واقتصادية فيما لو استمر العدوان على مصر وسورية [٨]

ونعود الى السؤال: هل سيكون الوقت الذي تقطع فيه افريقيا علاقاتها الاقتصادية بشكل ناجز، كما فعلت اوغندا قريباً، وبشكل يكون مكملاً لما تم على الصعيد الدبلوماسي والسياسي؟

قد يؤدي قطع العلاقات الدبلوماسية الى فتور وانكماش في حجم التبادل الاقتصادي. وتجربة اوغندا مع اسرائيل.. قد تكون نموذجاً لانهيار العلاقات بصورة ناجزة بعد قطع العلاقات الدبلوماسية [٩] غير أن استمرار المعونات

«٨» جاء هذا التحذير في الاجتماع العاشر لاقطاب البلدان الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية الذي انعقد في اديس ابابا في ايار ١٩٧٣، خاصة وان افريقيا بادرت الى حل المشكلة في الشرق الاوسط عن طريق لجنة العشرة التي تمثل منظمة الوحدة الافريقية ولجنة الحكماء الاربعة برئاسة سنغور، فاصطدمت بالرفض الاسرائيلي المتعصب.

«٩» قطعت اوغندا علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل في آذار ١٩٧٢ ثم طلبت من خبراء تل أبيب مغادرة البلاد، واستغنت عن جميع المعونات، مع العلم أنها كانت واحدة من دول أفريقيا التي تستعين باسرائيل في مختلف الميادين، وفي احصاء تم عام ١٩٦٩ تبين أن اوغندا من بين عشر دول أفريقية قد تلقت معونات عسكرية مباشرة من اسرائيل، بما في ذلك تدريب رجال الشرطة.

والمبادلات الاقتصادية بين اسرائيل والدول الافريقية ، على الرغم من قطع العلاقات الدبلوماسية ، ليس مستبعداً ، وعلينا ، نحن العرب ، أن نعزز الموقف السياسي الافريقي الممتاز بدعم اقتصادي . وهنا يجب ملاحظة الأمور التالية :

٣ نقـــاط :

١ً ـ على الأمة العربية أن تسعى ، بشكل أو بآخر ، إلى أن تحل محل اسرائيل في موضوع المعونات بجميع أشكالها . إن فكرة « البديل » ها هنا يمكن أن تعطي ثماراً ممتازة . فبدلاً من اسرائيل ذات المطامع الاستعمارية والحاملة الى أفريقيا راساميل امبريالية .. تدخل الدول العربية بمعونات وراساميل غايتها التضحية قبل أي شيء آخر ، لأن الأمة العربية ليست بذات مطامع معينة في أفريقيا ، وهي لا تعمل لحساب جهات امبريالية ، كما تفعل اسرائيل التي كانت وتسهم في تغلغل الاحتكارات الكبرى إلى افريقيا تحت ستار مساعدة الدول الافريقية»(١٠) .

٢ً ـ على الأمة العربية ، أن ترفد هذا الموقف الافريقي المؤيد لها .. بحملة اعلامية تستفيد من الخيبة العميقة التي برزت في اسرائيل عقب قطع العلاقات الدبلوماسية وتستفيد بالتالي من رد الفعل الذي قابلت به غولدا مائير التصرف الافريقي بوصف القارة بأنها غير متمدنة .

٣ً ـ على الأمة العربية ان تستفيد من درس التعامل مع المجموعات الدولية ككل .. قياساً على ما جرى في افريقيا خلال هذه الحرب .

* * *

ولأول مرة .. منذ بروز المشكلة .. تستطيع الحرب أن تكون وسيلة من وسائل الاقناع ، مثلها مثل الدبلوماسية ، فلو لم تنطلق اصوات المدافع لظلت افريقيا تندد بالعدوان الاسرائيلي .. دون ان تسارع الى القيام بقطع العلاقات الدبلوماسية ، أي ان تكون في صف الكفاح العادل .

«١٠» عن مقال بعنوان « عزلة اسرائيل » بقلم فلاديمير ايزيروف ظهر في نوفوستي » في ١٩٧٣/١٠/٥ .

تقرير

عما حطمته الحرب

عبد الحميد الحسن

ليس المقصود مما يلي تغنياً بالسلام ، ولا قرعاً لطبول الحرب ، ولا تنبؤاً علمياً أو شاعرياً لما سوف يحدث أو ما يجب أن يحدث بعد حرب السادس من تشرين : فهذه مجالها غير هذا المجال وقد كثر الحديث فيها .

انها خواطر « أوحتها » حرب تشرين، عن موضوعات « يبدو » أنه يجب اعادة النظر فيها؛ومن الأساس في بعض الأحيان. فحرب تشرين يبدو انها لم « تحطم عند الفجر»

أسطورة التفوق العسكري الاسرائيلي عموماً ، وسلاحه الجوي خصوصاً ؟ وأسطورة العربي الفأر فحسب، بل حطمت ما يقف وراء منشأ هذه الأساطير من ثقافات وعقليات، وان يكن تحطمها لم يبد للعيان حتى الآن لكبرها ولأننا ما زلنا الى الآن غارقين فيها ؛ إلا أن زعزعة كيانها أصبحت واضحة ، ولهذا يجب إعادة النظر فيها من جديد ؛ ومن الصعب عودة أكثرها الى ما كان عليه في الخامس من تشرين .

كما ثبتت الحرب وقائع جديدة، بعضها كان معروفاً ؛ لكنه كان أفكاراً في أذهان أصحابه ، خاضعة للأخذ والرد لا تخرج عن مجال الامكان البحت . إما لقلة الوقائع التي تثبتها ، وإما لقوة الوقائع ، ومنها المصالح النفعية ، التي تسند خصومها .

لكن المؤكد أن كثيراً من الأمور تحتـاج الى اعادة نظر ، وبعضها حيوي ومصيري للانسانية كلها ، وبعضها يتطلب مدداً طويلة ، وجهوداً متضافرة ؛ لكن الأمر يجب أن يبدأ الآن .

ظلت الحروب في عدة القرون الماضية حروباً « غربية » بحتة ، كانوا هم مثيريها ومطوري أسلحتها وطرفاً دائماً فيها ، بل ان الحربين العالميتين ، كانوا هم طرفيها. ولهذا تطبعت أصولها بمدنيتهم وبثقافتهم أي بكل مظاهر حياتهم من العلم حتى الأخـلاق . وبخبراتهم التاريخية منذ هجوم قبائل الهون والتوتون واحتلالها أوربا وتكوينها شعوبها الحالية ، إلى هجرتهم لأمريكا وإبادتهم سكانها الأصليين مع حروب الاستعمار من الهند إلى أفريقيا ؛ ولهذا لم تعد تدمغ بتلك الحرب التي تندلع لسبب معروف وتزول بزواله ؛ بل كانت كل تلك الحروب حرباً واحدة مستمرة تشتد وتخف بحسب الظروف الوقتية ؛ لايخرج من هذا إلا جانب من جوانب حروب نابليون ومعارك الثورة البلشفية .

وهكذا كان أبرز خصائص الحروب الحديثة ، معاملة العدو معاملة القطيع ؛ فان كان التاريخ لم يعرف فاتحاً « أرحم » من العرب، فان الحروب التي نجمت عن الثقافات اليونانية والرومانية والفارسية والصينية لم تخل من الجـانب الانساني أو الاخلاقي . اذا قورنت بالحروب التي أثارتها الثقافة الغربية ؛ بمدنيتها العلمية الآلية وثقافتها الفنية . لقد أصبح للحروب بعـد الحرب العالمية الثانية جوانب نفسية وإعلامية واقتصادية اعتمد عليها الغرب كثيراً وتتلمذنا على يديه فيها . ولكن حرب تشرين (وقبلها حرب فيتنام ؛ وان كان الأمر في الأولى أبرز لقصرها وعنفها وتقدم الاسلحة فيها وطول فترة التهيئة لها) اثراً بارزاً في تلك الجوانب هو :

الحرب النفسية :

لقد حارب العربي البسيط في السادس من تشرين في أقسى الظروف النفسية التي عرفها التاريخ ، لا يمكن تصويرها على الورق الا رمزياً بالصياد الضعيف الفقير الذي حارب سنة ١٩٦٧ من أجل الحصول على سمكة تسد رمقه ففتح قمقماً خرج منه جني هائل مخيف أمسكه بين سبابته وإبهامه وسأله ان يختار الميتة التي يريدها . وهذه الصورة ليست مني ، انها صورة عالمية. فعلم النفس علم غربي . « والاسرائيليون » أساتذته : ومختصونا ليسوا في أحسن الظروف إلا تلامذتهم . وما زال العربي الذي ضحك أستاذ علم النفس الغربي منه لمجرد إبداء رغبته في التخصص في علم النفس العسكري وقال له : أنتم العرب لستم دراسون لعلم النفس ، انتم موضوع لدراسته . مازال ذلك العربي حياً يرزق :

لقد تكلم الاستاذ عن « موضوع » علم النفس بلهجة السخرية والواقع أن علم النفس لم يصل الى مرتبة العلم ، ولم يصل الى النفس الانسانية الاصيلة . إنه كعلم لم يصل الى نتائج يقينية فكل نتائجه فروض . والنفس الانسانية لم يصل حتى الى تعريفها . أو إلى تمييزها عن النفس الحيوانية ، واكثر نتائجه يقيناً هي المتعلقة بعلم نفس الحيوان ، بالغرائز والميول ، فاذا انتقل الى الانسان تناول الفرد بمخاوفه وأهوائه ودوافعه . يستوي في هذا فرويد والسلوكيون . فاذا انتقل الى علم النفس الاجتماعي « والحرب النفسية والاعلامية ودراسات الرأي العام جزء منها » كانت نظرياته أقرب الى الشعر منها الى العلم .

وكانت حرب السادس من تشرين تجربة حاسمة . كان فيها كل ما يخيف الفرد من انعدام التجربة الفعلية السابقة ، الى ارهب الاسلحة ، الى « المختصين » يقفون وراء المذياع ويخاطبون أعمق مخاوفه الحيوانية :« أيها الجندي المصري : إن الجسور التي عبرتها الى الصحراء القاحلة قد دمرت ، دمرتها طائرات جيش الدفاع الاسرائيلي .. لقد انقطع الغذاء والماء ؛ وانقطع طريق هربك ما عليك لا .. الخ » ، أذيع هذا البلاغ في الثامن من تشرين .

ان الأساتذة يعرفون ان لكل فعل ، في النفس البشرية ، ردي فعل متناقضين ، لارداً واحداً يساويه إذ أن النفس البشرية « فاعل » وليست كتلة جامدة. حتى النفس الحيوانية ينطبق عليها هذا . وهكذا فالدافع الى الحرب قد يكون هو ذاته الدافع الى

الاستبسال . وإذن فلم نكن مخطئين « عباد قرد طاغية » عندما لقنّا أطفالنا خطبة طارق بن زياد الشهيرة ، مع أنها كما يقول « تلامذة » علم النفس . كان يجب أن تطرق أسماع الجيش العربي من الاذاعة الاسبانية تخاطبهم بقولها : يا أتباع طارق بن زياد : البحر من ورائكم و « نحن » من أمامكم ، وليس لكم ، والله ، إلا الموت أو الاستسلام ، وليس لكم من قوت إلا ما تستخلصونه من بين « أيدينا » .. الخ .

وخرج العربي من الحرب منتصراً ، كانت حرب استنزاف وحرب تضحية وصمود وحرب « تحمل » خسائر ، خرج منها منتصراً انتصاراً كاملاً . ولم تسجل المعركة حادثة تخاذل واحدة . وكانت تجربة حاسمة في علم النفس الحربي وفي الحرب النفسية ، اذا اضيفت الى ما أنجزته الشعوب الصغيرة من فرض لارادتها عن طريق الحرب الدفاعية الصامدة ، أجبرت علم النفس على اعادة النظر في ذاته ، أو أجبرت أصحابه على التواضع قليلاً .

الحرب الاعلامية :

وحادثة طارق بن زياد ، دليل على فشل الحرب الاعلامية أيضاً . فالحربان النفسية والاعلامية يتفرعان من جذر واحد . وتتميزان بأن الاعلامية أحدث ، وأنها تعتمد على وسائل الاعلام التي انتشرت منذ الحرب العالمية الثانية ، وتخاطب الجماهير ككتل لا كأفراد . ولكنها يجب أن تعود الى وسيلة « اخبار » سريعة لا وسيلة « تأثير » إلا إن جاء أثرها من « صدق » ما تقدمه ومن نزاهته . وهذا ما تبناه الاعلام العربي ، الرسمي على الأقل، وما حاذر أن يقع في متاهات غيره . وكان له أثر أسرع مما يتصوره الخيال ، أما الحرب الاعلامية « السابقة » ، بتنميقها وتزويقها وأصولها التي تحير الجاهل ، فتنبع من الثقافة الغربية التي تؤمن بنسبية الحقيقة ، وبأصول التغليط وبفن « الاقناع » للاقناع ذاته . وهذا قد ينجح في بعض المفارقات الصغيرة ، وفي تبرير بعض « النكت » التي تعتمد على هذه المفارقات . قد تنجح في فن « الاعلان » حيث تعتمد على الأهواء والغرائز في تمييز شيء عن شيء آخر من نوعه بحيث يمكن للخاضع للحملة الاعلانية أن يختار بين سيكارة وسيكارة ، أو بين شركة طيران واخرى (وحتى هنا يبقى الصدل ، ويبقى « طعم » السيكارة الأصلي هو المقرر الأخير) : ولكنه لاينجح في إقناع الجائع بأنه شبعان ، والحي بأنه ميت . وصاحب القضية بأنه محتال .

لقد اعتمدت الحرب الاعلامية الغربية على نقص الجانب الأخلاقي في الثقافة الغربية لصالح الجانب الفني الجمالي . ففشلت في اقناعنا مثلا بأن بترولنا ليس لنا . وقد ارتد سلاح أصحابها الى أنفسهم ؛ فالحملة الضارية المسعورة في تصوير أزمة البترول بأنها أزمة « طاقة » سوف تمنع الشعوب الغربية المسكينة من ركوب السيارة الخاصة (أكبر حاجة كمالية عرفها التاريخ وأخطرها على رؤوس المشاة وأطرافهم) والذهاب الى المسرح والاوبرا والمصيف « لا الكنيسة طبعاً » وهي أوضح مظاهر الحضارة الجمالية . أقول ان هذه الحملة التي تجاهلت أن سبعين بالمئة من البترول ليس « طاقة » صناعية ، بل هو « مادة » صناعية يلبس منها العالم نصف ملابسه الآن وكل دهاناته وأصبغته ونصف أثاث منزله ومفروشاته.. الخ . وأنها مادة استعمارية تنهب نهباً ، وأن العربي « الوغد » الذي « يبتز » أوربا في جعله البترول سلاحاً في المعركة قد ينتبه الى « حقه » في إعادة جعل البترول خاضعاً للعرض والطلب « وهو المادة الرئيسية الوحيدة التي بقيت خارج السوق من هذه الناحية ، بعد أن دخل الذهب فيها ، وهو المادة الوحيدة التي يحدد المستهلك سعرها لا المنتج » . وأن تحطم خرافة الأسلحة الهجومية الضخمة ، وزيادة فعالية الأسلحة الدفاعية سوف تمكنانه من تخليص حقه . كل هذه الحملة الاعلامية الموجهة « الناجحة » سوف تدركها الشعوب الغربية « المغلوبة على أمرها » لاعندما تتوقف سياراتها وأدوات تدفئتها ، بل عندما تتوقف كثير من مصانعها لقلة المادة الأولية الخام ونصف المصنعة التي أساسها البترول. وعندما تكتشف تلك الشعوب « الخاضعة للاستغلال » أن السبب ليس العربي « الوغد » بل هو المحتكر الذي يتمثل في حفنة من الشركات لاتدعمها الحكومات ، بل هي التي تصنع الحكومات. وعندها قد تمنع وسائل اعلامها من استعمال الكلمات الأخلاقية (وأضدادها) لأنها من اختصاص الحضارات الشرقية ، والعربية خاصة ، وتقصرها على الكلمات الفنية اللطيفة الأنيقة ... وعلى الصدق .

والدليل على تحطم « الحرب الاعلامية » أن القادة العرب المسؤولين في هذه الحرب اضطروا الى تنظيم حرب اعلامية موجهة حتى ضد أنفسهم .. لقد اضطروا سنوات الى لبس مسوح الزعيم العربي التقليدي المتردد الذي لايحكم عليه بأقواله وليس له أفعال تذكر ، وهذا مما زاد الاثر الاعلامي والنفسي عليهم وعلى شعوبهم أضعافاً مضاعفة ، بحيث كانت هذه الحرب هي الحرب الوحيدة التي اندلعت في دقيقة واحدة من الزمن. وكانت النتيجة المعروفة. فهل لها من مغزى يضاف الى أصالة هذه الامة وفداء أبنائها الا تحطم كل

البدع الفنية التقنية الحديثة غير المستقرة والعودة الى جوهر الانسان الاصلي النقي الذي قد يحارب الجني الهائل في سبيل سمكة تمثل حقه الذي لاينازع فيه وتمثل عصب حياته .

الحرب الهجومية :

أو الحرب الرادعة ، أو الصاعقة . كان أثرها الدرامي مريعاً بدأ لحظة احتلال هتلر لبولونيا وبلجيكا معتمداً على الآلة المتقدمة والدقة والنظام . وتطورت وتعقدت الى أن وصلت الى الاسلحة النووية والقاذفات الستراتيجية والصواريخ ثم شمل التعقيد كل شيء حتى البندقية الفردية . وبقيت أمراً لايخطر للبال المنازعة فيه ، الى أن بدأت أحداث الجزائر وكوبا تضع الاساس ، غير الملاحظ ، لنسفه ، ثم جاءت حرب فيتنام فبدأت الاذهان تعيد تقويم معنى كلمة « هجومي » . لكن حرب تشرين يبدو أنها حسمت الامر بوضوح وان كان لايصدقه العقل حتى الآن . وهو أن الاسلحة الهجومية المتطورة التي يكلف بناء النموذج الاول منها آلاف الملايين وتصل كلفة القطعة الواحدة منها الى عشرات الملايين ، أصبحت لاتستأهل الجهد المبذول فيها .

وكان أول من لاحظ هذا جنرال أمريكي « طبعاً » ، ومن الجيش البري « طبعاً أيضاً » والسبب في الطبع أن البحرية والطيران الامريكيين تورما وزادت أهميتها لدرجة اصبحت كل منها وزارة تابعة للرئيس . وللجيش البري وزارة ، ولكن ماقيمته وللبحرية مشاتها الخاصة التي خاضت كل الحروب من الحرب العالميــة حتى الان . قال الجنرال في الايام الاولى للحرب : « ان اقتحام خط بارليف أكبر مانع محصن في العالم المعتمد على امنع عائق مائي ورملي يحلم به جيش ، المحمي بمظلة جوية يدعي اربابها أنها اقوى مظلة عرفها التاريخ يوجب اعادة النظر بكل الحسابات السابقة المبنية على البحرية والطيران» . صحيح أنه اعتبر قناة السويس بحراً معادلا للمحيط الاطلسي» لكونه جنرال المشاة »، ولكن حجته تبقى مقنعة لاسباب اخرى: لقد كان سباق التسلح بين الجبارين قائماً على معادلة سلاح متقدم بسلاح متقدم من نوعه . فلكل طائرة غربية بمواصفات خاصة طائرة شرقية معينة بنفس المواصفات ؛ ولكل دبابة دبابة . وجاءت حرب تشرين « وهي من هنا متقدمة على حرب فيتنام » فأثبتت أن لكل طائرة صاروخاً ولكل دبابة صاروخاً . . وهنا برز الفرق بين السلاح «المجومي» والسلاح « الدفاعي » وشتان مابينها من حيث الكلفة

والسهولة . وعـادت الحرب الى معناها الاصلي، الى حرب الانسـان لا حرب الالة، وزاد في « الخط » من قدر الالة المعقدة اسراف الاسرائليين في استخدامها بحيث أن طائرة الفانتوم المصممة لطيران ساعات كانت ترسل في مهات دقائق فتسقط قبل أن تخفف من حمولتها من الوقود ، تسقط بملايين الدولارات التي صرفت لصنعها ولتدريب طياريها .

وإذ عادت الحرب الى وظيفتها الطبيعية التي هي الدفاع عن حق مهضوم سواء عند التقدم او عند التأخر ، عند البدء او عند الرد ، فقد عاد على الغرب أن يعيـد حساب الحقوق المتوجبة عليه للعالم كله . مع المطالبة « دبلوماسياً » بحقوقه المتوجبة له ؛ إن كان له شيء فيها . وما أزمة « الطاقة » التي فجرتها حرب تشرين على صورة لم يكن يتوقعها أحد أبداً ، إلا مثال على هذا . إن دول البترول التي دأب الغرب على عزلها في دويلات تعد الآلاف من السكان فقط ، مع تعريتها حتى من أسلحتها الثقافية والدينية وإغراقهـا بمظاهر حضارته « الأنيقة الجميلة » ، تلك « المناطق » التي دأب حتى اندلاع الحرب يقنعنا بقدرته على احتلالها بسرعة « كن فيكون » اكتشف ، قبل وصول أسطوله إليها ، أن ليس لهذا الاسطول حتى أثر إعلامي أو نفسي . قد يتمكن من إيجاد « حضور » لقواته العسكرية فيها ، ولكنه يستحيل عليه ضمان استمرار تدفق النفط منهـا ، وما أدراك بقلق الغرب ذي النظام الاجتماعي السيبرنتيكي المعقد من أن يهدده فقدان البترول حتى لفترة قصيرة ؛ وقطع النفط أسهل بكثير من احتلال آباره ، وطرقه شتى ! والأمر مازال محيراً لأصحابه حتى الآن ، وحله لايعرفه إلا الله (وبالمعنى الحرفي للكلمة) ، ويجب أن لاتغيب هذه الحقائق عن أذهاننا ، نحن أصحاب حرب تشرين ؛ أو بغيها التواضع أو « المسالمة » .

الحرب السياسية :

ولا نعني بها الحرب عن طريق الأمم المتحدة أو وزارات الخارجية أو المفاوضات المدروسة فهي قضية « دبلوماسية » معروفة تعتمد على وعي القائمين بها لقدراتهم ولمطاليبهم وتصميمهم على نوالها و « فصاحتهم » في المطالبة بها والإصرار عليها . إنهـا حرب سياسية أخص .

« يبدو » أن حرب تشرين زعزعتا في العالم العربي ؛ ولكن من هو المتأكد من هذا ؟ ومن يقتنع أربابها بفشلها إن تأكد من هذا ؟ إنها حرب صنع الأحداث بدلاً من

انتظارها ؛ وصنعها بأية وسيلة كانت . هي حرب التآمر والتقسيم والتفرقة ؛ تلك التي مازالت ناجحة حتى في فييتنام وكمبوديا وفي الشرق الأوسط بعضـاها الأصلي : الهند والباكستان وأفغانستان وإيران ؛ وفي أمريكا اللاتينية . تلك التي تعتمد ، كما يفهم من هنري بنين الأمريكي أحد ثقاتها على شراء الأشخاص وشراء الضمائر والعقائد ، والبحث عن وسائل انتشارها وإجهاضها ولو بلبس لبوسها . إنها حرب دبلوماسية إعلاميـة اقتصادية مكشوفة بالنسبة للمشاركين فيها مخفية عن الباقين . نعرفها في العالم العربي ونجحت في بعض معاركها الجزئية وإن لم تنجح في حربها النهائية كما حدث في الشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية .

وبعد حرب تشرين ثبت ، لفرحتنا الكبرى ، فشلها . ولكن مايجب قوله هنا أنها لم تنته بل ولم تتزعزع (في أذهان أصحابها على الأقل) ؛ مايجب قوله أننا يجب أن نتوقع ظهور فئات « غاضبة » ؛ و « مشاكل » لم تكن في الحسبان ؛ و « تطرفاً » يبدو عند الحساب لامبرر له ؛ يجب أن نتوقع هذا ، وأن نتقيه وأن نعالجه . وعلاجه بسيط هو المحافظة على روح تشرين والإصرار عليها والدأب على ترسيخها وتذكير الناس بها كل لحظة .

التحدّي

وعمادة النار

صلاح دهني

في أكثر من مدينة من مدن الجنوب السوري يتكرر مشهد مأسوي : مجموعة من الدور الطينية أو الاسمنتية الصغيرة ، كبيوت الدجاج ، تفصل بينها ممرات ضيقة ودروب متعرجة يميزها المرء من بعيد عن المساكن العادية الاخرى التي يقطنها أهالي المدينة الاصليون ، تلك هي التجمعات التي بناها لانفسهم اللاجئون الفلسطينيون الاوائل الذين طردهم الصهيونيون من ديارهم عام ١٩٤٨ . وبعد عام ١٩٦٧ أضيفت

الى تلك التجمعات المتميزة أحياء واضحة الجدة ، لاتقل عنها شقاء : تلك هي المساكن التي بدأ يستبدلها نازحو « حرب الايام الستة » القادمون من مرتفعات الجولان بالخيام الاولى التي منحت لهم بعيد الكارثة مباشرة .

جاء « النازحون » السوريون يزيدون صفوف «اللاجئين» الفلسطينيين ويجاورونهم « لنواح تنظيمية بحتة – كما يقال لك – تسهل مهمة رجال الامم المتحدة ومؤسسات الغوث ». ولكن الرمز الذي يمثله تكديس الالام والامال الخائبة لم يكن مما يعني اسرائيل والصهيونيين في نشوة الانتصارات الباهرة المتتالية التي حققوها .

كان ثمة رمز آخر، بل حقيقة أخرى رهيبة ما كانت لتغيب عن عيوننا نحن العرب: ان اسرائيل تسعى ، مرحلة بعد مرحلة ، لتجعل من العرب كلهم في دول المواجهة لاجئين ونازحين تلقي بهم أكداساً أكداساً، بعيداً عن ديارهم . وأكثر فأكثر نحو الصحراء، كيما تحل محلهم في الاراضي الخصبة يهوداً تأتي بهم من انحاء العالم وتوسع بهم رقعة امبراطورية عنصرية دينية جديدة تبنيها على انقاض العرب المنهارين .

لم يدرك العرب هذه الحقيقة الرهيبة قدر ما ادركوها بعد حرب حزيران رغم كل التحذيرات والدلائل السابقة . كان تدفق سيول النازحين الجدد السورية والاردن ومصر ناقوس الخطر الأكبر يقرع في الاذن العربية ، في الرؤية المقبلة لليهود لن يبقى امام العرب الا أن يعودوا الى الصحارى التي جاءوا منها ! يكون الدهر قد دار دورته . فالامة التي اعطت الاسلام وحملت مشعل الحضارة قروناً طويلة قد آن لها أن تندحر مجرجرة ذيول الخيبة عائدة الى رمالها وخيامها وجمالها .

كان التحدي كبيراً . حياة أم موت ! بقاء أم فناء ! سكين الجزار الشرس بدأت ترتفع ، وهي ذي تحز على الرقبة .

★ ★ ★

على مقياس التحدي، كان الحقد الشعبي على العدو يتأجج ويتعاظم، وكان الاستعداد لمعركة الثأر يكبر ويتنامى . «أقل في كل حال مما كانت تتصور أكثر فئات الشعب تطلباً » .

فكيما يكون لنا جيش يعرف كيف يحارب ، لا كيف ينهزم فقط . كنا ندفع نسبة ٧٠ ليرة من أصل كل ١٠٠ ليرة في ميزانية دولتنا لتأهيل المحاربين وتدريبهم وتسليحهم . بنسبة الـ ٣٠ الباقية لجهاز الدولة كله ، كنا نسد الرمق ونشد الأحزمة ونحمد الله على الزيت والزيتون .

أكثر من هذا . بنسبة الـ ٣٠ الباقية كنا نبني برامج طموحة للحياة ، ونخوض معركة ثلاث خطط خمسية متتالية نعرف مسبقاً ، وبغير كبير دهشة ، ولكن بحسرة ، أننا سوف لا نحققها .

النتيجة أننا بتنا لا نخجل من فقرنا . لأن أموالنا لا تهدر في استيراد المساحيق والعطور والسيارات الفارهة ، بل توظف في صبر وأناة وحكمة لدعم القـوة المقاتلة . كان الهدف القومي الأسمى عندنا في تحرير الأرض أهم من رفاهنا الشخصي .

جرى ذلك في صمت ، في حين بدا للعين غير المتمرسة أننا مددنا أرجلنا واسترحنا في وضعنا غير المريح كبلد متخلف .

★ ★ ★

من أجل أن نبلغ السلم ، كان يجب أن نخوض الحرب . ذاك قدرنا نحن العرب في هذه المرحلة . ولم نجبن أمام قدرنا . حملنا صليبنا الضخم عـلى كتفنا المقروح بأوصـاب قرون من المهانة ، وسرنا صابرين عـلى طريق الألام الطويلة الـتي هي طريق الخلاص .

كانت حالة اللاسلم واللاحرب الـتي امتدت منذ حزيران ١٩٦٧ ، ست سنوات دهرية فوق ما يحتمله الضمير العربي ؛ كان من الواضح أنه لن يكون هنالك من حـل - على البارد - للخروج من تلك الحـالة . فاسرائيل المتمنعة في صلف لا تستجيب لأي نداء وتلمس كل عبر التاريخ ، « ظلت تتبع ديبلوماسية التجارية قادت العرب الى تنظيم هجمة معاكسة لم يكن منها بد . » حسب قول لميشيل روكار ، المرشح السابق لرئاسة الجمهورية الفرنسية « أوردته مجلة الاوبسرفاتور ، عدد ٢٢ - ١٠ - ٧٣ » .

والآن لا نحن نادمون ولا نحن آسفون على الحرب التي خضناها ونحن اهـل السلام . فمعادة النار جعلتنا ؛ من حيث ندري ولا ندري ؛ نتطهر من أدران الهزائم والخيبات وما خلفت فينا من عقد ؛ فنجد أنفسنا ونحقق ذواتنا . وأرواح شهدائنا الذين سقطوا في ساحة الشرف هدتنا الى سبل النور ومهدت لنا السير في طريق سلام حقيقي عادل ننشده .

وتتلفت فاذا كل شيء تغير في عالمنا العربي بين عشية وضحاها : لم نكن قـد ربحنا الحرب بعد حين بدا وكأن بلداً جديداً وأمة جديدة قد انبثقتا عنها . علاقات أصفى وأنقى وجدت على مستوى الأنظمة والحكومات العربية بما فيها المتجافية المتنافرة والمتناحرة ؛ وكذا على مستوى الأفراد في البلد الواحد ؛ ونما احساس مدني أوثق .

★ ★ ★

على مستوى الانظمة والحكومات خضنا الحرب كلنا معاً ؛ والى حـد كبير يدا واحدة : الدول التقدمية تشق الطريق وتشكل القوة الضاربة العربية ضد العدو الصهيوني

ومن هم وراءه ؛ تردفها وتدعمها شقيقاتها جميعاً بما فيها دول النفط الـتي تتجاوز كل ارتباطاتها بالدول الامبريالية في حركة تضامن رائعة يضج لها العالم كله .

المآسي تجمع . ويبدو أن صيحة الولاء للقضية العامة ما تزال الى يوم الناس هذا تحرك اعمق اعماق العشيرة العربية الكبيرة . مع طلقات المدافع الاولى تناقلتها موجات الأثير ، ومع تفجر الدماء العربية غطت شاشات التلفزيون واتقذفت الى وجوه الناس في بيوت الخليج والجزيرة والمغرب ، وفاحت رائحتها ممتزجة برائحة البارود فزكمت الأنوف ، استيقظت روح العشيرة بعد أن ظلت هاجعة أمداً طويلاً . أطول من صبر الأمة ، نشرة الاخبار في الاذاعات والتلفزيون حلت محل قصيدة الشاعر القديم وحداء الحادي في المضارب المتناثرة . باتت الخبز اليومي إن لم أقل خبز وماء كل ساعة وكل دقيقة لمئة مليون الذين طالما عيّرهم الغرب بكثرتهم وقلة جدواهم ، والذين بدأوا يستردون ، مع أنباء الايام الاولى للحرب ، أنفاساً انبهرت ، وأوصالاً تقطعت ، وعيوناً تقرحت ، على مدى خيبات ربع قرن .

لم يكن لنا خيار . سرنا في الطريق التي عبر عنها « بول فاليري » حين قال : « ليس هناك بين البشر سوى علاقتين ، المنطق أو الحرب » . ولم يستغرب العرب أن فقد عدوهم المنطق . فليس أول منتصر حدثنا عنه التاريخ يغرق في نشـوة انتصاره فيفقد المنطق . لكننا دهشنا ـ رغم كل المقدمات ولأننا اعتدنا الخذلان ـ حين دخلنا حرباً طالما تمنيناها ، ودهشنا أكثر حين بدأنا نربح الحرب ، على ساحات القتال أولاً ومن ثم في حلبة السياسة العالمية ، دفعة واحدة . ومنذ الأيام الأولى تنامى فينا شـعور وليد بأننا ندخل التاريخ الحديث للبشرية ، بعـد أن مكثنا قروناً على هامشه ، كمية مهملة على قارعة الحضارة .

ومع الانتصار والصمود والمقدرة على البذل ، تقاطرت الاعترافات . تذكرنا التاريخ أننـا من بناته وصانعي انصع أيامه ، وهشت لنا الحضارة أننا من أسـلافها الشم الأصلاء .

« نيوزويك » ، اللسان الناطق لحضارة الرأسـمال الامبريالي وغطرسة القوة ، ذكرت قراءها في أعقاب السادس من تشرين ، بعد أن طال ما نست ونسوا ، بأن العرب هم الأمة التي ، بقيادة نبيها محمد ، قرعت أبواب أوربا ذات عصر .

ويجب أن يتابع الانسان الصحافة الاوربية في كل بلد ليرى الى التأثير السحري للحرب في اعادة الاعتبار الى الشخصية العربية .

أما الشعوب المستضعفة الطيبة في آسيا وافريقيا فقد أحاطت بنا تكلأ انتصاراتنا بعيون محبة ، وتحتضن عطاءاتنا وترعى يقظتنا الجديدة ، وتشد معنا الطوق على عنق الوحش ، وتوثق الحصار من حول المعتدي الزنيم .

بقي أن نقول إنه ، بعد الاعترافات التي تقاطرت والصحافة التي عكست اندهاش أوربا وتهليل الدول المستضعفة ومؤازرتها المعنوية العظيمة التأثير ، بعد هذا كله وقبله هناك صداقة الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي ، التي تأكدت بنحو بيّن مرة أخرى على محك الشدائد وكانت بمثابة الدرع الفولاذي الذي خضنا به الحرب بجرأة ومقدرة وفعالية .

* * *

غير مستوى الأنظمة والحكومات العربية ، على مستوى الافراد في البلد المحارب علّمتنا عادة النار أموراً كثيرة .

في الأيام الحالكة يميل الانسان ، عن ضعف أو خشية ، إلى التخزين .

في بيروت التي لم تصبها الحرب ، واستمرت البورجوازية فيها تنظم مهرجانات البريدج ، والرقص ، وتعرض على الشعب المتحرق على مصير الحرب أدنى أفلام الجنس والدعارة ، ارتفعت أسعار الرز والسكر والزيت وغيرها من حاجات كل بيت ، كل يوم بنسبة تزيد عن الضعف . لغير ما سبب حقيقي ملموس فعل الجشع التقليدي فعله المتوقع ، وأوداج وجيوب كبار التجار زادت انتفاخاً . كالعادة ، نحن خضنا المعركة وحققنا الانتصارات عبر نهر دم لأمتنا كلها ، وهم حققوا المكاسب الشخصية لجيوبهم .

من عجب أن الأسعار في دمشق المجاهدة الصابرة لم تتحرك قيد أنملة . في أقسى أيام الغارات الجوية ، وحين كان « دايان » يكشر عن أنيابه ويهدد دمشق وأنه خالع نعله وداخل يوم الجمعة المسجد الأموي ، كانت المخابز تعمل بانتظام ، والقصابون يبيعون اللحوم ، والبقالون يباشرون أعمالهم اليومية « الخباز واللحام من عنده ، ودون أن يطلب منه أحد أن يفعل ، كان يزجر الزبون المستزيد ، فلا يبيع سوى كمية معقولة ، ولكن بلا تقتير ، لكل شار ، رغم أن تصريف حصته اليومية في وقت مبكر أشد راحة له » ، بل شهد الناس أن أسعار الخضار هبطت أيام الحرب عنها قبلها وبعدها . ذلك

بالطبع بسبب حسن التنظيم التمويني الذي هو عندنا من اختصاص القطاع العام ، ولكن بدرجة لا تقل أهمية بسبب وعي المواطن العادي .

ولسبب آخر خطير ، أعلق عليه أهمية أساسية ، هو نمو إحساس مدني جديد انبثق مع الانتصارات الأولى في ضمائر الناس ، فزاد من تواصل الانسان بأخيه ، وشد من أواصر التلاحم بين المواطن في القاعدة والسلطة في القمة .

يذكرني ذلك ، ويشبه في زعمي ، حادثتي مع « كاني » .

و « كاني » فتاة انكليزية طيبة عرفتها وأنا طالب في باريس . جرى ذلك في ربيع عام ١٩٤٩ والعالم لم يتخلص بعد من الرزايا التي خلفتها الحرب العالمية الثانية بعد ثلاث سنوات من انتهائها . في عيد الفصح زرت لندن وقابلت « كاني » . فرحت بها وفرحت بي كصديقين قديمين . وفي يوم عودتي الى باريس ، خرجت الى وداعي في محطة تشيرنغ كروس . وقبل انطلاق القطار ، مددت يدي أناولها بطاقات التموين الفائضة عن حاجتي بعد انتهاء رحلتي اللندنية . ويجب أن يكون المرء قد زار لندن أو عاش فيها خلال تلك الأيام الصعبة لما بعد الحرب ليعرف معنى أن يحصل ببطاقات التموين على نصيب اضافي ، فوق ما هو مقنن ومحسوب له ، من البيض والزبد والسكر . لكنني رأيت الدهشة المستنكرة في عيون « كاني » بدل العرفان وببساطة طفولية ، ردت بطاقات التموين . قالت لي كلمات ماتنفك حية في خاطري بعد ربع قرن أو نحوه :

ـ لا ، شكراً ، شكراً حقاً ! لو أن حكومتنا كانت تعرف أن في قدرتها أن تمنح الفرد الانكليزي أكثر من الكمية المقننة المحددة له كل شهر لفعلت . لا أستطيع أخذها .

ردت لي بطاقات التموين الفائضة عن حاجتي ، وهي تعرف أنه لم يبق أمامي سوى أن أمزقها وعلى شدة حاجتها إليها . ردتها بغير تظاهر كاذب ، بل ببساطة وعفوية متناهية أخجلتني .

أخجلتني ساعتها ، لكنها بقيت عبرة في فؤادي لا أنساها : نموذج رفيع للثقة يمنحها المواطن في الأزمات الوطنية الكبرى ، عن حق أو غير حق ، عن جدارة أو غير جدارة ، للسلطة الحاكمة في وطنه ، وكذلك لاحترام الفرد نفسه وحرصه على احترام حقوق الآخرين .

هذه الأخلاقية هي التي سادت علاقات المواطنين في دمشق خلال تلك الاشراقة

الرائعة التي دامت ثلاثة اسابيع الحرب ، فحصنت متطوع الدفاع المدني ومتطوعـة الاسعاف ، والبائع والشاري ، وسائق التاكسي والراكب ، ضد نزوات الجشع والأنانية وهفوات الاستغلال والتجاوز . جو من محبة الناس للناس ، واحترام الفرد للفرد ، وروح من التفاني والتآخي والعطاء شاعت في البلد بعفوية رائعة وبلا تخطيط أو تدبير أو تقـديـر .

جو آخر يختلف من ألفه الى يائه عن أجواء حزيران ٦٧ ، روح العدمية والقرف وطعم الصديد نذكرها كلنا خلال « الأيام الستة » وفيما بعدها . نعرف كيف شاعت أيضاً في فرنسا الحرب العالمية الثانية وباريس ترزح تحت الجزمة الألمانية ، من خلال كتابات جان بول سارتر بخاصة . ماحدث عندنا يختلف ، حربنا الأخيرة علمتنا الأمل وحب الناس والحياة . بل أبعد من هذا : علمتنا تجاوز الذات .

أعرف ضباطاًمتقاعدين تجاوزوا سن الخدمة،أو لم يتجاوزوها ، طلبوا الانخراط في الجيش مجدداً وخوض المعركة .

وذات يوم دعي الى الخدمة قريب لي شاب من جند الاحتياط . في ذلك اليوم لم يجر فرزه الى قطعة ما وسوقه الى الجبهة ، عاد في المساء برماً بما أصابه من سوء طالع ، حدثنا كيف أن زملاءه الشباب يتدافعون متعجلين دخول المعركة بحماسة لم يشهدهـا عمره كلـه .

وكم وكم من ضابط عامل في أعقاب المعارك الطاحنة الدائرة كان يوفد الى الموخرة ، فما يبلغ داره ويرى عياله ويستحم في دقائق حتى تراه يتلهف الى مغادرة دمشق والاهل والدار ، ويعود مسرعاً الى رفاق سلاحه والى قطعته التي صـارت أهله ، والى موقعه من أرض المعركة التي باتت بيته الكبير .

في المدينة توالت تبرعات الافراد ، بلا لجان ولاتنظيم ولا مطالبة ، صارعديدون من ذوي النعمة يقدمون الهدايا للجنود والتبرعات والمعونات للمستشفيات .

جنود دولة شقيقة فتح لهم اصحاب المطاعم أبوابها بلا مقابل .

سيارات تموين عسكرية عبأها بعض تجار سوق الهال بالخضار والفاكهـة بالمجان .

موظفون في دوائرهم المدنية تنادوا للتبرع بالدم .

معلمات خدمن الجرحى في المشافي .

طلاب حملوا المعاول والرفوش وساعدوا في رفع الانقاض من البيوت التي دمرها

القصف الجوي ، آخرون حملوا الطحين على أكتافهم الى الشاحنات تنقله الى المخابز ، أطفال الفرق الكشفية عبأوا أعواد الكبريت في العلب .

أمثلة كثيرة ، بل قل أمثلة لا تحصر ، عن أعمال طيبة طوعية اندفع الناس في طريقها وقد تملكهم شعور الاثرة والاندفاع وقوة الجنان ، نتيجة شيوع روح النصر والتفاؤل خلال المعركة .

★ ★ ★

هي ذي الآن المدافع قد صمتت .

قمنا بعملية غسيل كبرى لعقول العالم كله ، بدءاً بعقولنا .

دفعنا الى الميدان جيشاً يمكن أن يحارب ، أي يمكن أن يخطط للحرب ، أي يمكن أن يتابع الحرب ، أي يمكن أن يكسب المعارك ، لا أن يخسرها فحسب .

ذاك ربح آخر كبير في هذه الحرب ، مهد للرابح الاخرى التي تقدمت .

كانت الحرب عندنا — حسب كلمة شهيرة للينين — مواصلة الجهود السياسية (التي لهثنا وراءها حتى تقطعت أنفاسنا) بوسائل السلاح .

وها قد حلّ اليوم دور الديبلوماسيين في أعقاب الدور الذي لعبه الجنرالات والقادة .

فهل ترى فهمت اسرائيل وفهمت أمريكا مغزى هذه الحرب ، ومغزى عمادة النار وتأثيرها فينا .

يقال أن كيسنجر أفهم نيكسون أن الاستراتيجية الامريكية في شرقنا لم يعد يسعها أن تمر عبر اسرائيل وحدها .

ويقال كذلك أن الاسرائيليين أنفسهم هذه الايام يصحون على حقيقة جديدة مرة : أن عليهم أن ينسوا يوماً بعد يوم ما وعدوا به أنفسهم من حياة أشد رخاء وأقل توتراً واتجاهاً نحو ما يسمونه زوراً وبهتاناً بـ « الدفاع » ، وأن عليهم أن يتجهوا نحو حياة أقل اسبرطية محاربة ، وأكثر آثينية مسالمة .

إن روح العنجهية والغطرسة الفارغة التي شحن بها الصهيونيون أنفسهم على مدى ربع قرن تجعلنا أقل ثقة في قدرتهم على التخلي عن العدوان .

غير أننا ، من جهتنا ، أقوى ثقة اليوم منا في أي وقت مضى بأننا بتنا قادرين حقاً وصدقاً على مواجهة العدوان وصدّه وكيل الضربات الى من فقد المنطق وفرض شريعة الحرب .

شهادات واقعية

تنشر المعرفة هـذه الشهادات الواقعية التي أدلى بها أجانب مقيمون في دمشق .
سوف ننشر القسم الثاني من هذه الشهادات في العدد القادم .

ايام الاختبار

الدكتور : ن . دوينوف - بلغاريا

اني ككل البلغار ، أكن دائماً لشعب الجمهورية العربية السورية مشاعر الود والصداقة والاحترام . ومبعث هذه المشاعر العميقة لايعود للاحداث والنضالات المعاصرة التي خاضها شعبانا في سبيل الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي ، ولا لروح الاممية المتأصلة في شعبنا الذي يحس بتحسس آلام الشعوب الاخرى ونكباتها ويبدي استعداده لتقديم كل مساعدة ممكنة لرد كل حيف أو اذى عنها .

لقد تنامت لديّ مشاعر الود والاحترام هذه من انطباعاتي الشخصية التي تكونت أثناء تعرفي الى بعض ممثلي هذا الشعب ومعايشتهم في وطني ومن هذه الانطباعات، حب السوريين للمعرفة والاخلاص والتسامح والموهبة وكرم الضيافة والتواضع . لقد عممت هذه الصفات الحميدة لممثلي الشعب السوري لتشمل كل هذا الشعب . وللحق أقول بان انطباعاتي العيانية خلال وجودي في الجمهورية العربية السورية لم تغير شيئاً من انطباعاتي السابقة بل دعمتها بقوة ورسختها .

لقد رأيت هنا ، في الآثار التاريخية ، رمزاً لموهبة كبيرة ولثقافة عريقة ، ورأيت ، فيما يبنى من مصانع وسدود ومشاريع ري ، تصميم الشعب على القضاء نهائياً على مخلفات الاستثمار والظلم الاستعماري ، تصميمه على أن يبني حياته وفقاً لأحدث منجزات التقدم التكنيكي ووفقاً لاكثر الاسس الاجتماعية عدالة .

وحيث انني انتمي لشعب أجتاز اكثر المراحل التي يمر بها شعب الجمهورية العربية السورية فانني أعرف جيداً الصعوبات الجمة التي تعترض هذه المسيرة وأعرف كم تتطلب من رجولة وبطولة . وهذه المعرفة تزيد أكثر فأكثر مشاعر الود والصداقة لدي نحو شعب سورية الكادح .

* * *

الحرب هي امتحان قاس في حياة الناس والشعوب إنها اختبار صعب لانضباطهم ورجولتهم ولاستعدادهم للفداء ، اختبار لمدى احتمالهم وتنظيمهم . والحرب التي توجب على الشعب السوري خوض غمارها في تشرين الاول من هذا العام ضد المغتصبين المحتلين الاسرائيليين برهنت على أن الشعب السوري قد بلغ هذا المستوى . لقد تسنى لي أن أرى ذلك طوال فترة العمليات الحربية ، على نطاق واسع في دمشق ، وعلى نطاق محدود في باقي القطر . وهذا قد زاد أيضاً من اعجابي واحترامي للشعب السوري .

الانطباع الأول والأقوى بالنسبة لي هو الذي تركته هذه الوحدة والاستعداد لدى جميع أوساط وفئات الشعب للمساهمة الفعالة في الحرب ، لتقديم كل ما يستطيعونه في سبيل النصر انها حرب تحريرية ، حرب وطنية بالنسبة للشعب السوري ولكونها هكذا فقد استبدل الشعب دون تردد ، بالجرار الدبابة والمفاتيح والمخارط بالبنادق والرشاشات وصمم على الدفاع عن وطنه .

استبدل طلاب المرحلة الثانوية زيهم المدرسي بآخر عسكري واستعاضوا عن الأقلام بالبنادق والرشيشات . وبجدية المتمرسين بالقتال أنجزوا جميع المهمات التي كلفوا بها .

وواظب المواطنون العاملون في المشاريع الاقتصادية والمؤسسات على عملهم الدائب وقدموا كل ما هو ضروري للجبهة ولسير الحياة الطبيعية في المؤخرة .

النساء والشيوخ والأطفال الذين ارسل أزواجهن وأبناؤهم وآباؤهم الى الجبهة واجهوا جميعاً الغارات الجوية بهدوء ودون هلع وتابعوا دون وجل سير المعارك الجوية التي دارت فوق رؤوسهم . لقد تحدثوا وامتدحوا كثيراً وبفرح فعالية وسائط الدفاع الجوي الصاروخية .

ليس في وسع الانسان أن لا يمتلىء بالاحترام للمرأة والأم السورية فقد كانت الحوامل من النساء وأمهات العديدين من الاطفال يقضين ساعات القصف المخيفة في منازلهن بهدوء ودون ضجة ، بل وكان بعضهن يتابعن ارتشاف القهوة على الشرفات تحت ارعاد محركات الطائرات ودوي الصواريخ المضادة .

كثيرون هم الفتيان الذين كانوا يصعدون أثناء الغارات الى أسطحة وشرفات المنازل بدلاً من التوجه الى المخابىء ليروا جيداً سير الاشتباكات . أنا طبعاً لا أقصد بهذا أنهم

كانوا على صواب ، ولكن هذا يدل دون شك على رباطة جأش وشجاعة وعلى ثقة بالقوى الدفاعية .

كثيرات هن الأمهات اللواتي أرسلن العديد من أولادهن الى الجبهة ووصلتهن أنباء المعارك الطاحنة . ولقد مرت أيام وليال كان خلالها القصف المدفعي مسموعاً بكل وضوح في دمشق . وكان طبيعياً أن يقلق الجميع على مصائر أولادهن العسكريين وأن يأملن بأن يذاع بيان رسمي عنهم . مع أن هذا الأمل لا يمكن أن يتحقق .

حضرت صدفة حديثاً جرى مع أم أرسلت أربعة من أولادها الى الجبهة . سألوها : ألا تخشين أن يستشهد اولادك ، ومن الممكن أن يكون بعضهم قد استشهد فعلاً؟

– آخ – قالت الام – يوجعني ذلك ويحزنني ! إنهم أطفالي ! ولكن ، اذا كان موتهم سيحمل لنا النصر على عدونا اللعين فان حزني وألمي سيكونان أخف وطأة .

* * *

أسقط الطيارون الاسرائيليون قنابلهم على أهداف مدنية : المركز الثقافي السوفييتي ، مستشفيات ، مدارس ، مساكن ، وقضى نحبهم تحت الانقاض مواطنون آمنون وأصيب أعضاء في السلك الدبلوماسي وأفراد أسرهم وكانت تلك أعمالاً ارهابية جلية لا يمكن أبداً تبريرها بأنها أخطاء أو نتيجة عدم دقة في الرمي اذ أن القصف استهدف أحياء سكنية لا يوجد فيها أي هدف عسكري . ولقد قوبلت هذه البربرية بالحقد والغضب المشروعين من قبل المواطنين وتوجهت بسرعة الى الاماكن المنكوبة الآليات والناس الذين عملوا ليل نهار على رفع الانقاض واخلاء الجرحى والقتلى . وقد تم ذلك بأعلى وتيرة وأدق نظام .

ورأيت شخصياً ، مرتين وفي مكانين مختلفين كيف تفجر قسطلان رئيسيان لجر المياه ، حيث تدفق نهران من مياه الشرب في الشوارع . وفي المرتين كان العطب يصلح خلال بضع ساعات وتعود المياه لتسيل نحو صنابير بيوت المواطنين وهذا في رأيي نجاح في امتحان التنظيم والمهارة والسرعة .

لقد ترك أكبر الاثر ايضاً لدى الناس ، عمل الجنود الآخرين الحسن في مجال التموين خلال فترة الحرب . لقد كانت مخازن بيع المواد الغذائية وحاجيات الاستهلاك اليومي مفتوحة دائماً حيث كان كل شيء ضروري موجوداً بوفرة . ولقد عمل بانتظام ايضاً باعة الخضر والفواكه المتجولون . ولقد تعود الناس الوقوف منتظمين في صفوف.

كما ظل الفلاحون يحملون بانتظام منتوجاتهم الى الاسواق على الرغم من الاشتباكات الجوية المخيفة فوق المدينة . وكان ملحوظاً انهم لم يرفعوا سعر أية سلعة من سلع الاستهلاك الشعبي وهذا بحد ذاته شهادة على النضج والانتظام .

لقد اعطت حرب تشرين الاول من هذا العام للمعتدي الاسرائيلي وللقوى التي تقف وراءه معطيات جدية تدعو لامعان الفكر . فلقد احس وفهم قبل كل شيء ، ان الجمهورية العربية السورية وبقية الاقطار العربية ليست غنيمة سهلة المنال كما اعتادوا ان يروها حتى الآن . وان مطالبة العرب الملحة بتحرير اراضيهم المحتلة ليست مجرد لغو فارغ أو تهديد اجوف . وانهم على استعداد لمواصلة السير حتى النهاية على طريق قضيتهم الدامي وتقديم المزيد والمزيد من الضحايا .

واقتنع الاسرائيليون من تجربتهم بانهم يواجهون جنوداً رجالاً شجعاناً يتقنون استعمال التكنيك الحربي المعاصر ، قادرين على ان يوجهوا لهم ضربات قاسية وان يقصفوا ويحطموا قوتهم التكنيكية والبشرية .

وفهم الخصم الاسرائيلي ، انه في الامتحان الاعلى ، وكما في ايام حرب تشرين الاول ، لن يستطيع التعويل على عدم الانتظام والانحلال في المؤخرة السورية والعربية عامة . ولقد صار هذا الاختبار بمثابة حافز لوحدة الشعب في القطر وللوحدة بين الاقطار العربية .

عسى ان يؤدي مثل هذا التفكير الى نتائج صحيحة والى قرار !

عسى ان لا تظل ثمة حاجة للبحث مجدداً عن حل القضايا بلغة السلاح .

قضيتكم سوف تنتصر

ايكاترينا غانيفا (بلغارية)

كان يوماً عادياً يحمل حرارة صيف متأخر ، حتى أن اكثر المراقبين خبرة لم يكن باستطاعته العثور على ما يشير الى أن هذا اليوم سيدخل التاريخ على انه بداية الحرب العربية – الاسرائيلية . وعندما أعلنت الاذاعة في وقت متأخر من بعد الظهر أن الجيوش العربية ، السورية والمصرية ، قد دخلت الحرب ضد العدو من أجل تلافي عدوان اسرائيلي وشيك الوقوع – كان رد الفعل الأول لدى الجميع هو شعور الفرحة والحماسة . كان العسكريون وحدهم يعرفون حقيقة ما عليهم أن يتحملوه ، كما أن القيادة دون ضجة ، وبطريقة منهجية واعية ، قامت بمهمتها من أجل وضع كل شيء موضع الاستعداد الشامل ، كالقوات المسلحة والمدنيين . وقد عرفنا بعد ذلك ، وبوقت غير قليل ، مدى ضخامة مثل هذا العمل .

وفي المساء وجه رئيس الجمهورية العربية السورية ، الفريق حافظ الاسد ، نداءه الاول ، من الاذاعة والتلفزيون ، الى الشعب ، وقد أكد الرئيس على أن هدفنا هو تحرير جميع الاراضي المحتلة واستعادة الحقوق الفلسطينية المشروعة . كان خطابه موجهاً الى الشعب ، الأمر الذي انعكس في اسلوبه المباشر ، المخلص ، دون انشائية بيانية فضفاضة . وكان ينبعث من وجه الرئيس الهدوء والثقة . كان قد بدا انه قد نحل بعض الشيء من جراء العمل المرهق في الايام السابقة . وكان لباسه العسكري يتناسب مع مظهره الرجولي . هذا اللقاء الاول مع الرئيس في هذا اليوم التاريخي أعطى انطباعاً لدى جماهير الشعب بأن البطل الذي انتظروه طويلاً والذي سينقذ العرب من وضعهم المهين انما هو الآن أمامهم . وفي الايام التالية ، عندما اجتاز الجيش العربي السوري خط الدفاع الاسرائيلي الذي كان يعده الصهاينة وكثير من الخبراء الاجانب حصناً لا يمكن اختراقه ، كان حب الشعب وعرفانه وتقديره لجيشه ولقائده العام الفريق

حافظ الاسد قد بلغ ذروته . واذا كنت اتحدث عن الحرب بتفاؤل فذلك لأني أعبر عن الحـالة النفسية لدى جميع ابناء الشعب. فالوضع المهين الذي وجدوا فيه أنفسهم بعد حزيران ١٩٦٧ قد هيأ لهذه الفرحة . كانت الجيوش العربية قد عرفت الهزيمة قبل ان تحارب ، كما تركت سلاحها على ساح المعركة . وكانت اسرائيل ، في كل مكان ، تتحدث عن قدرتها العسكرية وتذيع خرافة الجيش الذي لايقهر . وكم كانت مساعي مصر كبيرة لحل النزاع سلمياً ولكن النتيجة كانت تراوح في درجـة الصفر . فالولايات المتحدة الاميركية ، رغم مصالحها الخاصة ، كانت واقفة بكل طاقتهـا ، وبحزم ، الى جانب اسرائيل . والرأي العام يقول بأن الولايات المتحدة انما تدعم اسرائيل لأسباب داخلية لديها ، ويقول آخرون ان الصهاينة ، في آخر الأمر ، هم الذين يقطعون بشأن انتخابات الرئاسة في اميركا ، ويرى آخرون ان الصهاينـة هم الذين يسيطرون على الاقتصاد الاميركي ويضعون له خط سيره . لاشك ان هناك شيئاً صحيحاً في هذه الأسباب ، ولكن هناك دراسة حول هذا الموضوع اكتشفت أسباباً أخرى لعلهـا أكثر صحة ، فالصهاينة في الولايات المتحدة الاميركية منتظمون في « مجموعات للضغط » الشيء الذي يجعلهم يسيطرون ، في درجة كبرى على الرأي العام الأميركي . ذلك لان اكثرية الاميركيين ، بدل ان يتعبوا أنفسهم بفهم السياسة برؤوسهم وافكارهم ، يفضلون الالتزام بآراء حزب او مجموعة ، ويقبلون الرأي الجاهز الذي يلقى عليهم . والكونغرس الاميركي والبنتاغون يساعدان اسرائيل دون شروط وبلا حدود ، الشيء الذي نتـج عنه ان وقاحة اسرائيل اصبحت هي الاخرى بلا حدود ، ومقابل اي عمل كان يقوم به الفدائيون الفلسطينيون ، كان الاسرائيليون يقصفون بالطائرات الاهداف المدنية ، والمدنيين ، في سوريا ولبنان ومصر . وعندما كانت هـذه « المبررات » تنقصهم ، كانوا يقومون بعدوانهم دون « مبررات » . وهكذا فقد وصفوا « خطأ » وأسقطوا الطائرة الليبية المدنية التي كانت تقل اكثر من تسعين راكباً . وكانت مطامع «الصقور» الاسرائيلية تكبر يوماً بعد يوم . وهكذا ، فالأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ أخذوا يعتبرونها مثل اراضيهم الخاصة ، وقد قاموا بمجهودات كبرى لجعلها « اسرائيلية » ، وأقاموا عليها مستعمرات صهيونية ، وهدموا القرى العربية وأزالوها كي لايتحدث احد عن وجه البلاد العربي . ان حلم الصهاينة بدولة يهودية تمتد من النيل الى الفرات كاد أن يصبح حقيقة ، خاصة اذا ماجاء « عدوان » صغير آخر ، كما كانوا يأملون ، ليتيح لهم ضم بعض الاراضي « الصغيرة » ايضاً .

بعد عدوان حزيران جرى رفع شعار : « الاراضي المأخوذة بالقوة لاتسترجع الا بالقوة » . وكانت ، على الاخص ، تقف منهجياً بجانب هـذا الشعار ، الجمهورية العربية السورية التي رفضت الاعتراف بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ في الثاني والعشرين من نوفمبر ١٩٦٧ ، اذ كانت تعلم بأن هذا القرار لن يعطي أية نتيجة .

وفي مؤتمر البلدان غير المنحازة الذي انعقـد في الجزائر ، في هذا العام ، أعلن الرئيس حافظ الأسد ، أننا لسنا ضد الانفراج الدولي ولكن السلام يجب أن يكون لجميع الشعوب دون تمييز ، ولا يمكن أن يتحقق إذا لم تحل القضايا الأساسية التي تخلق نزاعات مسلحة . لقد رفضت اسرائيل تنفيذ قرار مجلس الأمن طوال السنوات الست الأخيرة ، فماذا يبقى أمام الأمة العربية الا أن توحد جهودها ، وتناضل من أجـل استرجاع أراضيها وحقوقها . ولقد كان واقع الوحدة العربية الفعلية غـير متوقع بالنسبة للمراقبين ، ذلك لأنه كانت أمامهم جميع مؤتمرات القمة العربية السابقة . ان التقاء الرئيسين الأسد والسادات والملك حسين عشية الحرب كان يمكن ان يوضع ضمن هذه الالتقاءات التي لم تعط النتائج المطلوبة ، لو أن رؤساء الدول العربية بعد ساعات من بدء الحرب لم يعبروا عن دعمهم المطلق للبلدين اللذين خاضا المعركة ضد العدو الغادر رجال وسلاح وأعتدة ودعم مادي ووسائل سياسية ، كل ذلك وضع تحت تصرف الدولتين العربيتين : سوريا ومصر ، ولكن كل ذلك لم يكن كثيراً اذا قيس بالعزة والكرامة القوميتين اللتين عادتا للعرب ، اذا قيس بحقهم الآن في أن يحلموا بمستقبل اكثر سعادة . ان الحاضر هو النضال والتضحيات والآلام ، والمستقبل هو الوجود دون تهديد اسرائيل المتواصل ، المستقبل هو الملايين والملايين الموضوعـة لصالح عمل بناء ، في خدمة التقدم ، وليس لمشتري أسلحة الدمار .

بين جميع هذه الوسائل التي وضعت في معركة التحرير أخذ سلاح البترول مكانـاً هاماً للغاية . وكان قرار البلدان العربية المنتجة للنفط بأن توقف صادراتها منه الى الولايات المتحدة ، وبأن تخفض انتاجها الشهري بمقدار ٥ ٪ ، كل ذلك استقبل بموجـة من الذعر الحقيقي خاصة في البلدان الاوروبية التي يعتمـد على النفط العربي بشكل رئيسي . إن سوء التفاهم الذي حصل بين دول حلف الاطلسي الاوروبية وبين الولايات المتحدة يعود لهذه النقطة ، سلاح البترول . فاذا كانت اغلبية الدول الاوروبية قد قررت اتخاذ موقف الحياد أو دعم القضية العربية فالفضل هو للتهديد بحرمانها من النفط العربي . من وجهـة

أخرى فان رفع اسعار البترول من قبل البلدان المنتجة قد فرض رفع اسعار البترول من قبل البلدان المنتجة قد فرض رفـع اسعار النفط ومنتجاته في البلدان الغربية ، الشيء الذي خلق جواً من عدم الثبات الاقتصادي . من هذه الناحية نرى ان النزاع المسلح في الشرق الاوسط لايشمل فقط البلدان المتحاربة بل الدول الاوروبية واميركا ايضاً. والعالم الثالث ، من جهة ، كان متضامناً مع البلدان العربية ، وقـد قطع علاقاته مع اسرائيل ، ماعدا بعض الاستثناءات . وكما اعلنت رئيسة وزراء الصهاينة في احدى مقابلاتها فان اميركا هي الصديق الوحيد لاسرائيل .

بينما كان الوضع العالمي ينتظم حسب المخطط الذي ذكرناه ، كان الجنود السوريون والمصريون يظهرون روائع من البطولة . وكثير من المعارك التي شاركت فيهـا مئات الدبابات ، قد دخلت في تاريخ الفن العسكري . واعتبر اختراق خط دفاع الاسرائيليين في الجولان وعلى ضفة قناة السويس ، حسب رأي الخبراء العسكريين . أكثر من مأثرة حربية . فهذا يظهر أن الجندي العربي ليس مستعداً فقط للموت في سبيل تحرير بلاده ، بل هو قادر على استخدام أكثر الأساليب الحربية حداثة وأكثر الأسلحة تعقيداً ،وبذلك فقد هدم المزاعم الصهيونية حول عدم قدرة الانسان العربي .

انه لداع للاهتمام أن أول من يدفع ثمن الأكاذيب هو الذي يروجها . وهكذا فقد صدق الصهاينة أكاذيبهم التي اخترعوها ، وأعطوا ضحايا أكثر بكثير ، لأنهم لم يكونوا ينتظرون من العرب مثل هذه الضربات . وفي الأيام الاول من الحرب أعلنت وكالات الأنباء الأجنبية أنه بعد انتهاء الحرب ستحصل في اسرائيل فضيحة أكبر من فضيحـة ووتر غيت ، وذلك عندما يعرف الاسرائيليون حقيقة الخسارة في الرجال والمعدات التي أوقعها بهم هؤلاء العرب الذين صورهم الجنرالات الاسرائيليون على أنهم غير قادرين ولا أكفاء . ان الحرب لم تنته بعد ، ومع ذلك فقد بدأت الفضائح ، وحسب رأي المراقبين الاجانب فان الناس في اسرائيل يهتمون فقط بمصير أقاربهم في الجبهة ، ولا يهتمون بالأراضي ولا بوقف اطلاق النار . ان موشي دايان الذي صفق له الجنود في عـام ١٩٦٧ ، يقاطعونه الآن ، كما طلب استقالته بعض الوزراء . وهذا يعني أن البلدان العربية قد ربحت كثيراً رغم أن اسرائيل قد استفادت من الساعات الاول التي اعلن فيها وقف اطلاق النار واستولت على بعض المراكز في الجولان وفي الجبهة المصرية. وكما اعلن الرئيس حافظ الاسد في خطابه الثالث الى الامة في ٢٩ اكتوبر اذ قال : اننـا لم نحرر اراضينا ولكننا أثبتنا للعالم ولانفسنا قبل كل شيء بأن الانسان العربي قادر على استخدام

احدث التكنيك، وعلى أن يضحي بنفسه في سبيل تحرير بلاده. لقد فاجأنا وقف إطلاق النار بينا كنا في تراجع تكنيكي عن مراكزنا الاولى ولكننا ربحنا اكثر بكثير على الصعيد المعنوي فاستعدنا الثقة بالنفس، وعلى صعيد الوحدة العربية ، وشعور عدم الامن الذي أثرناه في اسرائيل لقد كنا مستعدين لحرب طويلة قاسية مع العدو ولكننا أوقفنا اطلاق النار وقبلنا قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ الذي يتفق مع مطامحنا ومفاهيمنا .

ومن جديد ، في خطاب الرئيس تنبثق اللهجة المتفائلة الصادقة المخلصة لكي يفهمه الشعب الذي يمشي معه ، ولكي يجعله يشعر بأن ابنه يخدمه بشرف وبكل ما يستطيع من قوة . واني لأذكر أحد النداءات الموجهة من اذاعة دمشق الى الاسرائيليين : « اننا لانريد القتل أو التدمير ولكننا نريد استعادة أراضينا المحتلة » . ان مثل هذا الوعي من الجيش العربي يرفعه الى نفس مرتبة الجيوش التحررية ، وهو يستحق تقديرنا وعرفاننا وحبنا .

ان وحدة الشعب والجيش والقائد، والثقة بالحق ، وهذه الدعامة من الامة العربية جمعاء ، ومن الأصدقاء الذين لايحصون في العالم ، كل ذلك يجعلنا نهتف مؤمنين بأن قضيتكم ستنتصر .

اذا ما اتحدنا ، فاننا لايمكن ان نقهر

الدكتور كارل جورج – برلين – المانيا الديمقراطية

في المهرجان العاشر للشبيبة والطلبة كان الفتيات والشباب من سائر انحاء العالم ينشدون بحماس ووعي ، وبروح نضالية عالية ومتفائلة شطراً من اغنية لاتنسى . هذا الشطر يقول : « اذا ما اتحدنا ، فاننا لايمكن أن نقهر » .

لقدكانوا ينشدونهذهالأغنيةوهم يعون أهمية التضامن في النضال ضدالامبريالية، وأهمية الوحدة في الصراع من أجل سلام دائم ، وفي سبيل سيادة التعاون بين الامم والبشر، حيث يكون ضرورياً دعم التقدم ودحر العدو المشترك لجميع الناس : الامبريالية. ولقد تعاهد ممثلو الشبيبة التقدمية في العالم على دعم التضامن المعادي للامبريالية من أجل السلام والصداقة قبل انتهاء مهرجانهم الحافل.

ولم ينقض وقت طويل ، حتى كان هذا العهد موضع اختبار جدي ، فقد كشفت الامبريالية العالمية من جديد عن وجهها البشع الذي كان الشبيبة قد فضحوه في مهرجان برلين واظهروا لا انسانيته ، وقد بدا هذا الوجه في الانقلاب الرجعي التشيلي الذي لايمكن تصور اجرامه والذي دعمته الولايات المتحدة ضد النظام الديمقراطي ، وأودى بحياة الرئيس أليندي ، الرجل الذي حظي باحترام العالم التقدمي بأمره ، ومعه اكثر من عشرين الف عامل وفلاح وفنان مبدع ، فضلا عن الشاعر العظيم بابلو نيرودا الذي ذهب بدوره ضحية للانقلاب الرجعي ، لقد داس الجنرالات على القوانين والحقوق الانسانية ، ولا زالوا يرتكبون حتى اليوم ، وبصورة مستمرة ، جرائم وحشية ضد شعب تشيلي الذي لم يقترف أي جرم ، بل حاول استغلال حقه في بناء حياة حرة ومستقلة تليق به بين البشر .

ان الحرية والاستقلال والكرامة الانسانية التي يمتدحها عالم الرأسمالية كشكل خاصة

به ، هي في الحقيقة ابرز ضحايا الامبريالية واعدائها ، لانها تنسق أسس وجودها القائم على استغلال واخضاع الانسان .

غير أن الحرية والاستقلال والكرامة الانسانية هي ايضاً من مثل حركة التحرر الوطني في البلدان العربية التي تناضل بالتحالف الوثيق مع البلدان الاشتراكية والقوى التقدمية في البلدان الرأسمالية من أجل تحرير المناطق التي تحتلها اسرائيل الامبريالية وفي سبيل استعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين العربي . ولهذا زاد الامبرياليون من جديد حدة التوتر واضرموا النار التي ادت الى الحرب . لقد داست اسرائيل مرة اخرى على قرارات مجلس الامن وامتهنت بجلافة حقوق الشعوب ، وواصلت سياستها التوسعية بدعم من الولايات المتحدة وحلفائها في حلف الناتو . فقامت الطائرات الاسرائيلية ذات المنشأ الاميركي بتدمير وحشي الاهداف المدنية ، وقتلت النساء والاطفال . ولا يستطيع المرء أن ينسى الغيوم السوداء الداكنة التي كانت تغطي دمشق . كرمز للارهاب الجوي ، وكرمز لقتل اناس ابرياء يحبون الحياة والسلام .

ولكن أشجار « الذين لا يقهرون » ، كما كانوا يسمون أنفسهم بتبجح حتى وقت قصير ، لا يمكن أن تصعد الى السماء ، لان القوى القادرة على لجم الوحش الامبريالي قد نمت وتعززت قدراتها وصار بوسعها التصدي بحزم للوحشية الامبريالية ، وقد وقف الشعب والجيش في البلدان العربية المغدورة في وجه الغزاة وقفة باسلة ، وقامت وحدات عسكرية من البلدان الشقيقة بدعم النضال العادل ، ففقدت الاسلحة التي طبل العدو لها طويلاً وزمر فعاليتها بفعل الاسلحة الأفضل التي قدمتها يد الأصدقاء ، وغدت كلمة « سام » رمزاً للصداقة مع الاتحاد السوفياتي . وتعالت عاصفة من الاحتجاج في سائر ارجاء المعمورة ضد عدوان الامبريالية الاسرائيلية ، وانصب الاحتقار والغضب على رأس المعتدين من الانسانية التقدمية بأسرها ، ومن جديد بدا واضحاً من هو الصديق الحقيقي للشعوب العربية في نضالها العادل ومن يقف وراء المعتدين . فقد أدان الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى المعتدي الاسرائيلي واعلنت هذه البلدان تضامنها مع القضية العادلة للشعوب العربية . ويقول البيان المشترك الصادر في ٧ تشرين ١٩٧٣ عن المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الالماني الموحد ومجلس الدولة ومجلس الوزراء في ألمانيا الديموقراطية ما يلي :

إن المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الالماني الموحد ومجلس الدولة ومجلس الوزراء في جمهورية المانيا الديمقراطية يدينون باسم شعب المانيا

الديمقراطية السياسة الحربية والتوسعية لاسرائيل ويدعون بحزم المطالب العادلة للشعوب والدول العربية في الانسحاب الكامل لاسرائيل من المناطق العربية المحتلة عام ١٩٦٧، وفي تحقيق المطالب الشرعية لشعب فلسطين العربي. ان شعب المانيا الديمقراطية يدعم ، بالاشتراك مع شعوب الاتحاد السوفياتي وشعوب بلدان الجماعة الاشتراكية ، في الوضع الراهن دوماً سائر الدول والشعوب المناضلة من أجل حريتها واستقلالها ويؤكد للشعوب العربية تضامنه الوثيق معها . وقد اعقب هذا البيان مظاهر متعددة لتضامن شعب المانيا الديمقراطية مع العرب ، فتبرع الاتحاد الالماني الحر لنقابات العمال بمبلغ ١٠ ملايين مارك لسوريا ومصر ، ووصلت من المانيا الديمقراطية إلى سوريا ومصر تبرعات تضامنية مثل الدم والادوية والادوات والاجهزة الطبية . وقدمت المانيا الديمقراطية عرضاً بمداواة المقاتلين الجرحى ، والعناية بايتام الحرب . كما اعلن استعداد جمهوريتنا للعمل بسرعة على دعم اعادة بناء بعض المؤسسات الصناعية المدمرة في سوريا بواسطة خبراء المان ديمقراطيين . ويجتمع مواطنو المانيا الديمقراطية في المصانع والمزارع التعاونية والجامعات والمدارس للاحتجاج على العدوان واتخاذ اجراءات الدعم الفعال لنضال الشعوب العربية . وقد رأى اعضاء فرقة امية ، وكانوا يقومون بجولة في بلادنا موجة التعاطف والتضامن مع النضال العربي .

إن هذا التضامن الشريف مع جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتهاواستقلالها هو صفة جوهرية لسائر بلدان الجماعة الاشتراكية ، وهو تعبير عن القناعة الكامنة في الشطرة الذي ذكرته من أغنية برتولدبرشت القائلة :

« تقدموا ، ولاتنسوا
أين تكمن قوتنا
عند الجوع والشبع
تقدموا ولاتنسوا
التضامن :

هذا التضامن ، هذه الوحدة في نضال الانسانية المحبة للسلام التي يقودها الاتحاد السوفياتي سترغم اسرائيل المعتدية ، وسترغم الامبريالية ، برغم سائر محاولاتها التضليلية، على قبول حل عادل لنزاع الشعب الاوسط وستؤمن وحدة الانسانية المحبة السلام لسائر الشعوب ، سواء كانت في أمريكا اللاتينية أم آسيا أو أفريقيا ، الحق في الاستقلال والحرية والسيادة الوطنية . فهي الضمانة لانتصار السلام والاشتراكية في العالم بأكمله .

حول الملتقى الثامن للفكر الاسلامي

تعلن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية أن الملتقى الثامن للفكر الاسلامي سينعقد في بجاية بقاعة المسرح البلدي من الثامن الى التاسع عشر من ربيع الاول ١٣٩٤ ﻫ الموافق الفاتح الى الثاني عشر نيسان ١٩٧٤م

وسيحضر طلاب وطالبات جامعات الجزائر ، وقسنطينة . ووهران ، وتلاميذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الأولى والنهائية سابقاً) من أي بلد كان ،وسيسمح لغير الطلبة من الجزائر وغيرها ممن هم في المستوى المذكور بالمشاركة في الملتقى حسب الاماكن الشاغرة .

وستدعى الى الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث من الجزائر وغيرها من أنحاء العالم الاسلامي وبلدان اخرى لالقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، والمناقشة فيها بحضور الطلبة ومشاركتهم .

ونظام الملتقى هو النظام الداخلي ، ويمكن السماح بالنظام الخارجي لمن يطلبه .

هذا وتتحمل الوزارة،في اطار الملتقى ، نفقات داخل التراب الوطني،وبالنسبة للطلبة الآتين من أوروبا فستتحمل الوزارة نفقات سفرهم ذهاباً واياباً من مرسيليا واليها أو أحد موانئ البحر الابيض المتوسط .

وسيطلب من المشاركين اسهام رمزي قدرة خمسون ديناراً جزائرياً ، ويعفى منه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم .

وترسل طلبات المشاركة إلى ادارة البحوث الاسلامية ، نيابة الملتقيات،وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، ٤ نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبة المشاركة هو السابع من محرم ١٣٩٤ ﻫ الموافق ٣١ كانون الثاني ١٩٧٤ م .

هذا وسيكون جدول الأعمال كالآتي :

١ – وضع الأقليات والجاليات عموماً والاسلامية خصوصاً في كثير من بلدان القارات الخمس ، وواجب العلماء ، ورجال الاعلام نحوها .

٢ – دور المفكر اليوم وعلى مر العصور في أمته وتجاه الانسانية في كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل .

٣ – مساهمة بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين وأسباب وآثار انحطاطها .

٤ – مساهمة الحضارة والفكر الاسلامي في مختلف مجالات العلوم ، والفنون ، والتراث الانساني على العموم ، عوامل ازدهارها – أسباب وشروط انبعاثها – .

٥ – الأصالة والتفتح – ما معناها ؟ وما مدى أهمية هذا الجمع اليوم بالنسبة للأفراد والأمم ولمصير الانسانية كلها ؟

★ ★ ★

ملاحظات حول مقال

« أضواء على بعض مقومات التصنيع »

السيد رئيس تحرير مجلة « المعرفة »

تحية عربية :

توضيحاً ورداً على بعض ما ورد في مقال نشر في مجلة « المعرفة » العدد ١٤١ تشرين الثاني – ١٩٧٣ – ص ١٣) تحت عنوان « أضواء على بعض مقومات التصنيع» بقلم السيد برهان داغستاني ، فاننا نبين ما يلي :

ذهب كاتب المقال الى تقسيم المشاريع الصناعية الى قسمين :

الأول : مشاريع تمليها ضرورة نهضة القطر ، لابد من اقامتها بغض النظر عن الريعية الاقتصادية المباشرة لها وهي الصناعات الثقيلة .

الثاني : صناعات متوسطة وتحويلية وهي المشاريع ذات الريعية الاقتصادية .

وفي كلا الحالين هناك مجموعة اسئلة كاملة من أجل الاجابة على المعلومات اللازمة لاقامة اي مشروع وهو ما يسمى دليل المشروع الصناعي » .

وبغض النظر عما في هذا التقسيم من تبسيط ... فان المعايير التي اعتمدتها الدولة في وضع خطتها الانمائية ، موجودة في مقدمة الخطة الخمسية الثالثة أو أسبابها الموجبة وهي اكثر تعقيداً وعلمية ونضجاً من هذا المفهوم « البسيط » وتعتمد الاسس التالية :

١ – المشروعات الضرورية والتي لابد منها لحسن تشغيل وانجاز مشروعات قائمة ومشروعات جار تنفيذها .

٢ — المشروعات الضرورية لحسن استثمار الثروات الطبيعية المتوفرة في البلاد .

٣ — المشروعات الضرورية للاستغناء عن بعض السلع المستوردة من الخارج .

٤ — المشروعات الضرورية لسد الطلب المحلي المتزايد من سلعة معينة .

٥ — المشروعات الضرورية لتطوير فنون الانتاج والتقنية الحديثة .

٦ — المشروعات الضرورية لزيادة التصدير .

٧ — المشروعات الضرورية لاعتبارات استراتيجية مختلفة .

وقد ذكر كاتب المقال بأنه « تقدم الى هيئة تخطيط الدولة مئات الدراسات حول المشاريع الا أن أحداً في تلك الهيئة لم يكلف نفسه عناء استقراء هذه الدراسات حول اقامة المصانع ليخلص منها الى ضرورة توفر مجموعة معلومات أساسية لكل مشروع وهي ما يسمى دليل المشروع الصناعي » .

ونود أن نضيف الى معلوماته ، أنه لايتم اقرار أي مشروع في الخطة الا بعد استكمال دراساته الاقتصادية والمالية والفنية التبريرية . كما أن هيئة تخطيط الدولة قامت باعداد (مشروع دليل التقييم الميدني للمشاريع الانمائية) الذي عكفت على دراسته وصياغته لجنة فنية من الاختصاصيين ، وقد انجزت عملها كاملاً بتاريخ ١٩٨٣/١١/٢ ولكنها لم ترفع مشروع الدليل لاستصداره من رئاسة الوزراء إلا بعد ان استكملت كافة الملاحظات والآراء حوله من قبل الوزارات المعنية والاتحادات النوعية والمنشآت الاقتصادية ووضعتها موضع الاعتبار لدى اعادة صياغته بشكله النهائي بتاريخ ١٩٨٢/٩/١٥ وهو قيد الاصدار حالياً .

وهذا الدليل سيطبق منذ بدء اعـداد الخطة الخمسية الرابعة قريباً ويتضمن الفصول التالية :

« التعريف بالمشروع ووصفه — تحديد مكونات التكاليف الاستثمارية ـ تحديد مكونات تكاليف التشغيل السنوية — تقدير المبيعات السنوية (الموارد) — حساب القيمة الحالية للتدفقات النقدية — حساب الجدوى الاقتصادية للمشروع أو التكاليف والمنافع بالنسبة لمجمل الاقتصاد الوطني أو ما يسمى التقييم النهائي للمشروع ... »

أما بشأن الدراسة التي ذكر الكاتب أنه كان تقدم بها ولا يعلم مصيرها (بسبب ما تلقيه من أعباء) ، فان هيئة تخطيط الدولة لم تأخذ بهذه الدراسة الاولية المبسطة

بل انطلقت من الافق العلمي المطلوب لوضع مشروع دليل التقييم المبدئي للمشاريع اذ تبين ان تلك الدراسة لا يتجاوز حجمها صفحتين وتقتصر على ذكر عناوين بنود لا تشمل العناصر الاساسية للتقييم التي تناولها المشروع النهائي الذي تقدمت به اللجنة الفنية المشكلة من قبل هيئة تخطيط الدولة كما نوهنا أعلاه ، وهذا المشروع دليل متكامل وعلمي ويستند الى اسس سليمة ويعتمد المصطلحات التقنية والتبويب المنهجي وهو قيد الاصدار حالياً ولكنه ليس بديلاً عن الدراسة المنوه عنها التي أحيلت الى لجنة الصناعة والنفط في تموز ١٩٧٢ ولم تخرج الى النور لتوضع موضع الدراسة الجدية .

راجين الاطلاع والنشر في المكان المخصص .

دمشق في ١٩٧٢/١١/١٧ — مستشار في هيئة تخطيط الدولة

الدكتور عبدالكريم سعود